الغربان

قصة

سيدي

تحية وسلاماً - وبعد - فلي الشرف العظيم بأن أتقدم اليكم بهذا الكتاب الجديد الذي يدل دلالة جلية على ان واضعه يحب اصلاح الأساليب الادبية ويسعى لذلك بما لديه من قوة عظيمة .

واضع هذا الكتاب الاستاذ مخائيل نعيمه لا يزال في سن الشباب لم يدرك الاربعين على انه أتم دروسه العالية في المدارس الروسية ونال شهادة جامعة واشنطن في الشريعة عام ١٩١٦ ويظهر ان مطالعاته الخصوصية المتواصلة لا حد لها .

في نيويورك جمعية ادبية (الرابطة القلمية) تفتن منذ نشأتها في تهذيب اساليب الكتابة والشعر وواضع (الغربال) هو مستشار تلك الرابطة القلمية وآثاره الادبية - النثرية والشعرية - كثيرة جداً ولئن ابتدأت بتقديم هذا الكتاب النقدي اليكم اليوم فسأكون سعيداً جداً يوم اتقدم اليكم بديوانه وغير ديوانه من آثاره الطريفة

لي رجاء يا سيدي ان تعنوا بالكتاب العناية التي يستحقها وان تنزلوه منزلته الادبية التي تتناسب مع مجهود صاحبه وناشره .

وتقبلوا سلام المخلص لكم ؟

الياس انطون الياس

اعلان

قد عزمنا بعونه تعالى على متابعة نشر كل ما نتوسم فيه فائدة ولذة للجمهور من المؤلفات الادبية والاجتماعية والعلمية والتاريخية والفكاهية والروايات والقصص وغير ذلك تحت اسم

سلسلة المطبوعات العصرية

وذلك بالاتفاق مع مشهوري الكتاب والمؤلفين ، وسنبذل كل مافي وسعنا في سبيل مرضاتهم واظهار مؤلفاتهم في احسن حُلّة تليق بها ؟

الياس انطون الياس

2 copies
Naimy, Mikhail,
al-ghurbal
PJ
7503
N26
1923

الغربال

مجموعة مقالات نقدية

بقلم

ميخائيل نعيمه

يطلب من

المطبعة العصرية

لصاحبها الياس انطون الياس

تلفون ٢٠-٥٦ بعبدا

8133
892-1
OCLC
11643317
B 11436918
11723634
M582 n
٨١٠,٩
م. ز ب

قد
ولذة لك
والفكاه

وذلك
مافي وس
تليق بها

حقوق الطبع محفوظة

المطبعة العصرية
لصاحبها الياس انطون الياس
عمره ٥٦٠٢٠ بعبدا

سنة ١٩٢٣

كلمة الناشر

لما ظهر كتاب « بلاغة العرب في القرن العشرين » رأيت الذين يعول على آرائهم وأذواقهم في الادب الحديث يستعذبون أساليب الاستاذ الالمعي مخائيل نعيمه . ولقد طلب مني غير واحد من الافاضل ان أنشر له كتاباً خاصاً ، فتفاوضت معه في ذلك فلبى الطلب وأرسل اليّ مقالات « الغربال » وكان أهم مطلب له العناية الكبرى بأظهار الكتاب بشكل جميل مع العناية بالتصحيح . ولقد رأيت الاستاذ الياس انطون الياس صاحب المطبعة العصرية أقدر من يستطيع القيام بهذه المهمة لاستعداد مطبعته استعداداً جعلها فريدة بأتقان فن الطباعة لذلك سمحت له أن يباشر طبع الكتاب ونشره بمعرفته وعنايته ونفقته ، بعد ان تفضل علينا الاستاذ النابغة عباس افندي محمود العقاد بتقديم الكتاب الى القراء بمقدمته البليغة فله الشكر الجزيل .

١٧ ابريل سنة ١٩٢٣ — محيي الدين رضا

مقدمة

(بقلم العقاد)

صفاء في الذهن واستقامة في النقد وغيرة على الاصلاح وفهم لوظيفة الادب وقبس من الفلسفة ولذعة من التهكم — هذه خلال واضحة تطالعك من هذا « الغربال » الذي يطل القارىء من خلاله على كثير من الطرائف البارعة والحقائق القيمة

أسامنيه ناشره الاديب عشية سفري الى اسوان ، فاغتبطت بالهدية وشكرتها للمؤلف والناشر لانها متعة من القراءة الطريفة أتزود بها في هذه الرحلة ، ولانها من الوجهة الاخرى دليل من دلائل القرابة الفكرية ووثيقة نسب جديد من انساب الادب . وأي شيء ادل على قرابة الفكر وأبين عن عروقها الممتدة وارحامها المؤلفة من كتاب تخطر معانيه وتصاغ عباراته في « نيويورك » تحت سماء القارة الامريكية ثم تكتب مقدمته في « اسوان » تحت سماء القارة الافريقية ؟؟ فهذا ما ليس يصنعه الا الفكر ، ذلك الجوهر الخالد الذي لا مكان له ولا زمان ، والذي لا قرابة اقرب منه بين انسان وانسان . فهو الغاية بعد كل غاية والجامعة أسمى من كل جامعة ولو ان نفساً في المريخ خطر في ضميرها مثل الذي يخطر في

ضميري لكانت ألصق بي وأوفى رحماً ممن يليني ويجاورني على فرقة في الرأي والاحساس ، ولو ان قائلا جمعني به الفكر والهوى لما كان غريباً عني وان فرقتنا لغة وباعد بيننا زمان وموطن . فكيف به يكتب باللغـة التي اكتب بها وينتمي الى جانب الارض الذي انتمي اليه ؟ ؟

والحق انني قد وقعت من قراءة هذه الصفحات على قرابة صحيحة وجوار ملاصق في الحي الذي اسكنه من هذه الدنيا الادبية الجديدة ، رأيت قلماً جاهداً في طلب الشعر الصحيح شعر الحياة ، لا شعر الزحافات والعلل ، ورأيته ينعي على الشعر الرث الذي تركنا بلا شعر ولم يبق « في حياتنا ما ليس منظوماً سوى عواطفنا وافكارنا » ورأيته يريد من الشاعر ان يكون نبياً وينكر ان يكون بهلواناً ، ويريد من الشعر ان يكون وحياً والهاماً وينكر ان يكون « ضرباً من الحلج والجمز والمشي على الاسلاك والانتصاب على الرأس ورفع الاثقال بالاسنان ولف الرجلين حول العنق الى ما هنالك من الحركات التي تجيدها القردة ايما اجادة » فشعرت وانا اتابع قراءة هذه الصفحات بما تشعر به القافلة المنبتة في المفازة السحيقة اذا ارتفعت لها قافلة اخرى تنشد الغـاية التي خرجت تنشدها واوشكت ان ترتد عنها يائسة . فقد همنا امر الادب وحبب الينا ان نراه طلقاً قوياً وان لا نقر على رؤيته مقيداً شائهاً سقيما

واحسسنا ونحن نخاطب الناس في ذلك كأننا نخاطب عجماً لا يفقهون العربية او خلائق من طينة اخرى لا تفهم الطبيعة الآدمية ، ولو كنا اذ دعونا أجيبت دعوتنا لاول صيحة لما اصبح العناد في تصحيح الادب كلفاً عندنا وغراماً ودينا لزاماً ، ولما كان من امر الخلاف في شأن الادب بيننا وبين انصار القديم واحلاس الجمود الا بمقدار ما يقول قائل « السلام عليكم » فيجيبه الآخر « وعليكم السلام » ثم ينقضي الخلاف وينفض الخصام ... ولكننا دعونا فصمت الاسماع ووضعت الاصابع في الآذان ونطقنا بالبديهيات فاحتاجوا جهلا منهم وعناداً الى البينة والدليل ، فأصبح الجمود ثأراً لنا عندهم والدعوة الى الجديد نجدة في الجهاد وامتزاجاً في الدم وقرابة في النسب ومشاركة في الحق والواجب ، واكاد اقول انه لو لم يكتب قلم النعيمي هذه الآراء التي تتمثل للقارىء في هذه الصفحات لوجب ان اكتبها انا . فأما وقد كتبها وحمل عبئها فقد وجب على الاقل ان اكتب مقدمتها ....

واني لأعرف كيف يستحق النعيمي التهنئة بجرأته التي ظهر بها في مقالاته وصراحته التي تقدم بها الى غربلة الناس والكتب والآراء . لانني اعرف الآراء المستحدثة وما تجلبه على اصحابها من الغضب والملاحاة في بلاد العالم اجمع وفي بلاد الشرق خاصة . أعرف ان ليس اضيع عندنا من مجترىء على تمزيق غلاف الاجنة

عن جوارحه واستنشاق هوائه بأنفـه ، وأن ليس أخسر صفقة في موازيننا من عمل داع الى جديد . لان انصار الجديد قليل في كل جيل والفاهمين منهم لما ينصرون اقل من القليل . ولا يزال هؤلاء الانصار قلة متوارية او كاشفة كمتوارية حتى اذا كثروا وانتشروا والتف شملهم واشتد ازرهم ضـاع المقياس الذي يقاس به فضل الداعي ونسي عمله وبدا للخالفين من بعده كالذي يحمل المعول الـكبير يضرب به في الهواء ويغضب به على الفضاء ويتصبب عرقاً في غير شيء . ذلك لان السد الذي كان أمامه والذي كان لا يبرح قائماً قاعداً يضربه ويفني عافيته وحظوظه وآماله في هدمه يكون قد عفا في ذلك الحين وتمهد مكانه الطريق سهلا سوياً تدوسه السابلة ولا تتعثر فيه اقدام الاطفـال ، ولا يبقى له من الاثر الا ذلك الجهاد المغموط البادي للعين في تلك الصورة العابثة الهازلة — او قل المضحكة — صورة الضارب بالمعول في احشاء الفراغ .... ولا والله ما هي بعبث هازل ولا بضحك ضاحك ولـكنها صعقات واهوال واشجان . اما جزاء ذلك الداعي الشهيد على ما أسلف من الخير وبذل من مهجة القلب فمن ذا الذي يعنيه ان يذكره ؟ ؟ لعله يبقى مدخراً له في ذمة « ابولون » وناهيك بما في ذمم الاوثان المعبودة من هضم ومن سعة !!

٭٭٭

أثنى بعضهم امام ديوجينس اليوناني على فيلسوف فقال له ديوجينس : « كيف يكون فيلسوفاً من عالج الفلسفة طول هذا الزمن ولم يصب احداً ؟؟ » ولقد اصاب ديوجينس وقال قولا يصدق على الناقدين كما يصدق على الفلاسفة ، بل هو ان صدق على الفلاسفة مرة صدق على الناقدين مراراً . لان الفلسفة قد ترمي بغير تسديد اما النقد فانه يسدد السهم الى هدف قبل ان يرميه . ولا بد للناقد من ان يصيب عامداً الى الاصابة او غير عامد ومنصفاً في نقده او غير منصف : يصيب الناس ان لم يصب المنقود وقد يصيب الناس والمنقود معاً . فهو لذلك ادنى الكاتبين الى اللوم وابعدهم عن العذر واحوجهم الى الجرأة والصبر على مخالفة الناس . فان وطن نفسه على ذلك والا فخير له وللناس ان يحطم قلمه ويريق مداده ويغربل الماء بدلا من غربلة الاخلاق والآراء

وليس اديبنا صاحب هذا « الغربال » ممن يجهلون هذه الحقيقة فقد علمها وادّرع لها وغربل الناس وهو يظن انهم ناخلوه . وسيصدق ظنه وسينخل الناس كلامه وسيقولون فيه كثيراً من الحق والباطل . ولكني ضامن له ان سيبقى له في اوسع غرابيلهم التي ينخلونه بها بقية لا ينكرها عليه منصف ولا يبخس قيمتها عارف . فسيشهد الخالون من الغرض أنه عمل في تصحيح كثير من مقاييس الادب فأفلح وافاد . ومن صحح مقياساً للادب فقد

صحح مقياساً للحياة وخليق بتصحيح مقاييس الحياة ان يكون امل امة لا امل اديب او طائفة من الادباء

سيقولون كثيراً . ألم اقل ذلك ؟؟ نعم . وسأقول انا كلمة من هذا الكثير

اما كلمتي انا ففي خلاف صغير بيني و بين المؤلف لا اعرضه للمناقشة الا لان الاتفاق بيننا في غير هذا الموضع عظيم . وزبدة هذا الخلاف ان المؤلف يحسب العناية باللفظ فضولا ويرى ان الكاتب او الشاعر في حل من الخطأ ما دام الغرض الذي يرمي اليه مفهوماً واللفظ الذي يؤدي به معناه مفيداً . ويعن له ان التطور يقضي باطلاق التصرف للادباء في اشتقاق المفردات وارتجالها . وقد تكون هذه الآراء صحيحة في نظر فريق من الزملاء الفضلاء ولكنها في نظري تحتاج الى تنقيح وتعديل ، ويؤخذ فيها بمذهب وسط بين التحريم والتحليل

فرأيي ان الكتابة الادبية فن والفن لا يكتفى فيه بالافادة ولا يغني فيه مجرد الافهام . وعندي ان الاديب في حل من الخطأ في بعض الاحيان ولكن على شرط ان يكون الخطأ خيرا وأجمل واوفى من الصواب ، وان مجاراة التطور فريضة وفضيلة ولكن يجب ان نذكر ان اللغة لم تخلق اليوم فنخلق قواعدها واصولها في طريقنا وان التطور انما يكون في اللغات التي لها ماض وقواعد

واصول . ومتى وجدت القواعد والاصول فلماذا نهملها او نخالفها الا لضرورة قاسرة لا مناص منها ؟ ؟

ومع هذا يلوح لي ان الخلاف بيننا خلاف في التطبيق لا في الجوهر . لان المؤلف الالمعي يعرف العلاقة بين اللفظ والمعنى احسن تعريف ولا يجور باللفظ ولا بالمعنى عن حده في البلاغة . وله في هذه المجموعة اقوال كثيرة في هذا المعنى منها قوله في بلاغة شكسبير : « ان بين افكاره واكسيتها اللغوية ترابطاً هو غاية في الدقة والفن وهذا الترابط هو ما يكسبها جلالها الملوكي وسلاستها السحرية ورنتها الموسيقية ومن ترجمها دون جلالها وسلاستها ورنتها يكون كمن اخذ من الشجرة ساقها بعد ان عراه من الفروع والغصون والاوراق » . وليس يقول قائل من عشاق البلاغة اللفظية غير ذلك في هذا الصدد ولا اكثر من ذلك

على اننا نعود فنقول : هبوا كتابنا وشعراءنا العرب في الاقطار الامريكية قد ذهبوا بالحرية اللفظية الى ابعد من مداها فهل ننسى لذلك مآثر هذه الحرية ومحاسنها ونجهل الجهل الذي لا مسوغ له فنغلق ابوابنا كلها دونها ؟ ؟ اليست هي التي فكت عن قرائحهم قيود التقليد واخرجتهم من مآزق الاوزان المعهودة والقافية العتيقة وافهمتهم حقيقة الادب فافتنوا في الشعر وابتدعوا في اوزان النظم وساروا بالادب على نهج الحياة والتقدم ؟ ؟ اليس لهذه الحرية

فضلها المحمود واثرها المرجو في آدابنا العربية ونتيجتها التي تزداد مع الايام انتشاراً ونفعاً ؟؟ بلى ذلك حق لا ريب فيه . وان بين ايدينا الآن لهدية من انفس هدايا تلك الحرية المباركة وروحاً من الحياة تهب على مقاييسنا الآلية البالية

فلنفهمها مخلصين ولنتقبلها شاكرين معجبين ؟

عباس محمود العقاد

اسوان في ٢٤ مارس سنة ١٩٢٣

الغربلة

في المثل : مَن غَرْبَلَ الناس نَخَلوه .

اذن ، ويل للناقدين ! ويل لهم لان الغربلة دينهم وديدنهم . فيالبؤسهم يوم ينظرون خلال ثقوب غرابيلهم فيرون انفسهم نخالة مرتعشة في الوف من المناخل ! اذ ذاك يعلمون اي منقلب ينقلبون . فيندمون ، ولات ساعة مندم !

اجل . ان مهنة الناقد الغربلة . لكنها ليست غربلة الناس . بل غربلة ما يدونه قسم من الناس من افكار وشعور وميول . وما يدونه الناس من الافكار والشعور والميول هو ما تعودنا ان ندعوه ادبًا . فمهنة الناقد ، اذن ، هي غربلة الآثار الادبيـة . لا غربلة اصحابها . واذا كان من الكتاب او الشعراء من لا يفصل بين آثاره الادبية التي يجعلها تراثًا للجميع وبين فرديته التي لا تتعداه ودائرةً محصورة من اقربائه واصحابه فذاك الكاتب او ذاك الشاعر لم ينضج بعد . وليس اهلاً لان يسمى كاتبًا او شاعراً . كذلك الناقد الذي لا يميز بين شخصية المنقود وبين آثاره الكتابية ليس اهلاً لان يكون من حاملي الغربال او الدائنين بدينه

ان شخصية الكاتب او الشاعر هي قدسه الاقدس . فله ان يأكل ويشرب ويلبس ما شاء ومتى شاء وحيث شاء . له ان يعيش ملاكاً . وله ان يعيش شيطاناً . فهو اولى بنفسه من سواه . غير انه ساعة يأخذ القلم ويكتب . او يعلو المنبر ويخطب . وساعة يودع ما كتبه وما فاه به كتاباً او صحيفة ليقرأه كل من شاء ، ساعتئذٍ يكون كمن سلخ جانباً من شخصيته وعرضه على الناس قائلاً : « هو ذا يا ناس ، فكر تفحّصوه . ففيه لكم نور وهداية . وها كم عاطفة اختصوها فهي جميلة وثمينة . » واذ ذاك يسوغ لي ان احك فكره بمحك فكري . وان استجهر عاطفته بمجهر عاطفتي . وبعبارة اخرى ، ان اضع ما قاله لي في غربالي لافصل قمحه عن زوانه واحساكه . فذاك حق لي . كما ان من حقه ان يكتب ويخطب

ما كنت لاهتم بتبيان هذه الحقيقة البسيطة لولا ان الكثيرين من كتاب العربية وقرائها لا يزالون يرون في النقد ضرباً من الحرب بين الناقد والمنقود . فاذا قال الناقد عن قصيدةٍ ما لشاعرٍ ما إنها تافهة فكأنه قال للشاعر نفسه : « انت رجل تافه . » واذا فحص كتاباً لكاتب فوجده ناقصاً من وجوه كثيرة فكأنه صاح من اعالي السطوح ان ذاك الكاتب « رجل ناقص » . وكثيراً ما يحدث للناقد ان يعثر على قصيدة اخرى لذاك الشاعر عينه فيقول

فيها قولاً جميلاً صالحاً . فاذا طبقنا هذا القول على شخصية الشاعر المنقود كان منه ان الناقد يقول في الشاعر الواحد انه « رجل تافه » وبعد لحظة ، او بعد ساعة ، انه « رجل جميل صالح » . ومن ذا من الذين اعطاهم الله ذرة من العقل والتمييز يناقض ذاته بذاته مثل هذه المناقضة ؟ ناهيك عن انه كثيراً ما يقع للناقد ديوان لا يرى فيه بصيص الشاعرية . فيقول في صاحبه انه ليس شاعراً . أمن الحلال ان نتهم الناقد بالقول ان صاحب الديوان « ليس رجلاً » ؟ فقد يكون روائياً من فحول الروائيين . او فيلسوفاً من ابعد الفلاسفة غوراً . فنفي القوة الشعرية فيه لا ينفي مقدرة الكتابة والتفلسف

لنقم هذا الحد فاصلاً بين شخصية الكاتب والشاعر وبين ما يكتبه الاول وينظمه الثاني وحينئذٍ يسهل علينا فهم الغربلة الادبية والقصد منها

ان قصد المغربل من الغربلة ليس الا فصل الحبوب الصالحة عن الطالحة وعما يرافقها من الاحساك والاوساخ . والقصد من النقد الادبي هو التمييز بين الصالح والطالح . بين الجميل والقبيح . بين الصحيح والفاسد . وكما ان مغربل الحبوب — الا اذا كان غربالة آية في الدقة وكان هو ماهراً لدرجة الكمال — لا بد من ان تسقط من ثقوب غربالة بعض حبوب صالحة مع الطالحة . وتبقى

فيه بعض حبوب طالحة مع الصالحة . هكذا الناقد لا ينجو من زلة او هفوة . فقد يرى القبيح جميلاً . او يحسب الصحيح فاسداً . وما ذاك الا لانه بشر . والعصمة ليست لبني البشر . فلنحاسب الناقدين بنواياهم أولاً . فان اخلصوا النية فزلاتهم مغفورة لهم . ومن ثم بغرابيلهم . فان كانت محكمة الصنع . متناسقة الثقوب . وأجادوا هم استعمالها فذاك حد ما يحق لنا مطالبتهم به

— من الشائع عن الناقدين انهم قلما اتفق اثنان منهم يوماً على رأي واحد في امر واحد . وهذا القول قريب من الحقيقة ، اذا لم يقصد به التهكم . لان لكل ناقد غرباله ، لكل موازينه ومقاييسه . وهذه الموازين والمقاييس ليست مسجلة لا في السماء ولا على الارض . ولا قوة تدعمها وتظهرها قيمة صادقة سوى قوة الناقد نفسه . وقوة الناقد هي ما يبطّن به سطوره من الاخلاص في النية . والمحبة لمهنته . والغيرة على موضوعه . ودقة الذوق . ورقة الشعور . وتيقظ الفكر . وما اوتيه بعد ذلك من مقدرة البيان لتنفيذ ما يقوله الى عقل القاريء وقلبه . فالناقد الذي توفرت له مثل هذه الصفات لا يعدم اناساً ينضوون تحت لوائه . ويعملون بمشيئته . فيستحبّون ما يحب . ويستقبحون ما يقبّح . فيصبح ، وهو وراء منضدته ، سلطاناً تأتمر بأمره ، وتتمذهب بمذهبه ، وتتحلى بحلاه ، وتتذوق

بذوقه الوف من الناس . اذا طرق سبيلاً سلكوه . واذا صبّ نقمتـه على صنم حطموه . واذا اقام لهم الهاً عبدوه وبخّروا له وسبّحوه .

غير ان الناقدين طبقات . كما ان الشعراء والكتاب طبقات . فما يصلح ان يقال في الواحد منهم لا يصلح ان يقال في كلهم . الا ان هناك خلة لا يكون الناقد ناقداً اذا تجرد منها . وهي قوة التمييز الفطرية . تلك القوة التي توجد لنفسها قواعد ولا توجدها القواعد ، التي تبتدع لنفسها مقاييس وموازين ولا تبتدعها المقاييس والموازين . فالناقد الذي ينقد « حسب القواعد » التي وضعها سواه لا ينفع نفسـه ولا منقوده ولا الادب بشيء . اذ لو كانت لنا « قواعد » ثابتة لتمييز الجميل من الشنيع . والصحيح من الفاسد لما كان من حاجة بنا الى النقد والناقدين . بل كان من السهل على كل قاريء ان يأخذ تلك « القواعد » ويطبق عليها ما يقرأه . لكننا في حاجة الى الناقدين لان اذواق السواد الاعظم منا مشوهة بخرافات رضعناها من ثدي امسنا . وترهات اقتبلناها من كف يومنا . فالناقد الذي يقدر ان ينتشلنا من خرافات امسنا وترهات يومنا . والذي يضع لنا اليوم محجة لندركها في الغـد هو الرائد الذي سنتبعه . والحادي الذي سنسير على حدوه

لقد يسأل البعض : واي فضل للناقد اذا كانت مهمته لا تتعدى

الغربلة ؟ فهو لا ينظم قصيدة بل يقول لك عن القصيدة الحسنة انها حسنة . وعن القبيحة انها قبيحة . ولا يؤلف رواية . بل ينظر في رواية الفها سواه ويقول – اعجبني منها كذا ولم يعجبني كذا ؟

فاجيبهم : واي فضل للصائغ الذي تعرض عليه قطعتين من المعدن متشابهتين . فيقول في الواحدة انها ذهب . وفي الاخرى انها نحاس ؟ او تعطيه قبضة من الحجارة البلورية البراقة فينتقي بعضها قائلاً : هذا ماس . ويقول في ما بقي : هذا زجاج ؟ ان الصائغ لم يخلق الذهب ولا اوجد الماس . لم يخلقهما كما خلق الله العالم من لا شيء . لكنه « خلقهما » لكل من يجهل قيمتهما . ولولاه لظل الذهب نحاساً والماس زجاجاً او العكس بالعكس . وكم هم الذين يميزون بين الماس وتقليد الماس ؟

اذا لم يكن للناقد من فضل سوى فضل رد الامور الى مصادرها وتسميتها باسمائها لكفاه ذاك ثواباً . الاّ ان فضل الناقد لا ينحصر في التمحيص والتثمين والترتيب . فهو مبدع ومولّد ومرشد مثلما هو ممحّص ومثمن ومرتّب

هو مبدع عند ما يرفع النقاب في اثر ينقده عن جوهر لم يهتد اليه احد . حتى صاحب الاثر نفسه . فكم سألت نفسي من هذا القبيل : ليت شعري . هل درى شكسبير يوم خط رواياته وأغانيه انها ستكون خالدة ؟ ام تراه وضعها ليقضي بها حاجة وقتية ظن انها

ماتت بموته ؟ — انني من الذين يرجحون الرأي الثاني . لذاك يجلون الناقدين الذين « اكتشفوا » شكسبير بعد موته اجلالهم للشاعر نفسه . اذ لولاهم لما كان لنا شكسبير . وفي اعتقادي ان الروح التي تتمكن من اللحاق بروح كبيرة في كل نزعاتها وتجوالها . فتسلك مسالكها وتستوحي موحياتها . وتصعد وتهبط صعودها وهبوطها لروح كبيرة مثلها

ثم ان الناقد مولد لانه في ما ينقد ليس في الواقع الا كاشفاً نفسه . فهو اذا استحسن امراً لا يستحسنه لانه حسن في ذاته . بل لانه ينطبق على آرائه في الحسن . وكذلك اذا استهجن امراً فلعدم انطباق ذلك الامر على مقاييسه الفنيـة . فللناقد آراؤه في الجمال والحق . وهذه الآراء هي نبات ساعات جهـاده الروحي . ورصيد حساباته الدائمة مع نفسه تجاه الحيـاة ومعانيها . وهي اذا تسامت ، ثم دعمت من الناقد بالاخلاص والحماس والغيرة ومقدرة البيان ، سطت بقوة خفية على جماهير قرائه . فاعطتهم وجهة جديدة وايماناً جديداً

والناقد مرشد لانه كثيراً ما يرد كاتباً مغروراً الى صوابه . او يهدي شاعراً ضالا الى سبيله . فكم من روائي عظيم توهم في طور من اطوار حياته انه خلق للقريض . لكنه نظم ولم ينظم سوى كلام . الى ان قيض الله له ناقداً رفع الغشاء عن عينيه فأراه ان

الرواية مسرحه وليس البحور الشعرية ! وكم من شاعر سخر منه الناس حتى كادوا يقتلون كل موهبة فيه الى ان اتاه ناقد اظهر للناس مواهب فيه ثمينة . وودائع نفيسة . فانقلب سخرهم تكريماً وتهليلاً ! مثل هذا الكاتب والشاعر هما هدية الناقد الى الامة والبشرية

من الناس كذلك من يقول — ويقول باخلاص — ان لا صلاحية لناقد ان ينقد شاعراً او كاتباً او ابن اي فن كان من الفنون الا اذا كان هو نفسه شاعراً او كاتباً او من ابناء ذاك الفن . فجوابي لهؤلاء هو جواب احدهم وقد سمع هذا الاعتراض عينه فقال : « أعليّ ان ابيض البيضة ، اذن ، لا عرف ما اذا كانت صالحة او فاسدة ؟ »

ان هذا الجواب ، في ذاته ، لجواب مفعم . لا يحتاج الى تفسير او زيادة . غير ان من الناس من لا يدركون ان من لا ينظم القصيدة قد يقرأ فيها اكثر مما اودعها ناظمها . فرب ناقد لم ينظم في حياته بيتاً ولا عرف ما في النظم من مشقة الاوزان والقوافي ولا من لذة الفوز بها . غير ان ذلك لا يعوقه عن ادراك ما في الافصاح عن عوامل النفس من لذة روحانية . ولا يعميه عن تموجات الالوان في الرسوم الكلامية . ولا يصمه عن رنة الالحان في مقاطع الالفاظ والعبارات . والاّ لا يكون ناقداً . واذا تيسر له ذلك ففي امكانه

الدخول الى مستودع روح الشاعر وتفقد مخبّئاته الى ان تتولد فيه حالة نفسية كالتي تمخضت في الشاعر بتلك القصيدة . فيصبح الناقد كأنه الشاعر وكأن القصيدة من وضعه . وإذ ذاك لا حاجة به ان يكون عالماً بكل دقائق العروض ليفهم الشاعر ويقدر نتاج قريحته

ان حظ الناقدين من دهرهم قليل . فهم لا يرضون فريقاً من الناس الا باغضاب فريق آخر . غير ان القوي بينهم — والقوي من اخلص النية — لا يحفل بمن يرضى وبمن يغضب . لانه يخدم غاية اكبر من رضاء الناس وسخطهم . ويتم وظيفة هي من اهم وظائف الحياة . فالغربلة سنة من السنن التي تقوم بها الطبيعة . والطبيعة اكبر مغربل . أوَ لا تراها في كل حالاتها تنبذ وتحتضن ؟ الا تراها في الشتاء تكفّن الارض بالثلوج او تغمرها بالغيث لتحفظ من الفساد ما في رحمها من جراثيم الحياة ؟ واذ يأتي الربيع تحول الثلج ماء وترسل ما زاد منه عن حاجتها الى البحور . وما بقي تبعثه مع حرارة الشمس الى لُباب الحبة قوّة تنشط بها من الموت الى الحياة . وعند ما تنبثق الحياة اوراقاً وازهاراً تحتفظ بالازهار الى ان تتكون الاثمار . فتبعثر الازهار وتبقي الاوراق ستاراً للاثمار الى ان تنضج . واذ تنضج الاثمار تذري الاوراق وتعبث بالقشور لتعود وتحتضن الحبة من جديد

الغربلة سنة الطبيعة وسنة البشر الذين هم بعض من الطبيعة

فنحن نقطع ما قسم لنا من العمر حاملين كلّ غرباله وواضعين فيه كلّ فكر يخطر لنا ببال . وكل شعور يختلج لنا بصدر . وكل عمل نأتيه وكل عمل ننوى اتيانه ولا نأتيه . وكل ما يتصل بنا من افكار الغير وشعورهم واعمالهم ونواياهم . ولكل منا الحق بأن يكون له غرباله يغربل به نفسه كيف شاء . لكن لنا عواطف وافكاراً مشتركة . هي نتاج مجهوداتنا الادبيـة المشتركة . وغربلة هذه هي وظيفة الناقدين . والله يعلم اننا في حاجة اليهم

فلنعط المغربل حقه . ولنسأل الحظ ان يسعدنا بمغربلين حاذقين ، صادقين .

١. النقد عمل لحسي وسنة عامة (٢٢)
٢. عمل الناقد : تمحيص وتمييز وابداع (١٩)
٣. النقد غير الانشاء (١٨)
٤. قواعد النقد تنبع من ذات الناقد (١٨)
٥. النقد ذاتي لا موضوعي (١٧، ٢٠)

في هذا البحث ضعف في ترتيب النقاط وتوضيح بأمثلة كافية ، ولكنه بداية طيبة .

محور الادب

(وُضِعت مقدمةً « لمجموعة الرابطة القلمية » لسنة ١٩٢١)

« والذي حارت البرية فيه حيوان مستحدث من جماد

هو الانسان — عبرة العبر وحيرة الحير . يجيء من حيث لا يدري . ويمضي حيث لا يدري . يحل هذه الارض ردحاً من الزمن فيبهره جلال ما يرى ويسحره جمال ما يسمع . فوقه نجوم لا تعد . وحوله فضاء لا يحد . وخلفه وامامه حياة تتردى كل لحظة برداء . فصول تعقب فصولا ، واجيال تلحق باجيال . نهار تبتلعه ظلمة . وظلمة يمحوها نهار . ولادة وموت ، وموت وولادة . وبين الولادة والموت اشواق لا تنطفي حتى تلتهب . وآلام لا تكنّ حتى تهيج . وسعادة لا تورق حتى تذوي . وعطش لا يرتوي حتى يعود . وجوع لا يطمئن حتى يثور

هو الانسان — احجية الاحاجي . منذ راودت نفسه اليقظة حتى اليوم وهو في صراع مستتب مع الطبيعة . لا يصرعها مرة حتى تصرعه الف مرة . ولا يتغلب على عثرة من عثراتها حتى تقيم في سبيله الف عثرة وعثرة . ولا يرفع الغطاء عن سر من اسرارها حتى

تباغته بألف سرّ وسرّ . فهي غالبة ابداً وهو مغلوب . ومن الغريب انه ، مع ضعفه الواضح وجبروتها الظاهر ، لا يزال يصارعها . فلا هو ينثني ولا هي ترحم . ولا هو يقرلها بالغلبة ولا هي تسحقه فتستريح منه وتريحه

فما السر في حرب هذا « الحيوان المستحدث » مع كون ، ما هو بالنسبة اليها الا حشرة صغيرة ؟ تصرعه الحياة فلا يلبث ان يعود منتصباً على ساقيه متحفزاً للوثوب . تجرعه من المرارة الواناً فلا ينقم عليها ولا يتركها الا قسر ارادته . وتنزل به من المصائب اشكالاً فيتحملها بثبات وصبر . وتقيم في وجهه من العقبات جبالاً فلا تثنيه عن سيره ولا تثبط عزيمته

ان « حيواناً » يثبت في جهاده مع الكون مثل هذا الثبات لحيوان وأيم الحق غريب عجيب . فما السر في هذا الثبات ؟

أوَ ليس السر في ان لهذا الحيوان « المستحدث » سلاحاً لا تحطمه العناصر ولا يفله الموت ؟ وهل ذلك السلاح الا قوى كامنة فيه هي اشد وامتن وابقى من قواه الحيوانية ؟

تلك قوى الروح غير الفانيـة . تلك القوى التي ترفعنا فوق الحيوانية ، وترينا في دياجير الحياة وميض انوار تحبب الينا الحيـاة وتذكي في داخلنا شرارة امل بأن لا بد ان ندرك يوماً ما نحن طالبون . اي . هي قوى الروح تسيرنا على غير معرفة منا ونشعر بها

انما لا ندركها بعد . لذاك نبحث عنها حتى اذا ما وجدناها وجدنا انفسنا فعرفنا اذ ذاك منزلتنا من الكون وسرنا معه لا ضده لنتم به ويتم بنا

اجل . اننا في كل ما نفعل وكل ما نقول وكل ما نكتب انما نفتش عن انفسنا . فان فتشنا عن الله فلنجد انفسنا في الله . وان سعينا وراء الجمال فانما نسعى وراء انفسنا في الجمال . وان طلبنا الفضيلة فلا نطلب الا انفسنا في الفضيلة . وان بحثنا عن مكروب فلا نبحث الا عن انفسنا في المكروب وان اكتشفنا سراً من اسرار الطبيعة فما نحن الا مكتشفون سراً من اسرارنا . فكل ما يأتيه الانسان انما يدور حول محور واحد هو — الانسان . حول هذا المحور تدور علومه وفلسفته وصناعته وتجارته وفنونه . وحول هذا المحور تدور آدابه . فهو في كلها يسعى وراء امر واحد . وهو ان يظهر نفسه لنفسه علّه يدرك القوى التي تسير به في بحر الوجود . ولا قيمة لعمل يأتيه الا بمقدار ما يدنيه ذاك العمل من معرفة نفسه او يقصيه عنها . وسواء أدرك الانسان ذلك ام لم يدركه فهو ابداً يقيس كل ما آتيه بهذا المقياس فيهمل منها ما لا يزيده بنفسه معرفة . ويحتفظ بما يشاهد فيه مظهراً من مظاهر نفسه . وما تاريخ المدنية لو فحصنا الا تاريخ هذه الغربلة الدائمة والمقابلة بين الامور وانتقاء ما فيه اثر روحي جليل واهمال ما ليس فيه من اثر يذكر

ان على سطح الارض ملايين من البنايات التي شادتها يد الانسان من قديمة وحديثة . لكن الاثار الهندسية التي تقرّ بها العين وتنتعش بها الروح لا تعد بالملايين ولا بالالوف . وفي العالم جبال من الرسوم والتماثيل . لكن الرسوم والتماثيل التي نقف امامها بخشوع ودهشة تعد على الاصابع .وفي مكاتب العالم قناطير مقنطرة من الآثار الكتابية . فكم هي الكتب التي لا تزال تقصدها البشرية لترشف المعرفة والحكمة من سطورها ؟

قد يخطىء الانسان اليوم في حكمه على اثر من الآثار . فيستكبر الصغير ويستصغر الكبير . قد يخطىء جيلا . لكنه لا يخطىء دهراً . فالاثر الخالد لا يموت . والميت لا يعيش . ولا يخلد من الآثار الا ما كان فيه بعض الروح الخالدة

بين كل المسارح التي تتقلب عليها مشاهد الحياة ليس كالادب مسرحاً يظهر عليه الانسان بكل مظاهره الروحية والجسدية . ففي الادب يرى نفسه ممثلا ومشاهداً في وقت واحد . هنالك يشاهد نفسه من الاقماط حتى الاكفان . وهنالك يمثل ادواره المتلونة بلون الساعات والايام . وهنالك يسمع نبضات قلبه في نبضات قلب سواه ويلمس اشواق روحه في اشواق روح غيره . ويشعر بأوجاع جسمه في اوجاع جسم انسان مثله . هناك تتخذ عواطفه الصمّاء لساناً من عواطف الشاعر . وتلبس افكاره رداء من نسيج افكار

الكاتب . فيرى من نفسه ما كان خفياً عنه . وينطق بما كان لسانه عياً عن النطق به فيقترب من نفسه ويقترب من العالم . فرب قصيدة اثارت فيه عاصفة من العواطف . ومقالة تفجرت لها في نفسه ينابيع من القوى الكامنة . او كلمة رفعت عن عينيه نقاباً كثيفاً . او رواية قلبت إلحاده الى ايمان . ويأسه الى رجاء . وخموله الى عزيمة . ورذيلته الى فضيلة . تلك مزية قد خص بها الادب . وتلك هي مملكة الادب لا ينازعه عليها منازع . وما سلطان الادب الا في انه ابداً يجول في اقطار النفس باحثاً عن مسالكها . مستطلعاً آثارها . مستفسراً اسرارها . وما شرف الاديب الا انه ابداً يشاطر العالم اكتشافاته في عوالم نفسه . حتى اذا ما وجد آخر بعضاً من نفسه في تلك الاكتشافات كان في ذلك للاديب اطيب تعزية واكبر ثواب

اذن ، فالادب الذي هو ادب ، ليس الا رسولاً بين نفس الكاتب ونفس سواه . والاديب الذي يستحق ان يدعى اديباً هو من يزود رسوله من قلبه ولبه

ان « الرابطة القلمية » ما كانت لتقدم هذه المجموعة الى قراء العربية لولا اعتقادها بأنها قد اتخذت من الادب رسولاً لا معرضاً للازياء اللغوية والبهرجة العروضية . وقد تكون مخطئة في ما تعتقد . لكن اخلاصها في الاقل يشفع بخطاها . فهي لا تدعي لهذه

المجموعة اكثر مما تستحق . فان لم يكن لها الا تشويق بعض الارواح الناشئة الى طرق الادب عن سبيل النفس لا عن سبيل المعجمات فحسبها ثوابًا . فقد كفانا ما عندنا من المعجزات اللغوية وآن لنا ان نتعطف ولو بالتفاتة على ذاك « الحيوان المستحدث » الذي كان ولا يزال سر الاسرار ولغز الالغاز . لعلنا نجد فيه ما هو احرى بالنظر والدرس من رأس السمكة في قولهم « اكلت السمكة حتى رأسها »

الرواية التمثيلية العربية

(وضعها المؤلف توطئة لروايته « الاباء والبنون »)

حنق البعض على الغرب لاعتقادهم بأن المدنية الغربية نفثت في حياتنا الجميلة الطاهرة ، الراتعة بأمن تحت أجنحة الملائكة والقديسين ، روح فسق وخلاعة وكفر . وتغنى الآخرون بعظمة الغرب فصاحوا بنا — هيا نعبد الغرب وكل ما خلقه الغرب !

اما نحن فنرى الأفضل ان نقف على الحياد بين أولئك وهؤلاء تاركين لهم حق تسوية خلافهم بالمدى والفؤوس اذا ارادوا ، بشرط ان لا يعارضونا اذا تجاسرنا ان نعترف ولو بفضل واحد للغرب — وهو فضل آدابه على آدابنا

ما تعوّد البعض ان يدعوه « نهضة أدبية » عندنا ليس سوى نفحة هبّت على بعض شعرائنا وكتّابنا من حدائق الآداب الغربية ، فدبت في مخيلاتهم وقرائحهم كما تدِب العافية في اعضاء المريض بعد إبلاله من سقم طويل . والمرض الذي ألمّ بلغتنا اجيالاً متوالية كان شللاً أوقف فيها حركة الحياة وجعلها ، بعد عزها السابق ، جيفة تتغذى بها أقلام الزّعانِف المستعبدين وقرائح « النظّامين »

والمقلدين . أما اليوم فقد رجعنا الى الغرب ، الذي كان بالامس تلميذنا ، لنقتبس عنه امثولة جعلناها حجر زاوية « نهضتنا الادبية » . وتلك الامثولة هي ان الحياة والادب توأمان لا ينفصلان ، وأن الادب يتوكأ على الحياة ، والحياة — على الادب ، وانه — اعني الادب — واسع كالحياة ، عميق كأسرارها ، ينعكس فيها وتنعكس فيه . أدركنا — بفضل الغرب — ان نظم الشعر ممكن في غير الغزل والنسيب ، والمدح والهجاء ، والوصف والرثاء ، والفخر والحماسة . لذلك أطربتنا نغمة بعض شعرائنا الحديثين الذين تجاسروا ان يتعدوا هذه الحدود المقدسة . وانتقلت الينا — بفضل الغرب كذلك — الرواية ، او ما يدعونه بالانكليزية (نوفل) وبالافرنسية (رومان) . وكنا اسبق الناس اليها . فوجدنا فيها مجالاً واسعاً لوصف الحياة والتأثير على العقول والقلوب بواسطة القلم ، وادركنا ان النثر لا ينحصر في صف الكلام المسجع ، والاكثار من الالفاظ الشاردة المدفونة في بطون المعاجم ، وتحبير المقالات المملة في موضوعات مبتذلة . فقام بيننا بعض من جرّبوا ان يمثلوا حياتنا اليومية في روايات وطنية .

وهذه خطوة الى الامام .

لكن « نهضتنا الادبية » لا تزال في الاقمطة ، وما نطقت به حتى اليوم ليس سوى لثغ طفل لا يزال مقيّد اللسان ، محدود

العواطف ، ضعيف العضـل . وقد لا يحق لنا ان نلومها على هذا الضعف . لكننا لا نكتم ان رجاءنا بمستقبلها يضعف عند ما نراها قد أهملت باباً كبيراً من ابواب الادب لو خُير الغرب بينـه وبين بقية الاساليب الكتابية لاختاره دونها . نحن نعني – الرواية التمثيلية .

الرواية التمثيلية رافقت الآداب الغربية منذ نشأتها حتى هذه الساعة فأصبحت ركناً من اركانها . واقام لها الغربي المعاهد التمثيلية (التياترو) فأصبحت هذه جزءاً من حياته اليومية كالمدرسة والبيت والكنيسة . في التياترو تجد نفسه الجائعة المثقلة باتعاب العمل وهموم الحياة راحة وتعزية وقوتاً . من أوحال معيشته التي يشابه صباحها مساءها ويومها أمسها ترتفع روحه الى عالم تجول فيه العواطف البشرية بين جميلها وقبيحها ، وضعيفها وقويها ، وشريفها ودنيئها . يرى بعينه على المسرح بشراً مثله غائصين في معركة الوجود يكشفون امامه اسرار قلوبهم ومخبآت ضمائرهم فيجد في هذه الاسرار وبين تلك المخبآت قسماً من الذات التي يدعوها « انا » ويستعين ببعضها على اصلاح نفسه والاضافة الى خزانة اختباراته .

يضم المؤلف والممثل قواهما — الاول بافكاره والثاني بصوته وحركاته — ليخترقا حرمة انفراده الذاتي ، فيدخلان زوايا قلبه ويمسّان كل اوتاره ويفتشان بين طيّات ضميره ويحركان دولاب افكاره — وبالاجمال يوقظان فيه كل قوى الوجود فيشعر انه

كائن حي فربَّ كلمة تقع في اذنه يحتضنها للحال عقله وتختمر بها روحه ، او ربَّ حركة من يد الممثل ينتفض لها قلبه ، او رُبَّ مشهد يهزه بكليته كما تهز العاصفة شجرة من جذورها . لكن هذا التأثير في السامع والناظر لا يمكن احداثه الا اذا كانت الرواية مشهداً حياً من مشاهد الحياة الحقيقية وكان الممثل قادراً على فهم افكار المؤلف وغايته وتفسير هذه الافكار وتأدية تلك الغاية الى السامع بواسطة الصوت والحركات . فلذلك يتوكأ المؤلف على الممثل ، والممثل على المؤلف . وغير خفي ان افضل الروايات في يد ممثل ضعيف تضيع كل قوتها ورونقها ، وبالعكس — فالممثل الحاذق يلبس احياناً ابخس الروايات حلة جمال وقوة . ولذلك رفع الغرب شأن الممثلين كشأن المؤلفين فأجزل عطاهم بالمال واحاطهم بالشهرة في الحياة ، وطيب ذكرهم بعد الموت .

فماذا فعلنا نحن ؟

نحن لا نزال ننظر الى الممثل نظرنا الى « بهلوان » والى الممثلة كعاهر ، والى التياترو كمقصف ، والى التمثيل كنوع من القصف واللهو . شعبنا لم يدرك بعد اهمية فن التمثيل في الحياة لأنه لم يرَ بعد روايات تمثل أمامه مشاهد من حياة يعرف الفها وياءها ، لم يرَ بعد نفسه على المسرح . واللوم عائد على كتابنا لا على الشعب . فجلَّ

ما قدمناه حتى الآن الى الشعب من الروايات التمثيلية ينحصر في بعض روايات معربة اكثرها من سَقَط المتاع وكلها غريبة عنه ، بعيدة عن اذواقه ، قصية عن مداركه . انا لا أشك قط في اننا سنرى عندنا ، عاجلاً او آجلاً ، مسرحًا وطنيًا تمثل عليه مشاهد حياتنا القومية. انما يقتضي لذلك قبل كل شيء ان يحول كتابنا انظارهم الى الحياة التي تكر حولهم كل يوم ، الى حياتنا بعُجَرِها وبُجَرِها ، وافراحها واتراحها ، وجمالها وقباحتها ، وشرها وخيرها ، وان يجدوا فيها مواد لاقلامهم — وهي غنية بالمواد لو دروا كيف يبحثون عنها

يبشرنا الانقلاب الذي طرأ مؤخراً على آدابنا بقدوم تياترو وطني ولو كانت العقبات في طريقه لا تزال كثيرة . من هذه العقبات وهم اجتماعي لا يزال راسخًا في عقول الكثيرين ، هو ان التياترو يفسد الاخلاق الطاهرة — لا سيما اخلاق البنات والنساء . رحمتك يا ربي ! ومنها فقرنا الى الكتّاب الروائيين والروايات التمثيلية الوطنية . لكن اكبر عقبة صادفتها في تأليف « الآباء والبنين » — وسيصادفها كل من طرق هذا الباب سواي — هي اللغة العامية والمقام الذي يجب ان تُعطاه في مثل هذه الروايات . في عرفي — واظن الكثيرين يوافقوني على ذلك — ان اشخاص الرواية يجب ان يخاطبونا باللغة التي تعودوا ان يعبروا بها عن عواطفهم وأفكارهم ، وان الكاتب الذي يحاول ان يجعل فلاحًا اميًا يتكلم

بلغة الدواوين الشعرية والمؤلفات اللغوية يظلم فلاّحه ونفسه وقارئه وسامعه ، لا بل يُظهر اشخاصه في مظهر الهزل حيث لا يقصد الهزل ويقترف جرماً ضد فن جماله في تصوير الانسان حسبما نراه في مشاهد الحياة الحقيقية . هناك امر آخر جدير بالاهتمام متعلق باللغة العامية — وهو ان هذه اللغة تستر تحت ثوبها الخشن كثيراً من فلسفة الشعب واختباراته في الحياة وامثاله واعتقاداته التي لو حاولت ان تؤديها بلغة فصيحة لكنت كمن يترجم أشعاراً وامثالاً عن لغة اعجميّة . وربما خالفنا في ذلك بعض الذين تأبطوا القواميس وتسلحوا بكتب الصرف والنحو كلها قائلين ان « كل الصيد في جوف الفرا » وأن لا بلاغة او فصاحة او طلاوة في اللغة العامية لا يستطيع الكاتب ان يأتي بمثلها بلغة فصحى . فلهؤلاء ننصح ان يدرسوا حياة الشعب ولغته بامعان وتدقيق .

الرواية التمثيلية ، من بين كل الاساليب الادبية ، لا تستطيع ان تستغني عن اللغة العامية . انما « العقدة » هي اننا لو اتبعنا هذه القاعدة لوجب ان نكتب كل رواياتنا باللغة العامية اذ ليس بيننا من يتكلم عربية الجاهلية او العصور الاسلامية الاولى وذاك يعني انقراض لغتنا الفصحى . ونحن بعيدون عن ان نبتغي هذه الملمّة القومية . فأين المخرج ؟

عبثاً بحثتُ عن حلٍ لهذا المشكل فهو اكبر من ان يحله عقل

واحد . وجلُّ ما توصلت اليه بعد التفكير هو ان اجعل المتعلمين من اشخاص روايتي يتكلمون لغة معربة . والاميين اللغة العامية . لكني اعترف باخلاص ان هذا الاسلوب لا يحل « العقدة » الاساسية . فالمسألة لا تزال بحاجة الى اعتناء اكبر رجال اللغة وكتابها

والمشكل الآخر الذي وقفت امامه حائراً سائلاً هو ضبط كتابة اللغة العامية بطريقة تزيل الالتباس والابهام وتؤدي اللفظ المقصود . تركت امر « اللهجة » التي تختلف كثيراً باختلاف المقاطعات والامكنة الى فطنة الممثل وحذاقته لكنني احجمت تهيباً عن ان اضع لاجل هذه الرواية وحدها اصطلاحات لضبط الكلام العامي . ونحن بحاجة ماسة الى هذه الاصطلاحات اذا احببنا ان نقترب من الشعب ونهذبه باقلامنا . العامة تستعمل حروفاً لا وجود لها بين حروف الهجاء المعروفة مثل (G.E.O.) الافرنسية وتلفظ القاف في اكثر المحلات كالهمزة . فيجب ان نضيف الى لغتنا بعض اصطلاحات تقوم مقام هذه الحروف . انما يجب ان تكون هذه الاصطلاحات عمومية كي لا يحدث تبلبل وتشويش حيث نقصد اتفاقاً ووحدة . فمن يقوم لنا بهذه المهمة ؟ لو كان عندنا مجلس ادبي او شبه اكاديمي لألقينا على عاتقه هذا الامر .

اما ولا اكاديمي لنا فهل تصدق الاحلام وتحمل الغيرة على اللغة العربية وآدابها بعض ادبائنا في الشام ومصر على تأليف هيئة

دائمة تعتني بترقية اللغة والمحافظة عليها وتكييفها بموجب الزمان والاحوال ؟

افضل ألاَّ اقول شيئًا عن اشخاص الرواية او الرواية نفسها سوى اني حاولت ان الج فيها طرفًا محدوداً من موضوع حيوي كبير في حياة الامم جمعاء — وحياة شرقنا على الاخص — ذاك هو الخلاف الابدي بين الآباء والبنين والتباين الدائم بين القديم والحديث . واذا لم يكن نصيبي منها سوى دفع بعض كتابنا الأوفر مقدرة مني في معالجة موضوعاتنا الاجتماعية على تأليف الروايات التمثيلية فقد نلت غايتي

اذا شئنا ان نرفع آدابنا من المستنقعات التي تتمرغ فيها فعلينا ان نسعى من الآن لوضع اساس متين للمسرح العربي بتربيـة اذواقنا التمثيلية وتعزيز الرواية الوطنية ، حتى اذا نهضنا كانت « نهضتنا » نهضة جبّار افاق من نوم طويل لا نهضة عاجز فتح عينه ليرى الموت امامه

الحباحب

تعزَّ ايها القلب الكئيب وكفّ عن الشكوى ،
فوراء الغيوم لا تزال شمس مشرقة (لونفلو)

يقولون ان الانتحار جريمة أدبية . فكيف بمن
يعيش ويقتل نفسه رويداً بالنسبة الى محيطه ؟
(ابسن)

الكلب يعوي اذا ضرب أفلا يحق للانسان ان
يفعل كذلك ؟ لكن هناك قوماً أحط من الكلاب ،
فهم لا يعوون ولو ضُربوا . (برنه)

***

لكتابنا في انتقاء الموضوعات موهبة خاصة ، فهم لم يدعوا دائرة في حوزة العقل البشري الا ولجوها وسوّدوا جبالاً من الورق عنها . قد كتبوا في « القناعة » وعللوا « البخل » وشرحوا « الرياء » وبسطوا « سنّة الارتقاء » وسنّوا « قواعد التربيـة » وكشفوا النقاب عن « السرقة وسيئاتها » و « الكذب وعواقبه في الهيئة الاجتماعية » الخ الخ ولم ينسوا ان يعطوا « الطمع » كذلك نصيباً

وافراً انما فاتهم انهم اطمع الطماعين ، فأقلامهم قد جابت اطراف السماء ، ورادت الارض من قطب الى قطب ، وسبرت غَوْر البحار ولم تترك لاقلامنا ولو « مغرز إبرة » . اكلوا اللب ولم يوصوا لنا سوى بالقشور فهل نلوم كتابنا الاحداث اذا كانوا « يشرفوننا » كل يوم بقصائد « مرقعة » ومقالات ممضوغة بافواه من سبقهم ؟

رحمة ايها القرّاء فالذنب ليس ذنبهم . هل تلومون ، مثلاً ، شاعراً « مطبوعاً » احب ان يطلق لقريحته العنان في مدح صديق نال نعمةً من « الاعتاب العليـة » فأخذ القلم وكتب : « تهنئة السعيد بنيل الوسام المجيد » وبعد ان جمع كل ما يلزمه من النعوت الذهبية والالفاظ اللغوية من « محيط المحيط » وجد ان المتنبي قد سبقه الى استعمالها في مدح سيف الدولة ؟ ! أفلا تقولون معه « لا كان سيف الدولة ولا كان متنبّيه » ؟ واذا شاء بدل المدح هجواً وجد ان الحُطيئة وجرير والفرزدق والاخطل وغيرهم قد احتكروا الهجو فلم يدعوا له منفذاً . او اذا هاجه ذكر الحبيب فاراد التشبب رأى ان مجنون ليلى لم يبقِ لملوّع شكوى . وهكذا لو احب ان يفاخر بعظمة اجداده او يرثي صروح المجد التي ذكت بحكم القضاء اوان يناجي ربه بقلب خاشع لوجد المعابر غاصة بمن سلف . حتى لو حملته قوة الوحي على وصف حمار جاره الأدهم

لاصطدم هناك بالشّماخ بن ضِرار وقصيدته المشهورة بوصف الحمير ومطلعها :

عفا بطن قوٍّ من سُليمي فعالزِ فذات الصفا فالمشْرفات النواشزِ

نعم . رفقًا وحلمًا يا سيداتي وسادتي . فصعب — اصعب من اكتشاف القطب — على ابناء هذا العصر ان يجدوا منفذاً جديداً لاقلامهم . ولا شك لو انهم خلقوا في زمان الجاهلية او الهجرة او في عصر العباسيين لكان اكثرهم في مصافّ الآلهة . مع ذلك فحمداً لله لانهم وان جاؤوا متأخرين فمعظمهم نوابغ ولا يفصلهم عن عروش الآلهة سوى بضعة اذرع — بضع خطوات — فهم تقريباً آلهة .

ربما ادركتم ان غايتي من هذه التوطئة كلها لم تكن الا لأُمهِّد الطريق لما جئت احدثكم به الآن ، وانا اتجاسر ان اعتقد ، رغماً عن كل ما سبق ، انه حديث جديد . فهل قرأتم الى الآن شيئاً عن الحُبَاحِب ؟ اظن ان هذا الموضوع من بعض القشور التي اوصى لنا بها الاسلاف وكنت عقدت النية ان اكتب شيئاً عن « البراغيث » لكن ما لبثت ان تذكرت الحرب الفلسفية المشهورة التي دارت رحاها من مدة بين « فيلسوفين » من فلاسفة شرقنا وكانت كلها محشوة بالبراغيث حتى اضطررت بعدها أن اتشبه بابن آوى الذي عند ما يشاء التخلص من هذه الحيوانات السفاكة يأخذ

كتلة من الصوف في فيه ثم ينغمس رويداً رويداً في الماء الى ان تتجمع كل البراغيث في تلك الكتلة فيتركها تطفو على وجه الماء ويخرج نظيفاً مطهراً .

وهكذا فلا براغيث عندي بل حباحب ولو سمح لي معلمو اللغة لفضلت ان ادعوها باسمها العامي — سراج الليل .

ربما خطر لكم انني سأحلل سراج الليل تحليلاً زوولوجياً فاخبركم كيف يتولد وبماذا يقتات ومن أين يأتي بنوره الخ

كلا . كلا ! لا اثر لذلك . فأنا وحرمة الحق لا اعرف من الزوولوجيا سوى ما التقطه عرضاً من مقدمة الاب لويس شيخو « لمجاني الادب » حيث قال : « نحمدك اللهم يا من خلقت الانسان . وميزته بالنطق عن سائر الحيوان » الخ . لست مسؤولاً اذا كانت هذه العبارة وردت في مجاني الادب او في مكان آخر انما انا مستعد ان اقسم لكم اليمين المغلظة اني قرأتها في مقدمةٍ ما لكتابٍ ما . وهذا حد معارفي الزوولوجية ، ان لا فرق بين الانسان والحيوان سوى النطق ، اما الببغاء فلم ادرِ بأية فصيلة أُلحقه وتلك من بعض المشاكل الزوولوجية التي لا تزال عندي كأبي الهول .

وكيفما كان الامر ، فأنا جئتكم لا بدرس من علم الحيوان بل « بأكلة جديدة » فهل لكم ان تجربوها ؟ كرهتم المقالات الادبية والحِكمية والفلسفية لكن هذه المقالة ممزوجة من فلسفة وادب

وانتقاد فهل تقرأونها أم تضربون بها عُرْض الحائط ؟

طالعوها ، فربما وجدتم فيها ما يستحق النظر . لا بل طالعوها قبلتم ام لم تقبلوا . ولماذا المداجاة فأنا لم اكتبها لذاتي . طالعوها ولو كان وقتكم من ذهب . ولماذا تعلمتم القراءة ؟

سألني مرةً بعض رفاقي من الاميركيين : « من هو أشهر كتابكم في سوريا ؟ »

لا ادري اذا كان دم يسوع المصلوب قد غسل الخطيئة الجديّة عن العالم كله وبقيت انا منسياً فجاءني الشيطان بهيأة ذاك الاميركي يعذبني لان المرحومة جدتي حواء اكلت من التفاحة المحرمة . او اذا كان الكاهن الذي عمّدني قد غمسني في الماء بدل الثلاث اربع مرات فحوّل البركة الى لعنة — انما اعلم علم اليقين ان الصاعقة التي انقضّت على رأس عبد الحميد عند ما دخلت عليه قبضة من الفتيان الجريئين وامرته ان يودع العرش لم تكن الا نقرة على طبل بالنسبة لتلك العاصفة التي اثارها فيَّ ذاك الاميركي بسؤاله. انتم تضحكون . انتم تقولون مبالغة « وتكبير مصيبة » لكن بحقكم ماذا تفعلون بمن دخل بيتكم فنهب ودمّر وحطّم وترككم لا تملكون عشاء ليلة ؟ ألا تقتصون منه اذا أمكن او تسلمونه ليد العدالة ؟ ولكن بماذا تعاقبون من لم يسلبكم خيطاً واحداً من حُطام هذه الدنيا بل دخل الى قدس اقداس قلوبكم وحطم كل ما فيها من

الآمال والايمان والرجاء ولم يكتف بذاك بل ترك تحت انقاض تلك الآمال جمرة تلتهب من آونة الى اخرى ؟

هذا ما فعله بي رفيقي . فهل من محامٍ او قاض بينكم ارفع اليه دعواي ؟ لا شاهد عندي سوى تلك الجمرة التي تلتهب ولا تُباد كعُلَّيقة موسى . وهل تلك شهادة كافية ؟

وعلى كل فانا في الحقيقة لم آت لاشكو لكم مصابي واستشيركم في دعوى قضائية بل اتيت لانتقم منكم كما انتقم مني ذاك الاميركي ولو عن غير قصد . أتيت لأدخل مستودع قلوبكم فألقي هناك جمرة كالتي احملها في اعماق قلبي . أتيت لأنفث في حياتكم مكروباً جديداً يحولها الى حرب ابدية وجهاد مستمر . اتيتكم كشيطان حواء لأبين لكم اذا امكن ان الحياة ليست التنعم بأثمار الجنة فقط ، والتسلي بمناظر الطبيعة ومعاشرة الحيوانات ، ومسامرة النجوم ، والتمشي في مسالك عدن ، ومحادثة يهوه ، وتقديم الذبائح له الخ ، بل الحياة في اكتشاف الجديد واختبار ما لا يزال مجهولاً والاقدام على كل ما تشتم من ورائه رائحة الحقيقة . الحياة في الانتقال والتجدد ، الحياة في شجرة معرفة الخير والشر !

حواء لم تكن الا رمزاً حياً لكل من حمل طبيعة بشرية وممثلا ابدياً لحياة ذريتها التي ستكون انتقالاً متتابعاً من المجهول الى المعلوم ونفوراً مستمراً من القديم وشوقاً دائماً الى التجدد والانقلاب مع

كل ما يرافق ذاك من المصاعب والاوجاع . واخيراً اتيتكم اطلب جواباً :

من هو أشهر كتابكم في سوريا ؟

بعضكم الى الآن لا يصدقون ان سؤالاً كهذا يستحق الجواب على الاطلاق . ومن هو اشهر كتابنا ؟ كلهم مشهورون وما همنا بالكتاب وُجدوا بيننا أم لم يوجدوا ؟

والآخرون لا تزال الدهشة بادية على وجوههم وعندهم قائمة لمشهوري كتابنا اطول من قائمة ذنوبي المسجلة في كتاب الدينونة الرهيبة . وهم قانعون بما لديهم فبارك الله لهم بما يملكون

لكن هناك فئة من الشبان بدت على وجوههم الحيرة وأشكل عليهم الجواب فهم يجولون بعقولهم مثلي ويفتشون بين طيات الماضي وصفحات الحاضر فلا يرون بقعة خضراء تستوقف النظر . حياة قاحلة ، يابسة ، جرداء . . .

ربي ! أهذه هي حقيقتنا ؟

ربي ! هل نحن فقراء الى هذا الحد ؟

إلهي ! رأفةً وعدلاً ! . .

أتدرون بماذا شعرت حين طُرح السؤال عليَّ ؟

تبسمت مستهزئاً لعلمي ان كتابنا اوفر من ان يعدّوا . ثم لما وقفت لاسمي « المُجَلِّي » بينهم وجدتهم كلهم « مجلين » فخالجني

شك بصحة تعديلي ولما اتيت لانتخب «المجلي» من بين «المجلين» وجدتني كالقابض على الريح ...

شعرت كلقيط سأله احد المارين عن ابيه وامه وكان سابقاً يظن كل رجل في العالم اباه وكل امرأة امه . ولكن لما اعاد عليه الغريب السؤال وادرك معنى كلمتي الاب والام انقبض فؤاده واغرورقت عيناه بالدموع واجاب بصوت يقطعه الانتحاب : « لا أب لي ولا ام ... »

كنت كذلك كمن دخل محل صائغ ليشتري حجراً من الماس الحقيقي ولكثرة ما رأى من الحجارة التي يفوق لمعان واحدها الآخر أُسقط في يده واستحال عليه الانتخاب . ولكن هنا وقع نظره على فص من الماس الحقيقي في خاتم بعض الزائرين فرأى الفرق بينه و بين تلك الحجارة اللماعة فأدرك انها لم تكن الا زجاجاً وخرج ...

لكن الى أين نهرب من وجه حقيقتنا ؟

أين نختبىء من الوباء والوباء في داخلنا ؟

ليس البلاء يا قوم بأن عندنا كثيراً من الحجارة الزجاجية بل بأننا ندعوها ماساً ونعتبرها اعتبار الماس .

ليس المصاب بأننا فقراء حقيقة بل باننا فقراء ولا نزال ندعي غنى قارون .

ليست الضربة بأن حقولنا لم تنبت لنا سوى زوان وشوك بل بأننا لا نزال نعد ذاك الزوان قمحاً والشوك عشباً صالحاً فلا نرى من واجب لتنقية الحقل

ليست المصيبة ان لا كتّاب عندنا ، بل المصيبة ان عندنا زمرة — والاصح جيشاً — من حملة الاقلام ومسوّدي الاوراق ندعوهم كتاباً ونقنع بما « يطربوننا » به كل يوم من التهاني والمراثي والغزل ظانين ان هذا هو جل ما وجدت الاقلام لاجله وان هذا هو محيط الدائرة التي يقدر الكاتب ان يجول ضمنها مهما كانت مواهبه . فنحن دائماً « شاكرون . حامدون . قانعون » نطلب من الله ان لا يأخذ منا ولا يعطينا . ولا شك انه لو كانت كل شعوب الارض على شاكلتنا لما عانى الله في تدبير خلقه تعباً على الاطلاق . لكن هناك اقواماً جشعين لا يكفون عن طلب اشياء جديدة فالله في شاغل بهم عنا وهذا هو سبب تعسهم وسعادتنا وتأخرهم ورقينا . هم في حركة وجهاد دائمين — يهدِمون ويشيدون . يعزلون ويولون . يبحثون وينقبون . يرودون ويكتشفون . وبالاجمال ، يعملون اكثر مما يصلّون . اما نحن فلا حاجة بنا للعمل بل بالصلاة ننال كل شيء .

ان الليل الذي غمر شرقنا العربي كل هذه السنين كان ليلاً اطول من دهر ، واشد حَلَكاً من خافيتي غرابٍ اسحم ، بسط

جناحيه فوق اطراف اقطارنا وقبض على قلبها بمخالب نَسريَّة فضيق انفاسها ، واطبق اجفانها ، فاستغرقت في سُبات عميق .

رقدت وامواج الحيـاة تتقلب حولها اشكالا ، فتارةً تأتيها بترنيمة ام حنون توقظ ولدها من النوم ، واخرى تحمل عليها حملات جبّار فتضرب شواطئها ، وتعود في الحالتين منكسة الاعلام ، قاصرة عن ان توقظ غفلة الدهور . رقدت ورقاص ساعة الحياة يتابع أُغنيته الازليـة « تِك . تَك . تِك . تَك » ويدفن ثواني العمر الواحدة تلو الاخرى في احضان الابدية . رقدت وطال رُقادها فظنها العالم من الاموات وتلا فوقها صلاة « مع القديسين » وسار فوق رفاتها الى حيث العراك والنزاع ، حيث لا محل للعاجز الواهن .

لا باب لنا للوم العالم في حكمه علينا وتسرعه في قوله لاقطارنا العربيـة « وداعًا ورحمة الله » اذا كنا ونحن من ابنائها لا نزال نقف برعشة امام ذاك الظلام الدامس الراسي فوق جبالها ، والمتلبد في بطون اوديتها ونتساءل اذا كان بعد هذا الظلام من نور — اذا كنا ننتصب امام مضجع فتاة الشرق — سوريا — فننظر الى اجفانها المطبقة وجسدها الهامد ونقول بألسنة متلجلجة :

أسُبات هذا ؟ فنومًا هنيئًا ! ام وفاة ؟ فرحمةً ابديةً !

أليست تلك الاجيال التي مرت بنا ولم نبد في خلالها امارات

الحياة ، ولم تسمع لانباضنا دقة في جسم الانسانية ، سبباً كافياً لحمل العالم على الاعتقاد بموتنا الادبي ؟

ارملة الانجيل لم يكن معها سوى درهم واحد ضمّته الى الاموال المعينة لمجد الله . اما وطننا فكان في تلك الاجيال ولا يزال افقر من تلك الارملة اذ لا درهم عنده يضيفه الى خزانة العالم .

اي فكر جديد اودعه العقل العربيّ في خزانة الآداب العمومية فتداولته الالسن ، وسهرت فوقه العقول ؟ ام اي تمثال او صورة اقامهما في متاحف الفنون فاستلفتتا الابصار ؟ ام اية نغمة لفظتها روحه فحركت اوتار القلوب ؟ ام اية بناية شادها ، ام مشروع قام به اوقف العالم متحيراً ؟ ام اية رواية جادت بها قريحته فحملت الشبان على اجنحة الآمال الى المستقبل . وانارت طرق الكهول ، وعزت الشيوخ ، وحببت للوحيد البقاء ، وفتحت عيني الجاهل فأبصر ضلاله ، وزادت البصير نوراً والمقدام اقداماً ، وبددت شكوك المتردد ، وقربت العالم من الخير واقصته عن الشر وبثت فيه روح المحبة ، وعلمت الانسان ان يكون قبل كل شيء انساناً؟ أي اسم يقدر ان يضيفه العالم العربي بأسره الى أسماء قواد الانسانية في اي ميدان كان من ميادين هذا البقاء ؟

أسمع اصواتاً تنادي وأرى أياديَ تمتد نحوي والسنة تصبّ عليّ النِقم والكل يقولون : « وهل نسيت — او انت جاهل —

اسماء امرىء القيس والنابغة الذبياني ولبيد وعلقمة الفحل وعنترة والمهلهل والمتنبي والهمذاني والاخطل وجرير وابن رشد وابن سينا الخ من الاقدمين وشوقي وحافظ والمطران وكثيرين سواهم من المحدَثين ؟ » ...

كلا يا سادتي انا لم أنسَ هؤلاء كلهم بل لا أتجاسر ان ازعج سكينة قبور الراقدين منهم ولا ان ارفع عينيّ الخاطئتين الى اكاليل الغار واهلّة النور فوق رؤوس الباقين في قيد الحياة . انما اهمس لكم همساً كي لا نثير غضبهم : ان غثهم اكثر من سمينهم ، فدعوهم يفرقوا انفسهم بأنفسهم . وعلى كل لا اظنكم ظالمين الى حد ان ترفعوا احداً منهم الى مصاف هوميروس وڤرجيل ودانت وشكسبير وملتون وبَيرُن وهيكو وزولا وغوتي وهَينِه وتولستوي ... الاولون خُلقوا وماتوا ليتغزلوا بظباء الفلاة ولمعان المشرفيات ووقع سنابك الخيل وسفك الدماء ومشي الابل واطلال المنازل ونار القِرى الخ وبعضهم وجدوا — وهم زهرة ايامنا — لتفتيش المعاجم واجهاد القرائح في تذليل القوافي الشاردة لمدح بطريرك او مطران او باشا أو قائمقام او مدير او شيخ . ولتهنئة صديق « بغلام » او « بيك » بوسام ولتقريظ كتب « نعيم البطون » و « سلوى الهموم » ولرثاء كل من يزور التراب وهم حضور ، ولجمع كل ما

صرفوا عليه الليالي الطوال واجهدوا لاجله الايدي بفرك الجباه في كتاب واحد يكالونه على الغالب بكلمة « ديوان » متبوعة بمضاف اليه ثم جار ومجرور بواسطة « في » وبعدها « تأليف الشاعر العصري المطبوع المتفنن الخ فلان عفي عنه » ...

اما الآخرون فقد اختارتهم السماء اصفياءها واسكنتهم اولمبوس بين الآلهة ولمست شفاههم بجمرة الحق فكانت عظاتهم تتقد به ، وتلمس القلوب المظلمة فتجعلها آنية جديدة للحق . هؤلاء شموع موقدة في دياجير العالم لتهدي العالم الى النور . هؤلاء اجنحة تطير بالانسانية الى حيث الجمال والكمال والمحبة . هؤلاء ارواح سماوية تخفر مهاوي الهلاك وتنادي السائرين اليها « احترسوا » . هؤلاء صوت صارخ في البرية « اعدوا سبل الحق » . هؤلاء معلمو الانسانية وقوادها . دعوهم في اعاليهم فنحن قاصرون عن ادراكهم بأيد اثقلتها سلاسل القيود وعيون امتصت الظلمة ماءها وعقول لم تتحرر بعد من اوهام الماضي واشباحه وغرور المستقبل لتدرك حاضرها .

دعونا نجد قواداً لصفوفنا قبل ان نعطي قواداً من صفوفنا للعالم دعونا قبل ان نعلم العالم نجد بيننا من يعلمنا . دعونا قبل ان نوقظ الآخرين من سباتهم نفتش عن صوت يلذ لنا سماعه ينادينا بين الآونة والاخرى « هبوا » !

نحن ممن يقدرون ارتقاء الامم بارتقاء آدابها الكتابية او ما يدعوه الغربيون "Literature" ولذا كان الكاتب المجيد سواء كان روائياً او صحافياً او شاعراً ، الكاتب الذي يرى بعيني قلبه ما لا يراه كل بشر ، الكاتب الذي يعد لنا من كل مشهد من مشاهد الحياة درساً مفيداً ، الذي اعطته الطبيعة موهبة ادراك الحق قبل سواه — هذا الكاتب هو جل ما نبحث عنه بين طيات السنين الخوالي فلا نرى له اثراً ونحملق بأبصارنا في حياتنا الحاضرة علنا نراه فلا نراه .

هناك زمرة من المنتقدين الذين اذا قرأوا هذه السطور لا يدعون سهماً في جعبتهم الا رمونا به . هم ينظرون الى ماضينا فيرونه محاطاً بهالة من السؤدد والمجد والعظمة . عندهم بعض عبارات ترددها السنتهم « كلما دق الكوز بالجرة » كقولهم : « بلادنا مهبط الوحي — بلادنا مهد الانسانية — بلادنا ام الانبياء » الخ الخ فهلا توافقوني ايها القراء الاعزاء حينئذٍ ارضاء لخواطر هؤلاء الادباء المنتقدين ان نحوك لنا قمصاناً كالتي كان يرتديها اجدادنا ونرجع فنبتني لنا هيكلا في اورشليم ونقيم علينا ملكا اسمه داود او سليمان او نرجع فنشيد اسوار بابل فيقوم بيننا ارميا ونجلس معه نبكي مجد صهيون على انهار تلك المدينة الجبارة ؟ او اذا كنا نترفع عن ان نعد ذواتنا من اصل عبراني فدعونا نرجع الى بغداد نحيي عصر

العباسيين فنختار لنا واحداً من بيننا مكان هارون الرشيد ونقيم له وزيراً ندعوه جعفر البرمكي او دعونا نرجع الى نجد واليمن فنحيي لُبَد ومضر وتميم وحميَر ونعيد سوق عُكَاظ الى مجدها فيقوم بيننا الشعراء والرواة والحداة ... حينئذ اذا تفاخرنا وقلنا « نحن . نحن » لا يهزأ بنا احد اذ لا احد يسمعنا . اما اليوم فحولنا عيون ترقبنا ، وآذان تسمعنا ، فاذا فاخرنا ، ولا سيما بحاضرنا ، يضحك العالم منا كما نضحك من زنجية تفاخر بجمال ابنها .

هذا بلاؤنا . اننا ، ونحن لا نملك شَرْوَىْ نَقِيْر ، ندّعي الغنى والوفرة . اننا ، ونحن في كهوف الحياة وظلماتها ، نفاخر الماشين في النور والسائرين في مقدمة الجيوش البشرية . اننا ، ونحن جهلاء ، ندعي العلم والنور والمعرفة . اننا ، ونحن ضعفاء ، نضج ونكثر من الصياح ، كأن قوة المرء في حَنْجَرته . وقد سها هؤلاء المتفاخرون بالجهل عن ان الاقرار بالضعف قوة .

نحن في حاجة الى عمال في كل فرع من فروع الحياة . لكننا احوج الى كتاب يتولون قيادة العقول وتثقيف الشبيبة . احوج الى اطباء روحيين منا الى مخترعين ومكتشفين ومهندسين ومطببين للاجساد . ولومنا من هذا القبيل على صحافتنا ومنتقدينا الذين يزفون لنا كل يوم على صفحاتها كاتباً نِحْرِيراً وفيلسوفاً حديثاً

وشاعراً نابغة وخطيباً مِصقعاً فنسعد بالفكر وحقيقتنا افقر من الخريف بالازهار والشتاء بالاثمار .

ولو درى هؤلاء المنتقدون اي إثم يرتكبون في ضفر اكاليل الغار ووضعها على رؤوس من لا اكاليل لهم سوى الشوك ، او بوضع اكاليل الشوك على رؤوس من هم اجدر بالغار والورود . لو دروا اية ويلات يجرونها بذاك على تلك الامة التعسة التي تنظر اليهم كقادة افكارها ، لارعووا عن ذاك اذا كانوا يخدمون الحق والواجب . واذا كانوا يبيعون الاكاليل كما تباع وتوهب الالقاب في دولتنا العلية فلا بد من ان يخرج من صدر هذه الامة المنقادة الى الضلال ولو قلائل سيكشفون النقاب عن اعمالهم المنكرة فيظهرون امام الحق بوجوههم الطبيعية .

كم من الشبان الذين لما يرون قصائدهم مدرجة في الجرائد ومشفوعة بنعوت من قلم محرر الجريدة « قصيدة عامرة الابيات من نظم الشاعر العصري المتفنن فلان » يسكرون بخمرة الشهرة ويصبحون وهم يحلمون بمجد هوميروس وشكسبير وهينه الخ وهم ليسوا بين الشعراء الا من الطبقة الرابعة التي قيل فيها : « وشاعر من حقه ان نصفعه » ؟ اليس هذا الشعرور قَرْحاً مخيفاً في جسم الامة التي تطلب سمكة فيعطونها حية ؟

لا غاية لنا ان ندخل في بحث طويل عن الاسباب التي ادت

بنا الى هذه الحالة انما لنا غاية ان نقول ان تعلقنا الفائت الحد بالصلاة وتفسيرنا الحرفي لقول الانجيل « لا تهتموا بالغد » واهمالنا حكمة المثل الدارج « قم تاقوم معك » هو اكبر الاسباب لتأخرنا وانحطاطنا .

مرت بنا اجيال ونحن نطرق بجباهنا عتبات المعابد ونقرع صدورنا وننتظر السعادة ان تنزل الينا في سلة من السماء وماذا حل بنا يا قوم ؟ حل بنا ما يحل بمحراث من الحديد مهمل في الحقل دون استعمال . غُلاف سميك من الصدأ اكتنف عقولنا وقلوبنا فعدنا نتعجب كيف لا نرى النور والشمس مشرقة . عدنا نتساءل كيف لا نشعر بمر النسيم وقطر الندى . وكيف يخترق النور عقولا حولها لحاف من الصدأ ؟ أم كيف تنتعش بقطر الندى قلوب لا يجد الندى اليها سبيلا ؟

تشرق الشمس وتهب الرياح وتهطل الامطار ومحراث الحقل لا يزداد سوى صدإ فوق صدإ .

وهكذا نحن . حولنا التمدن ناشر لوائه . حولنا الامم في عراك وسباق . حولنا العلم يذر نوره على العقول فتنمو وتندفع الى الامام . وحياتنا لا تتأثر من ذلك كصخرٍ في مهب الريح .

ولماذا ؟ لاننا نسعى ان نعالج بالنور ما يزداد بالنور سوءًا . والداء اعمق من ذاك واعظم .

ضعوا المحراث في أتُّون من النار حرارته كحرارة جهنم . دعوه الى ان يحمرّ كالجمر ثم اخرجوه والقوه على السَّندان وهاتوا المطارق . هاتوا المطارق واضربوا الى ان لا يبقى للصدأ عليه من اثر . اصقلوه جيداً وحينئذ اذا اشرقت عليه الشمس لا تزيده الا بهاء ولمعاناً .

لا تقولوا اننا نيام والغرب مستفيق .

لا تقولوا إننا اموات وهو حي .

لا تقولوا ان لا مواهب عندنا مثله .

لا تقولوا اننا من غير الطينة التي جُبل منها ابناؤه . كلا ! بل فينا حياة وعندنا مواهب وجُبلنا من نفس الطينة التي جبل منها سوانا انما — اواه ! صدأ الكسل اعمانا واسكت أنباضنا وقيّد قوانا .

أتدرون ما هو أتُّون الغرب ؟

هو تلك النيران التي تتدفق من افواه خطبائه فتأكل الهشيم وتعد التربة لنبت جديد صالح .

أتعلمون ما هي مطارق الغرب ؟

هي تلك الاقلام التي لو وُجهت نحو سور بابل لقوّضته الى اركانه .

أتدرون من يشتغل فيه بصقل العقول وصيانتها من الصدإ ؟

هم اولئك الكتاب الذين لا يحجبهم قبر ولا تغمرهم لجج بحار .

فهل عندكم أتُّوْن نجلي في ناره عقولنا ؟ هل عندكم مطارق ؟ هل عندكم معدات للصقل ؟ وبكلمة — هل عندكم كتّاب ؟

كلا — بل عندكم حباحب ! . . عندكم الوف من « سرج الليل » لو اجتمعت كلها لما اشعلت قشة يابسة . عندكم احمال من القصب مبرية تُغمس في المحابر لتسوّد احمالا من الورق . عندكم جيوش تزيد فوق الصدإ حبراً تدعونهم كتاباً ومع ذلك نراكم تطلبون النور ، وتضجون « بالاصلاح » « وتطنطنون » بالحرية كأنكم تبغون ان تغيروا سنة الكون وتدعوا الشمس تشرق ليلا والقمر نهاراً بعد ان كسفتم تلك الشمس الوف مرات بتشبيهها بوجوه اصدقائكم ورفعتم الى مقام ذاك البدر الف خليل وحنا ومرقس . . .

مهلا فقصتي لم تنته بعد . واذا كنتم مللتم قراءتها فذاك شاهد جديد على ما نسبته اليكم من الكسل . فأنا عازم ان « افرغ سلتي » مرة واحدة . فتدرعوا بالصبر .

وهكذا فلا مصابيح عندنا بل حباحب .

لا كتاب عندنا بل عندنا كويتبون

لا كتب عندنا بل تجارة بالكتب

دعونا نعترف بهذه الحقائق ولو امام انفسنا . دعونا لا نخدع ذواتنا اذا خدعنا الغير — والاحسن ان لا نخدع احداً . دعونا

– اذا عضنا الفقر نعوي ليعرف العالم ان دماً لا يزال يجري في عروقنا . اننا نشعر بالفاقة ونطلب التخلص منها . اننا جائعون نطلب قوتاً حيوياً ولا نرضى ان نكون

كالعيس في البَيْداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول

فنحن قوم لا يدفعنا الى العمل الا سوط الحاجة ولا نطلب من هذه الدنيا سوى بقائنا في قيد الحياة كأن الحياة اكل وشرب ونوم فقط

والآن ماذا تقولون ؟

أفقراء نحن أم أغنياء ؟ أعندنا هوميروس وشكسبير وموليير وراسين وتولستوي ؟

حلفتكم أن تخلصوا لي الجواب فلا تدعوا ألسنتكم تنطق بما لا تشعر به قلوبكم ولا تمليه ضمائركم . ولا مناص لكم من مقابلة الحقيقة ان عاجلا وان آجلا . ستناديكم الحياة يوماً ما . « أين أنتم ؟ » كما نادى الرب آدم في الفردوس فهل عندكم ثياب من ورق التين تسترون بها عوراتكم ؟ لا بل أنا اسمعها تناديكم الآن فما هو جوابكم ؟

أين أنتم ؟

وجوه تكفهرّ ، وقلوب تَخْفِق ، ومفاصل ترتجف كقصبة في وجه العاصفة . مالكم ؟ أتخشون ان تقفوا امام وجه الحقيقة ؟

أيهولكم صوت الحياة ؟ نعم . رهيب هو صوت الحق . ولكن ليس على القلوب التي تعشقه . دعوا الجزع واليأس وهلموا بنا نخيط لنا ثياباً من ورق التين نقابل بها الحقيقة ونتقرّب منها فهي خير صديق وقرابة .

ألعلكم راضون أن تبقوا عراة الى الابد ؟

العلكم عازمون ان تُنتِّنوا في زوايا الحياة وكهوفها ؟

ولماذا الرموز . العلكم قانعون بما عندكم من الحباحب ؟ العلكم ضاربون كشحاً عن الصدإ الذي حل بحياتكم مع تقلبات الاجيال . أوَ لا تشاؤون التخلص من افلاسكم الازلي . ألا تشتهون أن يقوم بينكم شكسبير كشكسبير انكلترا وفولتر كفولتر فرنسا

« نعم » — تقولون — « حبذا لنا شكسبير ! ولكن ما تنفع « حبذا » ؟

يا قوم ! في « حبذا » قوة كما في حبة الخردل . أتدرون ان « حبذا » الخارجة ليس من اطراف الشفاه بل من اعماق القلب . « حبذا » الحاملة كل ما في النفس من الاماني « حبذا » المقرونة بميل يجرف كل ما في طريقه من الموانع والصعوبات نحو الغاية المنشودة — تنقل الجبال ، وتقطع البحار ، وتستخرج ماء من الصخرة الصلدة . فكيف بها لو كانت خارجة من أقاصي الوف من القلوب . كيف بها لو ضمت اماني امة بكاملها . كيف بها لو انطلقت

من صدر شعب منهوك مهمل عاجز فقير يتيم جائع ظمآن !

حبذا لنا الاخلاص !

الاخلاص ! . . ويا ليت لنا منه قدر حبة خردل .

كلمة اصبحت عندنا « كالخنفشار » وفضيلة لم يبق لها من مكان في حياة جبلت بالرياء والمداهنة والتزلف وحب المجد الفارغ . مزية نبذناها وهي اساس الحياة فهدمنا حياتنا ولا نزال نؤمن اننا شعب حي . وانا لنعجب كيف نتفاهم بألسنة لا واصل بينها وبين القلوب . ولكن هل من تفاهم بيننا على الاطلاق . لم يخطر لنا ببال ان نبني برج بابل فلماذا بلبلت السنتنا يا رب ؟

ها كم مثلاً — أبا حنا ذاهباً لزيارة صديقه أبي خليل . وقع نظر أبي خليل على صديقه فهب لملاقاته :

اهلاً وسهلاً . اهلاً وسهلاً !

— بالمؤهل . بالمؤهل

— كيف حال بوحنا

— الله يسلمك

— كيف حال صحتك يابا

— تحت الانظار

— نظر الله العفو . مشتاقين يابو حنا

— ونحن بغاية الشوق

— كيف حال المحروسين

— بيقبلوا اياديك

— استغفر الله . ايادي العذرآء . كيف حال بنت عمك

— ما حملتني غير السلام

— تفضل استريح

— من شافك استراح الخ الخ

واذا حدث وكان ابو خليل يتناول غداءه او عشاءه فهناك الطامة الكبرى

— تفضل شاركنا يابو حنا

— سبق الفضل

— حكمت يابا

— كل وقت حاكمه

— ما في شي من قيمتك . يا عيب الشوم

— الله يكبر قيمتك . الخير فايض الخ الخ

وانا في الحقيقة اشفق من ان اضطركم لسماع كل ما يدور بين أبي خليل وأبي حنا في احوال كهذه لكن سألتكم باسم الحق ان تعترفوا لي : ماذا فهمتم من هذا الجدال كله . هل عرفتم شيئًا عن صحة ابي حنا و « محروسيه » « و بنت عمه » . ألسنا جميعنا بكتابنا وشعرائنا وخطبائنا وفلاسفتنا وأساقفتنا نمثل كل يوم — بل

كل دقيقة — بعلاقاتنا الاجتماعية ابا حنا وابا خليل

لو كان خطيبنا يعتلي المنبر لا حباً بأن يتحدث القوم « عنه » بل « عما قاله » . لا رغبة بأن تسمع بذلك هند فيزيد اعجابها به بل لانه يحمل رسالة يحب تأديتها الى الشعب

لو كان كاتبنا يأخذ القلم لا ليمضي به اسمه على صفحة جريدة او مجلة بل ليلبي دعوة صوت داخلي يولّد بين انامله والقلم تجاذباً طبيعياً كما بين المغناطيس والحديد . لو كان شاعرنا ينظم القوافي ليجعلها وعاء لما في قلبه من العواطف وما في رأسه من الافكار وليس ليكتسب لقب « الشاعر الاديب » وبالاجمال لو كان عندنا اخلاص في ما نقول وما نفعل وما نكتب لو كنا نفهم بعضنا البعض لكانت حياتنا على غير ما هي اليوم . لكن ... بردون افندم !..

اسمعوا بعض ابيات من قصيدة « لشاعر عصري » يرثي بها صديقاً له :

هوى ذلك البدر المنير لقطره فمن بعدُ في العلياء لا تنظر البدرا

(اما هذه الكرة البيضاء التي لا تزال تذر علينا نورها ليلاً من علوها السماوي . وتغيب وتشرق . وتكتمل وتنقص . هذه ليست بعد بدراً بل ... فتشوا « تاج العروس » فربما وجدتم لها اسماً !)

فأصبح هذا الكون عادم ملكه واصبحت الخلان لا تعرف الصبرا

(مسكين هذا الكون ! هاتوا الدموع لنبكيه)

فبالله نح واندب هماماً مجدّلا وشهماً له في صُقعه الآية الكبرى
(أين النادبات !)
اديباً خطيباً مصقعاً متأنقاً يساقط من فيه اللآلى والدرا
(كفكفوا الدمع وتعالوا نجمع اللالى والدرر !)
وذا مِرْقَمٍ لو هزه فوق مُهْرَقٍ اسال على الاوراق من رأسه التبرا
(آه لو ندري أين تلك الاوراق التي سال عليها التبر !)
وسمحاً كريماً لو تبقّاه ربه لما عرفت ابناء ذي الكرة الفقرا
(ما اقسى قلبك يا رب واغرب اعمالك كلها بحكمة صنعت !)
وبراً عزوماً عاش في حضن دينه ولم ينتحل ديناً ولا عرف الكفرا
(ولماذا النوح . فلا شك ان جبرائيل سيطرح سيفه الناري الى قدمي هذا الزائر حالما يراه قادماً نحو باب الجنة)
فوا حرقتي من ذكر اوصافه التي تثير شجوني والبرايا بها ادرى
(واذا كنا ادرى بها فلم حرق الدماغ واجهاد القريحة وسهر الليالي لاخبارنا بما نحن ادرى به ..)

لا استخفافاً بمقام الرائي ولا المرئي (اذ لم يسعدنا الحظ بالتعرف بكليهما) بل بالحري غيرة على شرفهما . غيرة على شرف الاقلام . غيرة على الشعر والشعراء حملنا القلم على ايراد هذه الابيات التي اخترناها من بين قصائد شعرائنا « المحلقين » مصادفة لا قصداً . ونحن نلقي التبعة على القارىء فاذا مضغ هذه الابيات

وهضمها دون ان يصاب بعسر او مرض ما فصفح الشاعر أولى والا فالواجب يدفعنا ان نحافظ على صحة القراء بكل ما عندنا من الوسائط والتدابير

دعونا يا قوم نَعْمَهُ في ظلامنا اذا لم يكن عندكم شموع تنير لنا الطريق ! دعونا نتضوَّر جوعًا اذا لم يكن عندكم ما نسد به رمقنا ! دعونا غافلين اذا كنتم توقظوننا لتدفعوا بنا الى مخالب الموت ! دعونا جهالى إن لم يكن عندكم ما تقولون لنا سوى ما نحن ادرى به منكم فنحن أضنّ بوقتنا من ان نصرفه معكم في النوح على بدوركم والرقص في اعراسكم وتقديم التسابيح لاصنامكم . نحن ارفع من ان نأكل كِسَراً تأتوننا بها من موائد الاغنياء . وقاعدتنا : الفقر ولا الاستعطاء والموت جوعًا ولا الاقتيات بجيَف الحقول !

اما من كان عنده كسرة معجونة بدم القلب ومخبوزة بنار المحبة والاخلاص فليأتنا بها . من كان عنده قلم تهزه عاطفة شريفة حيـة ينثر شراراً لا تبراً فقلوبنا له قرطاس . من كان عنده مرآة يرينا فيها وجهنا الحقيقي فأهلاً به وبمرآته . وبالاختصار من كان فيه ذرة من الاخلاص فكلنا آذان صاغية له .

أتذكرون قصـة الحطيئة لما رأى وجهه في البئر . أتذكرون ما قال ؟ :

أرى لي وجهًا شوّه الله خلقه فَقُبِّح من وجه وقبح حامله

ولو كان لكتابنا بئر يرون وجوههم في مائها لاجفلوا ورددوا بيت الحطيئة .

لكن أنى لنا بمولير فرنسا . أنى لنا بمن يمثل امامنا "Les precieuses redicules" في حياتنا !

اذا احببتم ان تجدوا مثالا قريباً لشعرائنا (لا كثرهم على الاقل) فأنصحكم ان تتعرفوا بالخواجا Mascarille في تلك الرواية . اقرأوا شعره .

Oh, oh ! je n'y prenais pas garde :
Tandis que, sans songer a mal, je vous regarde,
Votre œil en tapinois me derobe mon cœur ;
Au voleur, au voleur, au voleur, au voleur !

قابلوا هذه الابيات (واذا لم تفهموها فلا تنتظروا ان اترجمها لكم . فتشوا لكم عن مترجم) بهذين البيتين لبعض شعرائنا يهنىء بهما ولداً اسمه « فوزي » بتنصيره :

« يهنىء فوزي عقد المعالي يراع وعقل وقلب وفم
بدار نراه لنا شامة عليها بها منّ مولى النعم »

ولو فقه شاعرنا لكتب « فأرخ نراه لنا شامة الخ » فكان بذلك زاد الشعر طلاوة والسامعين اعجاباً بمقدرته وانا اكفل له ان لا خوف من ان يجمع الحروف احد فيجد بدل ١٩١٣ سنة ٥٧٢٤ ½ ...

نعم . فتشوا عن موليير ليضحكنا ويبكينا ويجعلنا نخجل من ذواتنا في وقت واحد . انما اذكروا ان موليير لا يولد من درس المعاجم والعروض والقوافي وجوائزها من خبن وخبل وطي ووقص . موليير لا تحصره البحر بين طويلها ووافرها ورجزها ورملها . لا تقف في وجهه خرافات وترهات وشرائع واوهام . بل هو نبع جارف يتدفق من صدر الطبيعة

حبذا لنا موليير !

أفلا ينابيع عندنا كهذا . أقاصرة حياتنا عن ان تلدَ لنا موليير ؟

هنا اريحكم من ندبي وازودكم هذين السؤالين الى ان نلتقي مرة اخرى فاسمع جوابكم وابسط لكم جوابي . وقبل ان اتمنى لكم صباحاً سعيداً او نوماً هنيئاً اود ان المح لكم انكم لو كنتم تطلبون شكسبير او موليير يومياً كما تطلبون خبزكم الجوهري . لو كنتم تصلون من اجلهما كما تصلون من اجل « ملوككم الحسني العبادة » لكان عندكم الآن « هملتكم » « ومكبثكم » « وعطيلكم » الخ لكن قبل ان تطلبوا شيئاً من السماء نقوا قلوبكم وطهروا شفاهكم لتكونوا اهلا لنيله . واذا احببتم ان يكون لكم شكسبير او غيوتي او موليير منكم وفيكم فاعدوا لهم الطريق . نظفوا هيا كلكم من الاصنام الخشبية التي تحرقون امامها بخوركم الآن .

امحقوا اساسات تلك المذابح الدموية . دعوا الحباحب تبرق باذنابها في دياجير الحياة فتخدع من لم يرَ بعد نور الشمس . واعدوا في قلوبكم هياكل جديدة لآلهة جديدة ومنابر عالية لمصابيح تتقد بزيت الحق والغيرة والاخلاص .

ولا تقنطوا « فوراء الغيوم لا تزال شمس مشرقة » .

المقاييس الادبية

الحياة لا تحدّ . فلا تُكال بصاع . ولا تقاس بذراع . غير اننا نقيس منها ما يحدُّه عقلنا الصغير بالنسبة لحاجاتنا الجسدية والروحية. وما تلك الا حيلة نوفق بها بين مداركنا المحدودة وحياتنا غير المحدودة . ونسهل بها سبيلنا في عالم اوّله آخره ، وآخره اوّله . فقد جعلنا من الحيـاة خريطة نحن محورها . وحدّدنا نسبتنا الى كل محسوس وغير محسوس بمقاييس وهمية هدتنا اليها الحاجة .

هكذا ، لقد جزأنا الزمان ، والزمان لا يتجزأ . وقسمنا المسافة، والمسافة لا تتقسم . وهكذا وزنا الاشياء ، ووزن الاشياء لا يحد . فقسنا الزمان بالثانية . والمسافة بالقيراط . والوزن بالحبة .

ان هذه المقاييس ، وسواها من نوعها ، وان تكن وهميـة ، هي خير ما توصلت اليه الانسانية من السبل لايجاد صلة ثابتة بينها وبين عالم هي بعض منه . ولولاها لما كان عظيم فرق بيننا وبين اوراق تنتزعها الريح عن الاغصان وتصفقها كيف شاءت وحيث هبّت. ومن حسنات هذه المقاييس انها ثابتة لا تتقلب بتقلب الفصول والعصور . فهي وان تنوعت بتنوع الامم والامصار ، تتنوع من حيث شكلها الخارجي لا من حيث جوهرها .

غير ان نسبتنا الى العالم لا تنتهي عند الزمان من حيث طوله وقصره ،ولا عند الاشياء من حيث بعدها وقربها، وعلوها وانخفاضها، وثقلها وخفتها . بل هناك نسبة تتعدى كل هذه الامور . وهي نسبتنا الى كل ما في العالم ، او نسبة كل ما في العالم الينا ، من حيث قيمته . وان جاز لي ذلك ، دعوتها « النسبة القيمية » فللزمان في حياتنا قيمة . وللمكان قيمة .

وللاشياء بانواعها قيمة او ثمن . بل ان لكل شيء قيمتين — مادية وروحية . اما القيمة المادية فنقيسها بحسب حاجاتنا الجسدية . واما الروحية فبحسب حاجاتنا الروحية . لكن مقاييسنا « القيمية » ليست ثابتة كمقاييس الزمان والمسافة والوزن . بل هي تتكيف بالزمان والمكان وبدرجة رقينا المادي والروحي . فقد يقتل همجي اخاه من اجل خرزة ملونة يأبى المدنيُّ ان يتعثر بها . وقد يقتل المدنيُّ المدنيَّ من اجل لؤلؤة يأبى الهمجيُّ ان يشرفها ببصاقه . بل قد يطرح الواحد منا اليوم جانباً ما كان يحسبه بالامس ثميناً ونفيساً . ويغالي في هذه البقعة من الارض بما لم يكن يعبأ به في تلك . والعكس بالعكس . فكأن مقاييسنا القيمية ليست سوى ازياء نتردى بها . فنطرحها ونستبدلها بسواها عندما نشاء او حسبما تقضي الحاجة .

لقد قلت ان لكل شيء قيمتين — روحية ومادية . لكن في الحياة ما ليس له الا قيمة روحية . من ذاك الفنون . ومن ذاك

الأدب . فكيف نحدد قيمة الأدب ؟

بماذا نقيس هذه القصيدة ، او تلك المقالة . او القصة . او الرواية ؟ ! أمن حيث طولها ، ام قصرها ، ام تنسيقها ام معناها ام موضوعها ، ام نفعها ؟ ام نقيسها باقبال الناس عليها و بعدد طبعاتها ؟ ام يستحيل قياسها بمقياس واحد ثابت لأن تقديرها موقوف بذوق القارىء ، والاذواق تختلف باختلاف الناس والاعصار والامصار . فلكل ان يقيسها كيف شاء وكل في رأيه مصيب ؟

اذا صح ان مقاييسنا القيمية — ومنها مقاييسنا الادبية — ليست سوى ازياء تتبدل بتبدل الايام والاماكن والاذواق والمدارك ، فما النفع من جهدنا وجدِّنا في التمييز بين الامور والفصل ما بين غثها وسمينها ؟ أوَ لسنا صارفين همنا سدى كلما حاولنا ان نفرق بين الجميل والقبيح ، والنافع والمضر ؟ والخطأ والصحيح ؟ فمن ذا يكفل لنا ان ما ندعوه اليوم جميلاً ونافعاً وصحيحاً لا يصبح في الغد قبيحاً ومضراً وفاسداً ؟ و بعبارة أخرى ؟ اذا لم تكن مقاييسنا الادبية الا ازياء نبدلها كما نبدل ازياء المعيشة من لباس وطعام وسكن فما نحن الا ساخرون بانفسنا كلما ابدينا رأياً في اثر ادبي . اذ يأتي الغد بازيائه الجديدة فيضحك ابناؤه منا ونضحك معهم من انفسنا . ثم يأتي ما بعد الغد فيضحك بدوره من الغد ومن امسه

أوَ ليس في الأدب من ازياء لا تعتق مع الزمان ولا تزيدها

الايام الا جمالا وهيبة ؟

هو ذا قسم كبير من العالم لا يزال ينشد اليوم مزامير كان ينشدها منذ الوف من السنين شاعر عبراني اسمه داود . ويستمد من انشادها لذة روحية . وها نحن نردد اليوم بعض ابيات من قصائد يقال انها علقت على باب الكعبة قبل الاسلام . ونعيد سواها من قصائد لا نعرف ناظمها او ناظميها . ونسكر بابيات او قصائد لشيخ اعمى يدعى ابا العلاء . ولمتقشف يدعى الفارض . ولمجنون يدعى قيساً العامري . ولعشرات سواهم . فما السر في هذه الابيات التي كلما طال عليها الدهر تجددت لذتها كالخمر المعتقة ؟

ما السر في اننا ، ونحن لانعرف عن تروادة وحرب تروادة غيرما رواه الرواة ، نجد لذة في مطالعة اخبارها لا كما سطرها المؤرخون ، بل كما انشدها منذ اكثر من الفي سنة شاعر ضرير اسمه هوميروس ؟

ما السر في اننا ، ونحن نكره الجحيم ، نرتاح الى زيارته لا برفقة القسوس والشيوخ بل برفقة شاعر ايتالي تفصلنا عنه ستة اجيال ؟

واخيراً ما السر في ان ما كتبه ممثل ، او « مهرج » انكليزي يدعي شكسبير لايزال في يومنا هذا جديداً بل هو يتجدد من يوم ليوم ؟

اذا كان في الأدب من آثار « خالدة » ففي خلودها برهان على ان في الأدب ما يتعدى الزمان والمكان . وجليّ ان المقاييس

التي نقيس بها مثل هذه الآثار لا تتقيد بعصر ولا تتعلق بمصر. فاذا كنا لا نزال نعجب ونطرب بما كان يعجب ويطرب به العبراني واليوناني والايتالي والعربي والانكليزي منذ مئات والوف من السنين أوَ ليس ذاك لاننا نقيس هذه الآثار الادبيـة بنفس المقاييس التي كان يقيسها بها اولئك ؟

اذن ، ففي الادب مقاييس ثابتة تتجاوز الزمان والمكان. ولا تعبث بها امواج الحياة المتقلبة ، واذواق العالم المتضاربة ، وأزياء البشرية المتبدلة .

فما هي هذه المقاييس ؟

قلنا ان قيمة الامور الروحيـة انما تقاس بالنسبة الى حاجاتنا الروحية . ولكل منا حاجاته . بل لكل امة حاجاتها . ولكل عصر حاجاته . غير ان من هذه الحاجات ما هو مقيـد بالفرد او بالامة واحوالها الزمانية والمكانية . وهذه تتقلب وتتغير . ومنها ما هو مشترك بين كل الافراد والامم في كل العصور والامكنة . وهذه الحاجات هي المقاييس الثابتة التي يجب ان تقاس بها قيمة الأدب . فان حددناها حددنا مقاييسنا الادبية وتمكنا من ان نعطي لكل أثر أدبي حقه .

اما هذه الحاجات المشـتركة فقد لا يسعني ولا يسع سواي الإحاطة بها . غير اني سأحاول أن أذكر منها ما هو في اعتقادي اهمها :

اولا : حاجتنا الى الافصاح عن كل ما ينتابنا من العوامل النفسية : من رجاء ويأس . وفوز وفشل . وايمان وشك . وحب وكره . ولذة وألم . وحزن وفرح . وخوف وطمأنينة . وكل ما يتراوح بين أقصى هذه العوامل وأدناها من الانفعالات والتأثرات .

ثانيًا : حاجتنا الى نور نهتدي به في الحياة . وليس من نور نهتدي به غير نور الحقيقة — حقيقة ما في انفسنا . وحقيقة ما في العالم من حولنا . فنحن وان اختلف فهمنا عن الحقيقة ، لسنا لننكر ان في الحياة ما كان حقيقة في عهد آدم ولا يزال حقيقة حتى اليوم وسيبقى حقيقة حتى آخر الدهر .

ثالثًا : حاجتنا الى الجميل في كل شيء . ففي الروح عطش لا ينطفي الى الجمال وكل ما فيه مظهر من مظاهر الجمال . فانّا ، وان تضاربت اذواقنا في ما نحسبه جميلاً وما نحسبه قبيحًا ، لا يمكننا التعامي عن ان في الحياة جمالاً مطلقًا لا يختلف فيه ذوقان .

رابعًا : حاجتنا الى الموسيقى . ففي الروح ميل عجيب الى الاصوات والالحان لا ندرك كنهه . فهي تهتز لقصف الرعد ولخرير الماء ولحفيف الاوراق . لكنها تنكمش من الاصوات المتنافرة وتأنس وتنبسط بما تآلف منها .

هذه بعض حاجاتنا الروحية ، ان لم تكن اهمها . وهي معنا في كل حين . فهي ، وان تنوعت في الناس بتنوع الافراد والشعوب

والازمنة والاقطار ، لا تتنوع بجوهرها ، بل بدرجات شدتها وقوة شعورنا بها . وهي المقاييس الثابتة التي يجب ان نقيس بها الادب . فتكون قيمته بمقدار ما يسد من بعض هذه الحاجات او كلها . ويكون أثمنه أجلاه بيانًا.واغناه حقيقة . واطلاه رونقًا . واشجاه وقعًا .

ان لمفردات اللغة التي نصوغ منها منثوراتنا ومنظوماتنا صفات عجيبة وميزات غريبة . فلكل كلمة معنى او روح . ولكل كلمة رنة . ولكل كلمة صبغة او لون . والمجيد من الكتاب والشعراء من اذا شاء الافصاح عن عاطفة او فكر جمع بين مفردات يتولد من ارتباط معانيها معنى جلي . ومن اندماج الوانها صورة واضحة جميلة . ومن تآلف رناتها لحن رقيق شجي .

غير ان من الكتاب والشعراء من لا يرون من الالفاظ الا معانيها فهؤلاء قد يفصحون عن عاطفة او فكر انما يجيء افصاحهم عاريًا من الجمال خاليًا من الموسيقى . ومنهم من لا يرون من الالفاظ غير الوانها ، فهؤلاء قد يرسمون صورة طليـة ، لكنها تأتي مجردة من الحياة . ومنهم من لا يرون في الالفاظ سوى رناتها . فيؤلفون الحانًا رقيقة انما لا جمال فيها ولا بيان . فقيمة ما يكتبه وينظمه هؤلاء تقاس بقدر ما يسده من هذه الحاجة او تلك من حاجاتنا الروحية . لكن منهم من جمع الى دقة الافصاح جمال التركيب . فآثار هؤلاء تقاس بحاجتين . ومنهم من ضم الى دقة الافصاح

وجمال التركيب عذوبة الرنة . فآثار هؤلاء تقاس بثلاث حاجات . ومنهم — وهم قليل — من جمع بين دقة الافصاح وجمال التركيب وعذوبة الوقع وحلاوة الحقيقة . فقيمة ما يكتبه او ينظمه هؤلاء تكاد لا تحد . من هذا النوع مؤلفات شكسبير . فليس من كل ما ظهر في العالم حتى اليوم من شعراء وكتبة من تمكن من ان يجوب اقطار النفس البشرية كما جابها هذا الممثل الانكليزي . ولا ان يفصح عنها ببلاغته . ولا أن يزين بلاغته بالجمال الذي زانها به . ولا ان يودعها من الالحان ما أودعه شكسبير في اكثر ابياته ومقاطعه . ولا أن يبطنها بالحقائق التي بطن بها هذا الجبار مشاهد رواياته وفصولها . لذاك لا يزال شكسبير كعبة نحج اليها وقبلة نصلي عليها .

والآن لا بد لي من كلمة عن مقاييسنا العربية بنوع خاص . فبلاؤنا ليس بأن لا مقاييس عندنا . بل ان ليس عندنا من يحسن استعمال هذه المقاييس وتطبيق الادب عليها . فمن سوء طالعنا اننا وَكَلنا شؤوننا الأدبية الى جرائدنا ومجلاتنا في الغالب . وجرائدنا ومجلاتنا تقيس الادب بعدد مشتركيها ومناصريها واعمدتها وحقولها ومن كان ذاك شأنه فحاجاته الروحية معدودة محدودة . فأنّى له ان يقيس حاجات امة أو أمم ؟ واذا قاسها فبحاجاته وحسب . لذاك لنا في كل يوم شاعر « مطبوع » او « عبقري » او « نابغة » .

وكاتب « نحرير » وقصيدة « عصماء » او « درة فريدة » الى ما هنالك من الالقاب والنعوت التي جرائدنا ومجلاتنا المباركة أدرى بها مني . فكثير من القصائد التي تزفها الينا الجرائد والمجلات «درراً فريدة » لو قسناه بالمقاييس الادبية الثابتة لوجدناه عارياً من كل شيء سوى الرنة . وان كان فيه جمال فلا عاطفة . وان كان فيه عاطفة فلا جمال ولا حقيقة . وان كان فيه حقيقة فمبتذلة او مشوهة .

لست أدري ، وربِّ الكعبة ، كيف تزهر آدابنا وتثمر ما دامت مقاييسها في أيدٍ لا تعرف من الادب كوعه من بوعه لا ولا أعلم كيف وصلنا الى هذا الحد من الهبوط وعندنا من الآثار الادبية ما لو قيس بأدق المقاييس لكان راجحاً . كيف يكون لنا ابو العلاء الذي جمع في كثير من قصائده ومقاطعه بين دقة البيان وجمال التنسيق ورنة الوقع وصحة الفكر ولا نخجل من أن نلقب « بالامير » و « النابغة » و « العبقري » من ليس في شعرهم سوى الزركشة والرنة . فقد تطرب به حين تقرأه . لكنك تنساه في الحال وتلقيه من يدك وليس في قلبك وتر يتحرك . ولا في رأسك فكر يفيق .

ان حاجتنا ليست الى مقاييس أدبية ثابتة . فهي وافرة لدينا . انما الحاجة الى من يحسنون استعمال هذه المقاييس . لا سيما في دورنا الحالي لانه دور انتقال . حاجتنا الى شعراء وكتاب يقيسون ما ينظمونه ويكتبونه بهذه المقاييس . فيسيرون وتسير معهم آدابنا

في الصراط القويم . والى ناقدين ممحصين يميزون بين غث الأدب وسمينه . فلا يحسبون الاصداف درراً . ولا الحباحب كواكب .

الشعر والشاعر

كلنا يتكلم عن الشعر . بعضنا يؤلهه ، والاخر يعشقه ، والثالث يقرضه ، والرابع يقتات ويتنفس به . هذا يشحذ ذاكرته بالمعلقات والموشحات والخاليات واللاميات ، يرددها في وحدته ويتلوها على مسمع اصحابه . وذاك يكتب القصيدة بعد القصيدة ويستعد لان ينشر درر افكاره في « ديوان » ولا ديوان ابي الطيب . والاخر ، الذي لم يعلمه ابواه « الف . باء » يصنف على « المعنى والقرادي والمرصود » او يتغنى بذاك « الموّال » او هذا البيت من العتابا . كلنا يعشق الشعر — فصيحاً كان او عامياً — ولا بدع فنحن من سلالة قوم « هم . هم اذا مات منهم شاعر قام شاعر . »

كلنا يتكلم عن الشعر كاننا نعرف ما هو الشعر كما نعرف ما هو الخبز والماء والثوم والبصل . ولو اجتمعت زمرة من عشاق الشعر بيننا لتتحدث عن الشعر لوجدتها مبلبلة الالسن هذا يعني بالشعر كلاما موزوناً مقفى ، وذاك بيتا واحدا من القصيدة ، والاخر لا يحسب شعرا كل ما يقدر القارىء على فهمه دون ان يلجأ الى القاموس .

ان جهلنا معنى الشعر الحقيقي ومنزلته في عالم الادب قد اوصلنا الى ما نحن فيه الان من وفرة « النظامين » وقلة الشعراء ، وغنانا

بالقصائد وقفرنا بالشعر إن الذين حاولوا ان يعرفوا الشعر بعبارة او اكثر لجيش غفير . لكن ليس بينهم من اهتدى الى تعريف يشمل الشعر من كل وجوهه . لان الشعر غير محدود .

ولو القينا نظرة سطحية على هذه التعاريف لوجدناها ، مع كل ما فيها من الاختلاف الظاهر في التعبير ، تدور حول نقطتين جوهريتين . قسم منها ينظر الى الشعر من جهة تركيبه وتنسيق عباراته وقوافيه واوزانه . والاخر يرى في الشعر قوة حيوية ، قوة مبدعة، قوة مندفعة دائما الى الأمام . والشعر في الحقيقة ليس الاول وحده ولا الثاني فقط ، بل هو كلاهما . الشعر هو غلبة النور على الظلمة ، والحق على الباطل . هو ترنيمة البلبل ونوح الورق . وخرير الجدول وقصف الرعد . هو ابتسامة الطفل ودمعة الثكلى . وتورد وجنة العذراء وتجعّد وجه الشيخ . هو جمال البقاء وبقاء الجمال . الشعر — لذة التمتع بالحياة ، والرعشة امام وجه الموت . هو الحب والبغض ، والنعيم والشقاء . هو صرخة البائس وقهقهة السكران ولهفة الضعيف وعجب القوي . الشعر — ميل جارف وحنين دائم الى ارض لم نعرفها ولن نعرفها . هو انجذاب ابدي لمعانقة الكون باسره والاتحاد مع كل ما في الكون من جماد ونبات وحيوان . هو الذات الروحية تتمدد حتى تلامس اطرافها اطراف الذات العالمية . وبالاجمال ، فالشعر هو الحياة باكية وضاحكة ، وناطقة وصامتة ، ومولولة ومهللة ،

وشاكية ومسبحة ومقبلة ومدبرة .

الشعر رافق الانسان من اول نشأته وتدرج معه من مهد حياته حتى ساعته الحاضرة . من الهمجية الى البربريـة الى الحضارة الى مدنيـة اليوم . تمشت الانسانيـة والشعر سميرها ومعزيها ومشجعها ومقويها . رافقها ويرافقها في الحل والترحال ، والعمل والبطالة ، والبؤس والرخاء ، والحرب والسلم ، والوفرة والقلة . تعرفه ابرة الخياطة ومِطرقة الحداد وزاوية البنّاء ومِنجَل الحاصد ومحراث المزارع . تعرفه خلوات النسّاك وقصور الملوك واكواخ الفقراء . تعرفه القلوب المنكسرة المجردة من افراح هذه الدنيا ، والقلوب المفعمة بملذات العالم وشهواته . تعرفه روح العذراء وروح المومسة . تعرفه العيون الدامعة والعيون الضاحكة والوجوه الشاحبة والوجوه الباسمة . اعراسنا ليست كاملة الا به ، وامواتنا لا يلحدون دونه . ترنيمة واحدة ترسل الجندي الى محافر الفناء كإلى عرس . ونشيد واحد يخفف على النوتي حربه مع اللجة المزمجرة والامواج المتطاحنة . « موال » لا ندري في قلب من اختمر ولسان من نطق به أوّلا يردده اباؤنا ونلحنه نحن بعد مئات من السنين وبيت من « العتابا » بليت عظام قائله من اجيال يخترق سكينة وحدتنا ويحرك السنتنا فتخفق قلوبنا امّا حزنا واما فرحا . ويختلس من اعيننا دمعة أو دموعا او يبسط على اوجهنا ابتسامة اللذة والسعادة . قصيدة انشأها منذ عشرات من القرون

بدوي يدعى امرىء القيس او عنترة او المهلهل او قيس العامري نطالعها اليوم فنعجب بها ونطرب وتهتز عواطفنا . نحفظ ابياتا مختلفة من قصائد مختلفة ونرددها بين الآونة والاخرى كانها من بنات افكارنا او مستودعات قلوبنا . نسعى وراء غاية ما ولا ننالها فننشد

ما كل ما يتمنى المرء يدركه تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

او نصادف في الطريق صديقا سوّد اليأس قلبه وبدل النور في عينيه ظلاماً، خانه دهره فاصبح يمقت يومه ويخاف غده ، فنعزيه بقولنا

دع التقادير تجري في اعنتها ولا تبيتن الا خالي البال

ما بين طرفة عين وانتباهتها يغير الله من حال الى حال

او نسمع غبياً يفاخر باجداده واجداد اجداده فنذكره بقول الشاعر

لا تقل اصلي وفصلي ابداً انما اصل الفتى ما قد حصل ، الخ .

ولو وقفنا لنعدد الابيات التي تناقلتها الالسن فاصبحت جزءاً من حياة الشعب اليومية لضاق بنا المقام .

ولماذا نردد هذا البيت او تلك القصيدة او ذاك « الموال » ونترك جبالاً من القصائد التي لو قرأناها مرة لشكرنا ربنا على نجاتنا بالسلامة ؟

لان هذه الابيات والقصائد و «الموالات» امّا تفسر لنا الحياة بتعبيرها عن حالات نفسية نشعر بها ونعجز عن سكبها في قالب من

الكلام . واما تنقش في مخيلتنا صورة نحب ان نتمتع بجمالها كما نحب ان ننظر الى وجه جميل وبدر تام وشمس تغرب وزهرة في المرج تنحني مع مرور النسيم . نحب كذلك موسيقى اللفظ وسلاسة التركيب وفصاحة التعبير كما نحب ان نصغي الى تموجات الاثير التي ترسلها اوتار كمنجة اذ يلامسها القوس من يد استاذ ماهر . كلنا — لأسف الكثيرين بيننا — لم نخلق شعراء ولم نعط موهبة ترجمة القلوب والارواح والطبيعة . لذلك كثيرا ما نضطر ان نعبر عن عواطفنا وافكارنا واحساساتنا بألسنة الغير . كلنا لسنا موسيقيين ومصورين ، لذلك نضطر من وقت الى اخر ان ندع الاخرين يقومون بسد حاجاتنا الموسيقية والفنية اجمالا — اذا كنا نشعر بمثل هذه الحاجات على الاطلاق .

عبثا حاول تولستوي وسواه ان يحطوا من مقام الشعر وينزلوه عن مملكته الالهية الى مملكة النسيان والخمول . عبثا نددوا به فعظموا آفاته وصغروا محاسنة ونهوا عن صرف الوقت في قرضه . ما دام الانسان انسانا ، ما دام فيه ميل فطري الى الغناء ان كان في الحزن او الطرب ، وما دامت اللغة واسطة لتصوير افكاره والتعبير عن عواطفه وآماله ، فسيبقى الشعر حاجة من حاجاته الروحية . لانه في الشعر يجسم احلامه عن الجمال والعدل والحق والخير . وفيه يرسُم

الحياة التي تعشقها روحه ولا تراها عيناه ولا تسمعها اذناه حواليه بين اقذار العالم ودأبه اليومي وهمومه الصغيرة ومشاكله الكبيرة .

اذن — تسألونني — هل الشعر خيال فقط وتصوير ما ليس كائنا كأنه كائن ؟

وانا اسألكم بدوري — ما هو الفرق بين الحقيقة والخيال وهل من حد فاصل بينهما ؟ انتم واقفون على ربوة تشرف على البحر ، تراقبون من هناك كيف تبتلع الامواج سلكا بعد سلك من أشعّة الشمس المنحدرة . وبينكم وبين البحر غابة محدودة الاطراف من الصَّنَوْبَرِ والأَرْزِ والسِّنْدِيانِ . في اسفل الربوة واد تراكمت فيه الصخور بعضها فوق بعض ، تجري بينها مدمدمة مياه جدول صغير . وفي نهر الذهب المكون من اشعة الشمس المتلاشية ترون باخرة يتصاعد منها عمود من الدخان الى قلب الفضاء . الشمس والبحر والغابة والوادي والباخرة قد اصطفت في مخيلتكم بهيئة صورة متناسبة الالوان والخطوط ، قماشها الافق وإطارها الفضاء . الصورة تسحركم بتناسبها ودقة ترتيبها ودَهنها وتناسبُ النور والظل فيها . أهي حقيقة أم خيال ؟ — اذا قلتم حقيقة فاسمحوا لي ان اذكركم بالأفعى التي التفت على صخرة بالقرب منكم وقد امسكت بين فكيها ضبا تحاول ان تزدرده عشاء يومها . او بالثعلب الذي انزوى بين الصخور القريبة منكم ودمه يسيل من رصاصة اصابته من يد

الصياد . أو بالديدان التي تململ في برك الماء المنتنة في الوادي . هل عددتم الاشجار في الغابة وميزتم الارز من الصنوبر والسنديان من البلوط ؟ هل رأيتم العوسج الملتف على جذوع هذه الاشجار ؟ وبالاجمال هل رأيتم كلما مرت اعينكم فوقه من رأس الرابية الى خط الافق وجعلتموه جزءا من الصورة التي تمتعون بجمالها ؟ كلا . ولماذا ؟ أليست كل هذه التفاصيل جزءا من الحقيقة التي امامكم والتي تتمكنون من رؤيتها لو شئتم ؟ — نعم . ولكن صورتكم كاملة بدونها ، وجمالها في انها مركبة من جمال المجموع لا تفاصيل المفرد .

أهي خيال او وهم اذن ؟

كلا فليست وهما ولا خيالا بل حقيقة محسوسة . انتم لم تبدعوا الربوة ولا الغابة ولا اختلقتم البحر ولا الشمس ولا الفضاء ولا الجدول . كل ذلك رأيتموه وشعرتم بوجوده . ولكنكم قد قابلتم وميّزتم ، ونبذتم واخترتم ثم رتبتم ما اخترتموه في نسبة معلومة كانت نتيجتها الصورة التي رسمتها لكم المخيلة . جرى ذاك كله وانتم لم تغيروا حقيقة الموجودات لم « تخلقوا » شيئاً إنما اخذتم ما وجدتموه في الطبيعة فطرحتم منه وزدتم عليه ، وبدلتم في ترتيبه حتى حصلتم على ما طلبته واحبته انفسكم .

وهكذا يفعل الشاعر . اذا سمعتموه يتغزل بجيل ذهبي ، بجيل لا اثر فيه للظلم والبغض والفقر والحسد والنزاع والموت ، بجيل

الحياة التي تعشقها روحه ولا تراها عيناه ولا تسمعها اذناه حواليه بين اقذار العالم ودأبه اليومي وهمومه الصغيرة ومشاكله الكبيرة .

اذن — تسألونني — هل الشعر خيال فقط وتصوير ما ليس كائنا كأنه كائن ؟

وانا اسألكم بدوري — ما هو الفرق بين الحقيقة والخيال وهل من حد فاصل بينهما ؟ انتم واقفون على ربوة تشرف على البحر ، تراقبون من هناك كيف تبتلع الامواج سلكا بعد سلك من أشعّة الشمس المنحدرة . وبينكم وبين البحر غابة محدودة الاطراف من الصَّنَوْبَرِ والأَرْزِ والسِّنْدِيانِ . في اسفل الربوة واد تراكمت فيه الصخور بعضها فوق بعض ، تجري بينها مدمدمة مياه جدول صغير . وفي نهر الذهب المكون من اشعة الشمس المتلاشية ترون باخرة يتصاعد منها عمود من الدخان الى قلب الفضاء . الشمس والبحر والغابة والوادي والباخرة قد اصطفت في مخيلتكم بهيئة صورة متناسبة الالوان والخطوط ، قماشها الافق وإطارها الفضاء . الصورة تسحركم بتناسبها ودقة ترتيبها ودَهنها وتناسبُ النور والظل فيها . أهي حقيقة أم خيال ؟ — اذا قلتم حقيقة فاسمحوا لي ان اذكركم بالأفعى التي التفت على صخرة بالقرب منكم وقد امسكت بين فكيها ضبا تحاول ان تزدرده عشاء يومها . او بالثعلب الذي انزوى بين الصخور القريبة منكم ودمه يسيل من رصاصة اصابته من يد

بها عرض الحائط .

وما هي الغاية من الشعر ؟

قوم يقولون ان غاية الشعر محصورة فيه ولا يجب ان تتعداه (الفن لاجل الفن) وآخرون ان الشعر يجب ان يكون خادماً لحاجات الانسانية وانه زخرفة لا ثمن لها اذا قصر عن هذه المهمة . ولهذين المذهبين تاريخ طويل لا نقدر ان نأتي به هنا ، ولا غاية لنا ان نبحث في حسنات كل منهما وسيئاته . انما نكتفي ان نقول ان الشاعر لا يجب ان يكون عبد زمانه ورهين ارادة قومه . ينظم ما يطلبون منه فقط ويفوه بما يروق لهم سماعه . واذا كان هذا ما يعنيه اصحاب المذهب الاول فلا شك انهم مصيبون . لكننا نعتقد في الوقت نفسه ان الشاعر لا يجب ان يطبق عينيه ويصم اذنيه عن حاجات الحياة وينظم ما توحيه اليه نفسه فقط سواء كان لخير العالم او لويله . وما دام الشاعر يستمد غذاء لقريحته من الحياة فهو لا يقدر — حتى ولو حاول ذلك — الا ان يعكس اشعة تلك الحياة في اشعاره فيندد هنا ويمدح هناك ويكرز هنالك . لذلك يقال ان الشاعر ابن زمانه ، وذلك صحيح في اكثر الاحوال ان لم يكن في كلها .

والان بعد ان بحثنا ، ولو سطحياً ، في الشعر ، لنقف ونسأل — من هو الشاعر ؟

يسود فيه الحب والعدل والاخاء والمساواة وهلم جرا — فلا تنعتوه بالجنون والكذب والوهم . هو لم يخلق الحب ولم يوجد العدل ولا سبّب الفقر ولا قال للموت كن فكان . هو وجد هذه الصفات والاحوال في العالم عند زيارته هذا العالم . لكن روحه التي تعشق الجميل وتنفر من القبيح قد وضعت هذه الصفات في نسبة جديدة غير التي نراها سائدة في حياتنا اليومية . وتغيير النسبة هو اختلاق الشاعر الذي ندعوه « خيالا » . لكن خيال الشاعر حقيقته . والشاعر الذي يستحق ان يدعى شاعراً لا يكتب ولا يصف الا ما تراه عينه الروحية ويختمر به قلبه حتى يصبح حقيقة راهنة في حياته ولو كانت عينه المادية احياناً قاصرة عن رؤيته . ذاك لا يعني ان الشاعر يقدر ان يدعو الاسود ابيض والاحمر اصفر — اي ان يعرّي الاشياء الحقيقية عن مميزاتها الطبيعية ويعطيها صفات من عنده داعياً ذاك « خيالا » . كلا . وهذا كل الفرق بين الشاعر والشعرور . الشاعر لا يصف الا ما يدركه بحواسه الجسدية او يلامسه بروحه . لسانه يتكلم من فضلة قلبه . اما الشعرور فيحاول ان يقنعنا انه حلم احلاماً نحن نعلم علم اليقين انها لم تمر له برأس لا في النوم ولا في اليقظة . ويصف لنا عواطف لم يشعر بمثلها لا بشر ولا جن ولا ملاك من اول وجود هذا العالم حتى اليوم . لذاك تهزنا اشعار الاول فنحفظها ونرددها . وتضحكنا « قصائد » الثاني فنضرب

واخيراً – الشاعر كاهن لانه يخدم الهاً هو الحقيقة والجمال . هذا الآله يظهر له في ازياء مختلفة واحوال متنوعة . لكنه يعرفه اينما رآه ويقدم له تسابيح حيثما أحست روحه بوجوده . يراه في الزهرة الذاوية والزهرة الناضرة . يراه في حمرة وجنة الفتاة وفي اصفرار وجه الميت . يراه في السماء الزرقاء والسماء المتلبدة بالغيوم . في ضجة النهار وسكينة الليل وبالاختصار ان روح الشاعر تسمع دقات أنباض الحياة وقلبه يردد صداها ولسانه يتكلم «بفضلة قلبه». تتأثر نفسه من مشهد يراه او نغمة يسمعها فتتولد في راسه افكار ترافقه في الحلم واليقظة فتمتلك كل جارحة من جوارحه حتى تصبح حملا يطلب التخلص منه . وهنا يرى نفسه مدفوعاً الى القلم ليفتح مجالا لكل ما يجيش في صدره من الانفعالات وفي راسه من التصورات ولا يستريح تماماً حتى يأتي على آخر قافية فيقف هناك وينظر الى ما سال من بين شفرتي قلمه كما تنظر الام الى الطفل الذي سقط من بين احشائها . امامه فلذة من ذاته وقسم من كيانه.

الشاعر – ونعني به الشاعر لا «النظّام» – لا يأخذ القلم في يده الا مدفوعاً بعامل داخلي لا سلطة له فوقه . فهو عبد من هذا القبيل . لكنه سلطان مطلق عندما يجلس لينحت لاحساساته وافكاره تمثالا من الالفاظ والقوافي لانه يختار منها ما يشاء . فيختار الاحسن اذا كان من المجيدين او ما دون ذلك بالتدريج حسب

قواه الفنية والادبية . اما « النظّام » فيأخذ قلماً وقرطاساً ثم يبدأ بوخز دماغه وقريحته علّه يتمكن من ان يهيجهما ولو قليلا . غايته لا أن يترجم عن عواطف او ان يعبر عن افكار بل ان « ينظم قصيدة » . لذاك اذا خدعنا هذا بطلاوة نسقه فلا يطول ان نكتشف تصنعه وخداعه فننساه وننسى قصيدته . اما الشاعر الذي يسقي قلمه من قلب طافح وروح هائجة فربما لا نفهمه اليوم ولا نهتم به ، لكن لا بد ان نفيق غداً وندرك هفوتنا لأن الجمال - كالشمس - لا يختفي . وحينئذ نسرع لنكفر عن اساءتنا الى ذاك الشاعر ولو بعد موته . فنعلي مقامه ونقيم له التماثيل ان لم يكن على ملتقى الطرق او في ساحات المدن ففي قلوب تختلج عند مطالعة ما جاد به قلمه . هذا ما جرى لشكسبير وكثيرين سواه من كبار الشعراء والكتّاب . لكن شكسبير لم يمت ولن يموت . اما الوف « النظامين » الذين حازوا شهرة وقتية عن غير استحقاق فلا نسمع بهم ولا نذكرهم ، واذا ذكرناهم فعلى سبيل التفكهة فقط .

اكثرنا نولد وفينا ميل فطري الى الشعر . والشباب هو قصيدة الحياة وربيعها ، الذي تنبثق فيه قوى الروح وقوى الجسد من بين اكمام الصبا والذي يحرك فينا هذا الميل فنتوهم اننا شعراء ونبدأ نحلم بشهرة الشعراء العظام .

نأخذ القلم و « ننظم » ونحسب كل قافية يجود علينا بها القاموس

« درة فريدة » . حكاية قديمة كالدهر يقصها عليكم تلاميذ المدارس في كل اقطار الارض لكن هذه القصائد الصبيانية تولدت والموت لها بالمرصاد فلا تتعدى دائرة محصورة من الزمان والمكان . ربما تلاها مؤلفوها على مسمع والديهم او اقاربهم او اصدقائهم . ثم يطرحونها مع بقية تذكارات الصبا وشوق الشباب ، ذاك عند الشعوب التي تميز الشاعر من « الشعرور » . اما عندنا فكل من ظن انه شاعر لا يكاد ينظم اول قصيدة حتى ترى الجرائد والمجلات قد فتحت صدرها لها وأعدت لمؤلفها القابًا تتراوح بين « النابغة » و « الشاعر العصري المجيد » . حتى ان افقر الشعراء عندنا ، اذا لم يكن نابغة فهو على الاقل « شاعر عصري مجيد »

أنا لا ألوم فتى مغروراً بنفسه يظن انه شاعر وليس بشاعر ولذلك ينظم وينظم وينظم . كلنا نحب أن نصور أنفسنا لأنفسنا أرفع وأحسن وأجمل مما نحن في الواقع . وقول اليازجي « كلٌّ يعد نفسه نعم الفتى » كان حقيقة في عهد عاد وثمود ولا يزال حقيقة حتى هذه الساعة وسيبقى حقيقة الى أن يصبح الانسان الهاً . اما « النظامون » — وماذا أقول فيهم بعد ؟ بينهم من لو درس حرفة الخياطة لبرع فيها . وبينهم من لا يجاريه احد في مسح الاحذية . وبينهم من لا نظير له في بيع الفجل والمرطبات وله صوت في تلحين « بورد يا عطشان » ولا تغريد البلبل . وبينهم من لا يُشَقُّ له

غُبار في كتابة الصكوك وتسجيل الحجج و بينهم من هم ولا شك نوابغ في بيع « الكشة » والطرق على الابواب . لكنهم لا يدركون ذلك – وهذه هي مصيبتنا الكبرى فيهم . اذا لمَّحت اليهم بلطف « اعطوا الخبز لخبَّازه . وللخياط قنبازه » يجيبونك انهم قد درسوا ذاك منذ حداثتهم . واذا نصحت لهم كأخ مخلص ان يرحموا ادمغتهم ويستعملوا وقتهم لعمل أنفع من صيد القوافي الشاردة استشاطوا غضباً ودعوك طُفيلياً تتدخَّل فيما لا يَعنيك . وافهموك بلغة لا تحتمل التأويل انهم ينظمون الشعر لانهم يعشقونه، وانهم شعراء ويعرفون انهم شعراء . فما لنا الا أن نقول لهم : «بارك الله لكم بما تملكون وما تنظمون » . اما نحن فعلينا واجب مقدس نقوم به امام انفسنا وامام بنينا و بناتنا . وذاك ان نقدم لانفسنا ولهم غذاء روحياً صالحاً لا فاسداً . وأن نعطيهم من الشعر اجوده لا أقبحه . لذاك نستميحكم عذراً ان ندعو الاشياء باسمائها . ولذاك « لا تؤاخذونا » اذا ميزنا بينكم و بين الشعراء فدعونا ما تكتبونه « صف كلام » وما يكتبونه « شعراً وفناً ! » .

نقيق الضفادع

(مقام اللغة في الادب)

ليس هذا العنوان من مبتكراتي . بل قد سرقته يا سادتي ، من ديوان فريد لشاعر فريد . وشجعني على السرقة أمران : اولهما ان الديوان لم ينشر بعد . وثانيهما ان صاحبه رفيق لي قديم وصديق حميم . أما الديوان فاسمه « الارواح الحائرة » واما ناظمه فاسمه نسيب عريضه . وانصافاً لنفسي ولصاحب « الارواح الحائرة » يجب ان اعرفكم هنا ان وجه الشبه بين قصيدته وهذا المقال يبتدىء بالعنوان وينتهي بالعنوان . فلا قرابة بين ضفادعه وضفادعي سوى من حيث النقيق . هو يحدث عن ضفادع المستنقعات . وأنا احدث عن ضفادع البشرية . ولتعدد اصناف الضفادع البشرية سأحصر حديثي بصنف واحد منها . وذاك الصنف هو ما رأيت أن أدعوه « ضفادع الادب »

لا يتبادرن الى اذهانكم انني دعوتهم كذلك تحقيراً لهم اذ ان من يحتقر الضِفْدَع يحتقر نفسه . فالذي صنع الضفدع صنعه . وليس في جِبِلّة الخلاق تفاوت بالرتب . بل قد كان بامكاني ان ادعوهم « نسور الادب » لو كان للنسور نقيق . غير اني لم أجد

أفضل من النقيق نعتاً للضجة التي يحدثها امثال هؤلاء الناس . لذلك شبهتهم بالضفادع . فموضوعي ، اذن ، يا سادتي . « ضفادع الادب . »

تتنوع ضفادع الادب لا من حيث تركيبها ومداركها واطباعها. بل من حيث اتساع حناجرها وضيقها . ولا تختص باقليم واحد من الاقاليم او بشعب واحد من الشعوب بل تسكن كل الاقاليم وتقلق بنقيقها كل الشعوب على السواء . فقد عرفتها مشارق الارض ومغاربها منذ استوطن الانسان هذه الكرة واتخذ اللغة أداة للافصاح عن افكاره وميوله وعواطفه .

من طبع هذه الضفادع الحرص بكل قواها على المستنقعات التي تجول فيها . حتى انها اذا رأتك تقتلع منها ولو قصبة او تضيف اليها ولو قطرة من الماء الزلال تنتفخ حناجرها ويملأ نقيقها الفضاء . فيخيَّل اليك ان السماء هاوية من فوق والارض هابطة الى أسفل . والكواكب آخذة بعضها بخناق بعض . والله سبحانه يعدو من جانب في الكون الى جانب ضارباً كفاً على كف وصائحاً بلهفة اليائس : « وا حر قلباه ! لقد تهدَّم ما بنته يداى واستحسنته عيناى ! »

لا شك ان اليوم الذي نطق به اول بشري بكلمة « نعم » بدلاً من هز الرأس او الكتفين او اشارة سواهما للايجاب كان

أسود يوم في حياة ضفادع الادب . اذ فيه سقطت اول قنبلة من معسكر العدو في مستنقعهم فهب في الحال زعيمهم الاكبر ووقف فيهم خطيباً وحَنْجَرَته تكاد تمزق من الغيظ : « واق ! واق ! واق . » اما ترجمة هذه الخطبة البليغة فهي :

« ايها الضفادع . ان لغتنا الشريفة لفي خطر كبير . تلك اللغة التي استلمناها نقيَّة من الآباء وقطعنا على انفسنا ميثاقاً ان نسلمها طاهرة الى الابناء والاحفاد قد قام اليوم من يدنِّس طهارتها ، ويمتهن كرامتها ، ويشوّه بلاغتها . عاش اجدادنا واجداد اجدادنا من قبلنا ولم يروَ عن احدهم يوماً انه اجاب الا بهز الرأس . اما اليوم فقد قام واحد اذا سُئل عن امر وأراد الجواب ايجاباً لا يهز رأسه بل يلفظ بلسانه كلمة ثقيلة ، غريبة ، تمجُّها ارواحنا ، ولا تأنس بها آذاننا وتلك الكلمة هي « نعم » . فيا للركاكة ويا للشناعة ويا للكفر ! وارانا اذا غضضنا الطرف عن هذا الدخيل وكلمته الدخيلة ، لفي خطر كبير من انتشار الفوضى في لغتنا الشريفة المحبوبة . فنصبح ولا قواعد للغتنا . لا بل نصبح ولا لغة نتفاهم بها . فالبدار البدار الى جمع ما يلقيه هذا المفسد من البِذَار وحرقه بالنار . »

فصفق الضفادع طويلاً لخطبة زعيمهم الكبير . ودبت الحماسة في كل منهم دبيب النار بالهشيم وصاحوا بصوت واحد « واق ! واق ! واق » وكان معنى صياحهم : « البدار البدار الى جمع ما يلقيه

هذا المفسد من البذار وحرقه بالنار »

لقد قطعت البشرية يا سادتي ، منذ ذاك اليوم حتى اليوم أجيالا لا يحصي عديدها الا الله . كانت لها لغة فأصبحت لها لغات. واللغات التي تعارفت بها ونبذتها على مرور السنين اكثر بكثير من التي يتعارف ويتفاهم بها ابناء المعمور في يومنا هذا . ولكل من اللغات التي نعرفها اليوم تاريخ عجيب في التطور والتكيف . مشت البشرية ومشت معها لغاتها . فلا البشرية اليوم هي نفس البشرية التي كانت منذ قرون . ولا لغاتها هي عين اللغات التي كانت لها قبل هذا العصر . وليس من ينكر ذلك الا اعمى البصر والبصيرة . اما السر في تقلب لغات البشر فليس في اللغات بل في البشر انفسهم . لأن الانسان اوجد اللغة ولم توجد اللغة الانسان . فهي تحيا به لا هو بها . وتتغير بتغير اطواره ولا يتغير بتغير اطوارها . هي آلة في يده وليس آلة في يدها . اما ضفادع الادب فيعكسون هذه الآية ويجعلون الاديب ، او من يدعونه اديباً ، آلة في يد اللغة يتكيف بها ولا يكيفها . فهو عبدها الذليل وهي سيدته المعززة المكرمة . فاذا قام يوماً من اراد ان يدير هذه الآلة بعاطفة في صدره او بفكر في نفسه لا أن يدير عاطفته وفكره بها ، فاستعمل اشتقاقاً ما سبق لغيره استعماله وصاغ كلمة لم ينقلها القاموس عن ألسنة ابناء البادية منذ الوف من السنين ، او تصور مجازاً ما تصوره كاتب او

شاعر من قبله ، قامت عليه في الحال قائمة الضفادع : « واق ! واق ! واق . » ومعناها « ويحك لقد خربت آلتنا الجميلة ! »

مصيبة ضفادع الادب ، يا سادتي ، ان الحياة تسير بهم وهم قعود فيتوهمون ان الحياة قاعدة مثلهم . كما تدور الارض بنا ونحن نيام فنقوم واهمين اننا لا نزال حيث كنا ساعة ألقينا بأنفسنا على الفراش . والحقيقة هي اننا ، بين غفلتنا ويقظتنا قد قطعنا مع الارض مسافات شاسعة .

من اكبر الأوهام التي يؤخذ بها ضفادع الادب وهمهم ان تسيير الادب ، منوط بهم . بل ان أعِنَّة المسكونة كلها في ايديهم وهم المسؤولون عنها . فليس للخلاق في فلسفتهم من مكان . وليس للقوانين التي ربطت بها الحياة اجزاءها من محل من الاعراب في قاموسهم . اما مسؤوليتهم فتنحصر باعتقادهم في ابقاء كل شيء على الحالة التي وجدوه فيها . وقد فاتهم ان الحياة تتم نفسها وهم نيام . وانها اكبر من ان تحصر همها في ما يرغبون او يكرهون . ولو ادركوا هذه الحقيقة ، ولو في الحلم ، لأقلعوا عن النقيق وعرفوا انه لا يجديهم نفعاً ولا يغنيهم فتيلاً .

ان ما تنبذه الحياة ، إن في الادب وإن في اي مظهر آخر من مظاهرها ، تنبذه من نفسها أحبه ضفادع الادب أم لم يحبوه . وما تستنسبه تحتفظ به رضي بذلك ضفادع الادب أم لم يرضوا . ومن

أغرب ما في الكون ان يكون فيه أناس يجهلون ذلك .

لو تبصَّر ضفادع اللغة العربية يوماً تاريخ لغتهم لوجدوا فيه اصدق شاهد على هذا القول . ألا يرون ان اللغة التي نتفاهم بها اليوم في مجلاتنا وجرائدنا ومن على منابرنا هي غير لغة مضر وتميم وحمير وقريش . ؟ ألا يرون انه لو اتيح لاسلافهم تقييدنا منذ الفى سنة لما كان لنا حتى اليوم لغة سوى لغة الحيزبون والدردبيس والطخا والنقاخ والعلطبيس ؟ بل كنا نقول «العسلوج» بدل العصا. « والاسفنظ » بدل المدامة . « والخنشليل » بدل السيف . « والفدوكس » بدل الاسد ؟ وان المتنبي لو نظم قصائده بلغة اصحاب المعلقات لكان ذكراً جميلاً لا قوة حية في آدابنا ؟ وان ابا العلاء لو نظم «غير مُجْدٍ في ملَّتي واعتقادي» بلغة درعايته ورسائله لما كانت لنا « غير مجد » ؟ وان شعراء الأندلس لو تحدوا في نظمهم الجاهليين والمخضرمين لما كانت لنا موشحات الاندلس ؟ اذا كانوا عمياناً عن كل ذلك فدواؤهم في الطب لا في الادب. لأن الغشاء الذي على ابصارهم لا يزيله الا مبضع الجراح . اما قلم الكاتب فليس ليخمشه خمشاً .

قطعت اللغة العربية كل هذه المراحل وتقلبت كل هذه التقلبات وهي لا تزال لغة يتفاهم بواسطتها ملايين البشر . وكلما

خطت خطوة غلت مراجل ضفادعها فقاموا يقلقون الاحيـاء والاموات بضوضائهم « واق ! واق ! واق . »

ان اللغة التي هي مظهر من مظاهر الحياة لا تخضع الا لقوانين الحياة . فهي تنتقي المناسب وتحتفظ من المناسب بالأنسب في كل حالة من حالاتها . وكالشجرة تبدل أغصانها اليابسة بأغصان خضراء واوراقها الميتة باوراق حية . وحين لا يبقى لها في تربتها من غذاء تموت بفروعها وجذورها . ولو تجمهرت كل البشرية لما استطاعت ارجاع الحيـاة اليها . هكذا ماتت البابلية والآشورية والفينيقية والمصرية وكثير سواها . فعلام وقوقة الموقوقين في كل الاقطار العربية ؟ تكاد لا تفتح جريدة او مجلة من جرائد سوريا ومجلاتها الا تجد فيها باباً للوقوقة يدعونه « باب تهذيب الالفاظ » . فالقوم هناك في حرب عوان . ذاك يقول ان تعبير كذا وكذا لا يجوز ويستشهد بالثعالبي . وذاك يقول انه جائز ويستند الى الزمخشري . وهم في حربهم يحسبون ان الحياة بأسرها قد انحصرت في ما ينفون وما يثبتون . وان النجوم وما وراءها قد جمدت في ابراجها مصغية لتقف على نتيجة الجدال فتصفق للفائز وتصفر للمخذول

ولم يعدموا في مصر اخواناً يتوسدون القواميس ويتلون عليها

صلواتهم ويحرقون امامها بخور قلوبهم وزيوت ادمغتهم . وكل غايتهم في الحياة ان يقعوا في قصيدة او مقالة على كلمة او تركيب لم تألفهما اذواقهم ولا رضيت عنهما قواميسهم . واذ ذاك يسمعونك نغمتهم العذبة : « واق ! واق ! واق . »

اذكر انني قرأت انتقاداً من كاتب مصري لقصيدة جبران خليل جبران « المواكب » وقد عثر فيها الناقد على هذا البيت :

هل تحممت بعطر وتنشفت بنور

فأثبته ووضع بعد كلمة « تحممت » كلمة « كذا » وبعدها علامة استفهام . وان شئت فقل علامة استغراب . كأن الناقد يقول للقارىء « انظر . هو يقول « تحممت » وليس في اللغة كلمة « تحمم » بل « استحم » فيا للجريمة »

سألتكم ، يا سادتي ، باسم العدل والفهم والقاموس . لماذا جاز لبدوي لا أعرفه ولا تعرفونه ان يدخل على لغتكم كلمة « استحم » ولا يجوز لشاعر اعرفه وتعرفونه ان يجعلها « تحمم » ؟ وانتم تفهمون قصده بل تفهمون « تحمم » قبل ان تفهموا «استحم»؟ وما هي الشريعة السرمدية التي تربط ألسنتكم بلسان اعرابي عاش قبلكم بالوف السنين ولا تربطها بلسان شاعر معاصر لكم ؟ تقولون « ولو اجزنا لكل كاتب وشاعر ان يتصرف باشتقاقات اللغة كما شاء لما بقيت لنا لغة . » فأجيبكم انه لو صح ذلك لما كان لكم من

لغة الآن لأن الذين كتبوا او نظموا او الذين يكتبون وينظمون بلغتكم ويهفون ضد قاعدة صرفية او نحوية من قواعدها هم اضعاف اضعاف الذين كتبوا او نظموا ولم يهفوا . بل ليس من كتب او نظم بالعربية الا ارتكب بدل الهفوة هفوات . هل نسيتم انتقادات المرحوم ابراهيم اليازجي اللغوية ؟ ألم يعب اشياء كثيرة على اكبر اساطين اللغة ؟ او لم يكن له من عاب عليه اشياء كثيرة ؟ ولغتنا ، مع ذلك ، لا تزال حية ولم تعبث بدولتها الفوضى .

امامكم كلمتان : « استحم » وهي قاموسية . و « تحمم » وهي غير قاموسية . ألا ترون انكم اذا أعرضتم عن الثانية تضمحل من تلقاء نفسها ؟ واذا اقبلتم عليها تصبح جزءاً من لغتكم وتضمحل الاولى ؟ وفي الحالتين تجرون باختياركم حسب سنن طبيعية ليس لي ولا لكم فوقها أقل سلطة

ان شأننا مع ضفادع الادب لشأن والله غريب عجيب يطالعون ما نكتب فيقولون : « نعمّا الافكار ونعمّا العواطف . ونعمّا الاسلوب . لكن ..... اللغة » كأننا في ما نكتب او ننظم نلقي عليهم دروساً في اللغة . وكأن لا همّ لنا من النظم الا ان نتحاشى الخطف والاشباع واستعمال « تحمم » بدلاً من « استحم » .

في الادب العربي اليوم فكرتان تتصارعان . فكرة تحصر غاية الادب في اللغة . وفكرة تحصر غاية اللغة في الادب . وجليّ ان

نقطة الخلاف هي الادب نفسه او القصد منه. فذوو الفكرة الاولى لا يرون للادب من قصد الا ان يكون معرضاً لغوياً يعرضون فيه على القارىء كل ما وعوه من صرف اللغة ونحوها ، وبيانها وعروضها ، وقواعدها وجوازاتها ، ومتناقضاتها ومترادفاتها ، وحكمها وامثالها . فشاعرهم من اذا نظم لم يخل بتفعيل ولم يتعد الروي الواحد . ولم يختر من المفردات غير ما يشكل فهمه الا على الذين قضوا حياتهم في درس اللغة دون سواها . واذا أبدى عناية خاصة بصقل ابياته ، وتنسيق قوافيه ، واكثر من الاستعارات البالية والمجازات المألوفة ، والتشابيه العوجاء ، والتوريات الخرقاء ، فهو امير الشعر بلا مراء .

وكاتبهم من اذا كتب في « الحسد واضراره في الهيئة الاجتماعية » سالت من قلمه الكلمات الواحدة تلو الاخرى فتألفت من الكلمات عبارات . ومن العبارات مقاطع ومن المقاطع صفحات . ومن الصفحات مجلدات . وكلها رجراجة براقة . لا مأخذ فيها لسيبويه ولا وللكسائي او لابن مالك . كل همزة فيها حيث يجب ان تكون . افعالها المتعدية متعدية بنفسها . واللازمة متعدية بما رتب لها النحاة من احرف الجر لا بسواها . وبالاجمال ، لا شائبة تشوبها سوى انك تأتي على آخرها سائلاً نفسك « ما هو الحسد وما هي اضراره في الهيئة الاجتماعية ؟ » .

وخطيبهم من اذا اعتلى المنبر تدفق من فيه صحيح الكلام وأنيقه فملأ اذنيك . واشبع عينيك . وترك قلبك مقفلاً وعقلك حائراً سائلا . « ماذا تراه قال ؟ » .

جملة القول ان اصحاب الفكرة الاولى ينظرون دائماً ابداً لا إلى ما قيل بل الى كيف قيل . واول سؤال يوجهونه الى اثر ادبي هو . « هل هو صحيح اللغة ومتينها ؟ » فاذا كان كذلك فهو بنظرهم ادب . اما اذا عثروا فيه على تاء طويلة بدل القصيرة . والف ممدودة بدل المقصورة . وهمزة كرسيها الياء بدلا من الالف . وفعل متعد ب « الى » بدلا من « على » . فهو ليس من الادب بشيء . واذا طالعوه وفهموه من اوله الى آخره دون ان يلجأوا الى القاموس فهو « ركيك » والركاكة عندهم هي ان يستعمل كاتب « فقط » بدلا من « فحسب » . و « الوسط » بدل « البيئة » و « الخادم » بدل « الماهن » و « الاسد » بدل « الهزبر » و « الخوان » بدل « المائدة » وما اشبه

اما انصار الفكرة الثانية الذين يحصرون غاية اللغة في الادب فهم ينظرون قبل كل شيء الى ما قيل ومن ثم الى كيف قيل . لانهم يرون في الادب معرض افكار وعواطف ، معرض نفوس حساسة تسطر ما ينتابها من عوامل الوجود وقلوب حية تنثر او تنظم نبضات الحياة فيها ، لا معرض قواعد صرفية نحوية .

وكشا كيل عَروضية بيانية . فالفكر ، في دينهم ، أهم من لغة المفكر . لانه صادر من بحر الوجود الذي ليست الارض وكل من عليها من الشعوب سوى قطرة منه . اما اللغة فمهما اتسع نطاقها وامتد نفوذها لا تتعدى قسما صغيراً من البشرية . بل مهما عز مقامها لا تتجاوز كونها لباساً للفكر . واكثر ما يرتجى منها ان تكون لباساً جميلا . غير انها ان لم تكن سوى اسمال بالية على فكر جليل قد تحط من قدر ذاك الفكر نوعاً ولكنها لا تذهب بقوته .

ربّ ألثغ يبدي لك بعد الوأوأة الطويلة نظرة تقلب نهار حياتك ليلا او ليل حياتك نهاراً . فهل تصب عليه لعنات الارض والسماء . وتستسقط على رأسه كل نيران الجحيم لانه لم يبد لك نظرته بلغة معربة ، متينة ، طلية ، متدفقة ؟

الفكر كائن قبل اللغة ، والعاطفة قبل الفكر . فهما الجوهر وهي القشور . ومن تعس البشرية ان تفقد مقدرة قراءة الافكار والعواطف كما تنبت وتنمو في الارواح لا كما ينطق بها اللسان . وان تراها في حاجة الى اشارات وعلامات مختلفة تصطلح عليها رموزاً لأفكارها وعواطفها . لان تلك الاشارات والعلامات ، مهما دقت ، ليست لتأتي الا بأشباح ضئيلة ، مبهمة ، من عالم الفكر المطلق والعاطفة الحرة . ولم تعرف الانسانية بعد في كل تاريخها من تيسر

له أن يسكب كل فكره ، او يجسم كل عاطفته ، في كلام او خطوط أو ألوان أو ألحان . لذاك فهي ابداً تقرأ بين السطور . وما تقرأه بين السطور هو أفصح وأبلغ ، واعمق واوسع ، مما تقرأه في السطور . وذاك لانها تدرك بالفطرة انه يستحيل على بشري كائناً من كان — شاعراً أم كاتباً ، رساماً أم نحاتاً ، مهندساً أم ملحناً ، — تأدية فكر أو عاطفة بكل ما فيهما من تجعّد وتلوّن .

ليس الشاعر ، يا سادتي ، من يخلق عواطف ويولد افكاراً . فليس من يخلق شيئاً من لا شيء الا الله . انما الشاعر من يمد اصابع وحيه الخفية الى اغشية قلوبكم وافكاركم فيرفع جانباً منها ويحول كل أبصاركم الى ما انطوى تحتها . فتبصرون هناك عواطف وتعثرون على افكار . ولأول وهلة تحسبونها افكار الشاعر وعواطفه . ولكنها في الحقيقة عواطفكم وافكاركم لم يكتشفها الشاعر ولا ابتدعها . ولا ايقظها . لكنه رفع جانباً من الستار عنها وصوب كل ابصاركم اليها . ثم تركتكم واياها تستجلون ألوانها وتتفحصون معانيها .

لقد تطالعون ، يا سادتي ، قصيدة واحدة لشاعر واحد . فيثمل بها الاول . ويترنح بها الثاني . ويطرب لها الثالث . ولا يحفل بها الرابع . فعلام هذا التفاوت في تأثير تلك القصيدة عليكم والابيات التي قرأها الاول منكم هي نفس الابيات التي قرأها الرابع

بحروفها ؟ أليس ذلك لأن الاول قرأ بين السطور اكثر مما قرأه الثاني . والثاني اكثر من الثالث . والثالث اكثر من الرابع ؟ وكلهم لم يقرأ غير ما في نفسه وما لم يفصح الشاعر عنه بل رمز اليه رمزاً .

أجل . انه لمن تعس البشرية ان تراها مضطرة الى استعمال الرموز للافصاح عن عوامل الحياة فيها . لان الرمز في احسن مظاهره وادقها ليس سوى خيال ممسوخ لما يرمز اليه . ومن تعس الأدب أن تكون له ضفادع لا تدرك ان اللغة ليست سوى مستودع رموز . وان الرموز اللغوية ليست الوحيدة التي توصلت اليها البشرية في سعيها وراء وسائل تفصح بها عن عوامل الحياة فيها . فنضوة يطرقها الحداد . وصندوق يصنعه النجار . وجدار يشيده البناء . وعباءة يحوكها الحائك . وصورة يمد خطوطها ويبسط الوانها الرسام ، وتمثال ينحته النحات . ولحن يغنيه المغني أو يوقعه الموسيقي — كل هذه ، يا سادتي ، ليست سوى رموز فكرية قلبية . فهل بينكم من اذا حاك له حائك عباءة من الصوف يرميه بالكفر والتمرد والعصيان اذا رآه يحوك بعدها عباءة من حرير وعلى غير النول الذي حاك عليه عباءة الصوف ؟

أم هل بينكم من اذا رأى النحوت اليونانية بكل ما فيها من دقة التفصيل والتخطيط يعرض عن نحوت « رودين » لان ليس فيها دقة في التفصيل والتخطيط بل افكار بارزة في الحجر ،

تكلمك وهي خرساء ؟ تقولون : حاشا وكلا ! أفلا قلتم كذلك لمن يجعلون من اللغة رمزاً مقدساً ، لا يتحور ، ولا يتبدل ، ولا يتغير ؟

لا قيمة للرمز في ذاته . انما قيمته مكتسبة مما يرمز اليه . لذاك فلا قيمة للغة في نفسها . بل قيمتها في ما ترمز اليه من فكر ومن عاطفة . غير انها ما دامت رمزاً من الرموز التي تساعدنا على مبادلة الافكار والعواطف فهي حَرية باعتنائنا لا حباً بها . بل غيرة على الغاية الكبيرة التي نستعملها من اجلها . لكن حرصنا على اللغة لا يجب ان ينسينا القصد من اللغة . فجميل بنا ان نصرف همنا الى تهذيبها ، وتنسيقها لنكسبها دقة ورقة . انما قبيح بنا ان ننسى أو نتناسى كونها رمزاً الى ما هو اكبر وأجل منها بمراحل . وأقبح من من ذلك ان نحسبها وافية كاملة ، وليس لمستزيد في دقتها زيادة . لاننا اذا نظرنا اليها هذه النظرة نعكس الآية . فنجعل افكارنا رموزاً . وكلامنا المرموز اليه . بل نكون كالمعترفين جهاراً بافلاسهم الروحي . لان قولنا بكمال اللغة العربية كما هي اليوم يعني اقرارنا بأن الاعراب الذين تحدَّرت عنهم هذه اللغة الشريفة والنحاة الذين قيدوها بقواعد منذ الفي سنة كانوا أنبياء البيان . بل آلهة البيان . واننا ، لخسة جبلّتنا ، وفقر قلوبنا وافكارنا ، يستحيل علينا ان نضيف الى ما رتبوه ، أو أن نسقط أو نغير منه حرفاً ! فما لنا والحالة هذه الا أن نكسر اقلامنا ، ونحطم محابرنا ، ونكف عن الكتابة

راضين بما عندنا من لغة وبما للغتنا من قواعد . ولا عبرة في ما نراه من حولنا من تطور سائر اللغات البشرية على الاطلاق . . .

قصارى الكلام ، يا سادتي ، ان القصد من الادب هو الافصاح عن عوامل الحياة كما تنتابنا من افكار وعواطف . وان اللغة ليست سوى وسيلة من وسائل كثيرة اهتدت اليها البشرية للافصاح عن افكارها وعواطفها . وان للافكار والعواطف كياناً مستقلاً ليس للغة . فهي اولا واللغة ثانياً . وان كل القواميس وكتب الصرف والنحو في العالم لم تحدث يوماً ثورة ولا اوجدت يوماً امة . لكن الفكر والعاطفة يجددان العالم في كل يوم . وان اللغة في أدق تراكيبها ليست سوى مستودع رموز نرمز بها الى افكارنا وعواطفنا . وانه يحسن بنا الاحتفاظ بهذه الرموز ما زلنا قاصرين عن استبدالها بأدق منها . وان بعض هذه الرموز يصبح على مرور الايام طلاسم . فالأجدر نبذه . وان الشعراء والكتاب هم واضعو هذه الرموز وهم اولياؤها . وانه اذا غير شاعر او كاتب رمزاً من رموزكم المألوفة او جاءكم برمز جديد فليس في ذلك ما يدعو الى القلق والخوف . لانكم اذا احببتم الرمز الجديد ستحتفظون به، رضي النحاة أم سخطوا ، واذا اعرضتم عنه سيتلاشى من تلقاء نفسه . وأن للادب ضفادع لن يدركوا هذه الحقائق ما زالت الالف الفاً والياء ياء . وان لهذه الضفادع مسالك في درسها تسلية

وعبرة . ورجائي ان أكون ، على الاقل ، سليتكم . وانكم اذا سمعتم بعد اليوم « واق ! واق ! واق . » لا تحفلون بتلك الضجة ولا تحسبون السماء هاوية على الارض . فمن طبيعة الضفادع النقيق . ومن طبيعة الحياة الامتثال لقوى لا تدركها الضفادع ولا تحلم بها .

ان طول مقالي ، يا سادتي ، لبرهان لكم ولي على نقص اللغة البشرية كأداة للافصاح عما يجول في النفس . فما كان اغناني عن هذه العبارات المتراكمة بعضها فوق بعض وما كان أغناني عن اجهاد اناملي في تحبيرها وعقلي في ترتيبها لو كان لي ان اوصل اليكم فكري بدونها . فهي ، مع وفرتها ، ليست سوى رموز لما شئت أن اقول . فعليكم ان تحلوا الرموز . وعليكم ان تقرأوا بين السطور . فويل لكاتب لا يقرأ الناس بين سطوره سطوراً . وويل لقارىء لا يقرأ من الكلام الا حروفه .

الزحافات والعلل

(الشعر والعَروض)

دع همومك التجارية ، والسياسية ، والعائلية يا اخي وتابط جراب صبرك واتبعني . تسألني الى اين ؟ — ولنفرض الى جهنم ! أوَ ليست جهنم خيراً من عالم يصابحنا بالقال والقيل ، ويعاشينا بالقيل والقال ؟ وما قيله الا هبوط اسعار وارتفاع اسعار . وما قاله الا انتصار سياسة واخفاق سياسة . فتأبط جراب صبرك واتبعني ، ولا تسل الى اين . قد اسلك بك طريقا وعرا . وقد ادخل بك أجَمَة ملتفة الادغال . وقد اريك طرف مرج فسيح . وقد اعود بك من حيث انطلقت كانك لا رحت ولا جئت . فتمسك بجراب صبرك . فالصبر خير سلاح للمؤمنين . ولنمش !

هل سمعت في حياتك يا اخي برجل يدعى ابا عبد الرحمن الخليل بن احمد البصري الازدي الفراهيدي ؟ لا ؟ اذن فاعلم وقاك الله ان ابا عبد الرحمن (تغمده الله برحمته ورضوانه) ولد في سنة مائة للهجرة وتُوفي عن خمسة وسبعين عاما قضاها بالبر والتعبد والتقوى — ووضع علم العروض

والعروض — رعاك الله — « علم باصول يعرف بها صحيح أوزان الشعر العربي وفاسدها وما يطرأ عليها من الزحافات والعلل »

و « الزحافات والعلل » أوبئة تنزل باوزان الشعر العربي فتحرك ساكنا ، او تسكن متحركا . وتقضم حرفا هنا ، ومقطعا هناك . وقد عنى بها الخليل عناية خاصة . فاعطى لكل منها اسما ورتبها في ابواب وفصول هي اكثر عدا من خطاياي

هذا هو ابو عبد الرحمن ياصاحبي . فلنقدس ذكره . ولنجل مقامه . فلولاه لكنا بلا زحافات وعلل . وكيف تكتمل لنا السعادة بدون زحافات وعلل ؟ ولولاه لما كان لنا علم العروض الذي « يعرف به صحيح اوزان الشعر العربي وفاسدها » وانى لنا ان نميز بين ما هو شعر وما ليس شعواً ما لم نعرف صحيح الاوزان من فاسدها ؟

لقد مات الخليل يا أخي . ومنذ مات الخليل حتى اليوم ونحن منغمسون في درس الخبن والخبل . والترفيل والتذييل والنقص والوقص . والقطف والكسف . والخرم والثلم . والقصر والبتر . الى ما هنالك من علل زاحفة وزحافات معتلة . الى ان ملكنا باذن الله ناصية علم العروض واصبحنا بمنة الخليل نميز بين « صحيح اوزان الشعر العربي وفاسدها »

اما اننا في جدنا وراء ناصية العروض قد افلتت من يدنا ناصية الشعر . واننا في جهدنا وراء التمييز بين صحيح اوزان الشعر وفاسدها

قد نسينا الفرق بين ما هو شعر وما ليس شعرا ، فما ذاك بالامر الخطير ! فالمهم المهم ان نعرف اذا ما نظمنا بيتاً اننا لم نجز لانفسنا ما لم يجزه الخليل واننا لم نهتك حرمة قاعدة . ولم نخل بحرف من ناموس . ولم نتجاوز حد تقليد شريف او طقس مقدس . فاتكلنا على الله ورحنا ننظم القصائد

ومن حسنات علم العروض يا رفيقي انه كثير البحور . ولكل بحر من بحوره قوارب يتعذر عليك ركوبه الا بها ولكل من تلك القوارب مقاذيف لاتدار إلا بها ولكل من تلك المقاذيف حلقات وحنيات ومماسك لا يعرفها الا غزير الخبرة وطويل الاناة . لذاك فالملاحة في هذه البحور تقتضي اقتحام الاخطار والمجازفة بالحياة . ولذاك قد حذرنا العاقلون من الاقدام عليها اذ قالوا :

الشعر صعب وطويل سلمه اذا ارتقى فيه الذي لا يعلمه
زلت به الى الحضيض قدمه يريد ان يعربه فيعجمه

غير ان ابناء الضاد ليسوا ممن يهابون المخاطر . ولا ممن يؤثرون الحياة على الشرف . فكلما تراكمت تلك العقبات في سبيلهم كلما ازدادت عزائمهم مضاء . وكلما عز الحصول على شرف اثيل كلما هانت لديهم الارواح . فما كان منهم الا ان هجموا على تلك البحور فلجموا امواجها وامتطوها وراحوا بين شواطئها يهزجون . نعم هوى بعضهم الى القاع فطمست اثاره . ولكن اكثرهم طاف جميع البحور

وعاد سالمـا معافى —

ومن ميزات الذين يخوضون بحور الشعر يا اخي ويعودون سالمين انهم يكتسبون حنواً خارقا على الانسانية باسرها ، لا سيما علينا نحن ابناء اليابسة فلا يعودون الينا فارغي اليد (وان عادوا فارغي الراس والقلب) بل يتبارون الى مشاطرتنا كل ما اكتشفوه وعرفوه بشأن الملاحة في البحور الشعرية . فيقدمون الينـا ذلك لا نُتفاً نُتَفـاً بل يجمعونه بين دفتي كتاب يدعونه « ديوانا » ويرفعونه الينا ليرفعونا به اليهم

فلنمجد الملاحين يا اخي — اولئك الذين يحسنون الملاحة في بحور الشعر . والذين يرتقون في سلمه فلا تزل بهم قدم اذ لا يعجمون معربة ولا يعربون معجمة ! لنمجد العروض وابناء العروض !

هل اعتراك يا اخي الملل ؟ فعليك بجراب صبرك . اذ اننا في مسلك وعر . وان شاء ربك سنقطعه سالمين

تسألني ما اذا كنت اتهكم او أعني ما اقول ؟ لا وتربة الخليل لست متهكما . فلعروض الخليل فضل عليّ كبير . ولاصحابنا الملاحين فضل اكبر . اقول ان لهم فضلا اكبر لان الخليل يوم جمع ما كان في زمانه من اوزان الشعر وبوّبها وحدد ما « يطرأ عليها من الزحافات والعلل » لم يقصد سوى الخير ولم يتوخ الا خدمة لغـة عزيزة عليه . اما الذين جاءوا بعد الخليل فتقيدوا بزحافاته وعلله الفاً

ومائتي سنة فاياهم اسدي جزيل شكري . لانهم بمباراتهم في معرفة « صحيح اوزان الشعر وفاسدهـا » قـد اتقنوا الاوزان واهملوا الشعر . وباهمالهم الشعر نبهوني اليه . وقد ينبهنا عدم وجود الشيء الى الشيء اسرع مما ينبهنا اليه وجوده .

لنقف يا اخي بتخشع امام شبح من قال

« وشبيـه صوت النعيّ اذ قيـ س بصوت البشير في كل نادي »

ولنجث امام ضريح من شرب « على ذكر الحبيب مدامة »

فسكر بها « من قبل ان يُخلق الكرم »

ولنجل النار التي كانت تتأجج في صدر من نظر الاعمى الى ادبه وأسمعت كلماته من به صمم

فهولاء وقليل ممن راودت أرواحهم احلام من عالم أعلى لجبابرة وان تقيدوا بقيود الخليل . فهم اكبر منه ومن عروضه . فلنمر من أمامهم صامتين . ولنتابع السير الى حيث الدواوين الحافلة بصحيح اوزان الشعر ، الناطقة بالف لسان بفضل الخليل ، المرددة بالف قافية شكر الزحافات والعلل ، الناظرة بالف عين لا الى جمال الحياة بل الى جمال الالفاظ والمقاطع ، المصغية بالف اذن لا الى نبضات القلوب وخطرات الافكار بل الى يد تصفق استحسانا ولسان يثرثر بالمديح . ان هذه الدواوين يا اخي لافصح ما كتب في الشعر وعنه . لانها محشوة بما ليس شعرا . لذلك كلما بلاك الله بواحد منها تتوق

نفسك الى نقيضه . اي تتوق الى الشعر . ولذاك قلت انها أفصح ما كتب في الشعر وعنه

مهلا يا أخي ولا تكن لجوجا . ولا تسلني ان احدد لك الشعر . فالشعر غير محدود . ولا يحيط بـه ادراكا الا أصحاب دواوينا المكرمون . فقد قام بينهم حديثا جهبذ جمع في مقالة واحدة ١٧٧ تعريفا للشعر عن ألسنة كثيرة — من ابن خلدون الى ميخائيل رستم ! ومن ارسطوطاليس الى جورج ساند — فعليك بديوانه

اما انا فلا اطلاعي واسع لهذا الحد . ولا صبري طويل بهذا المقدار . فلنعدل عن تحديد الشعر وتعريفه . وذاك لا يمنعنا عن ان نتكلم في الشعر . فتعال نتبادل الخواطر والنظرات

هل ضحكت يا اخي في حياتك وهل بكيت ؟ هل ساورت افكارك شكوك ، ام سرحت في صدرك امال ، ام عصرت قلبك خيبة ، ام مزق نفسك الم ؟ هل طرقت اذنك نغمة فطربت بها روحك ، ام رأت عينك مشهدا فاهتز له كيانك ؟ اذن لاشك تفهمني لو سكبت امامك دموعي . وكشفت لك صدري . وحدثتك عن آلامي وآمالي . ووصفت لك نغمة اطربتني او مشهداً هزني . وانا بدوري افهمك . وكلانا يفهم الغير

ولو كان لك من سبيل الى ترجمة عواطفك وافكارك بالصينية

أو الهندية او اليابانية او الالمانية لفهمك الصيني والهندي والياباني والالماني كذلك . فما هو السر في ذلك ؟ ما السر في ان روحك وهي في دمشق او القاهرة تستطيع ان توصل اناتها وتهاليلها الى روح في اقاصي شمال الارض وجنوبها او شرقها وغربها ؟

السر ياصاحبي في ان نفسك ونفسي ونفس بطرس واحمد — كلها تستقي من مورد واحد . وذاك المورد هو الحياة . وان شئت فقل النفس الجامعة او الله . فالحياة وان تعددت مظاهرها وتنوعت ازياؤها ، هي هي . وجوهرها واحد لا يتغير . غير ان ما نستقيه من هذا المورد يتنوع بمقدار الظمإ الداخلي فينا . فبعضنا اذا ما شرب من المرارة غب غب الجمال . بينا يمتصها الاخر مص العليل للدواء . وبعضنا اذا ما هزته نغمة رفعته الى الجو . بينا يسمعها الاخر فينتفض قليلا « كالدوري » ويعود يبحث في الروث عن شعيرة يلتقطها

ان الحياة يا صاحبي تعرض مشاهدها عليَّ وعليك . لكنك قد ترى مشهدا لا اراه انا وان اكن مفتَّح العينين . بل قد انظر وإيَّاك الى مشهد واحد فترى فيه اشياء لا اراها وتسمع ما لا اسمعه . هكذا قد امرُّ بدودة تدب على الارض فادوسها او احوّل وجهي عنها وامشي في سبيلي . وتمر بها انت فتقف مراقبا حركاتها . ثم ترفعها بيدك وتدرسها مليا ثم تضعها من يدك وتنطلق وفي راسك قد تجمهرت اشباح وامام عينيك قد مشت رسوم ، وفي اذنيك قد

دوت اصوات . ولا يعتم ان تنتظم تلك الاشباح وتندمج تلك الرسوم وتتآلف تلك الاصوات في قصيدة او مقالة اطالعها انا فاشعر كأن اشباحها تجمهرت في رأسي ورسومها مشت امام عيني واصواتها رنت في اذني . لقد مررت وإياك في مثل هذه الحالة بمورد من موارد الحياة . فشربتُ منه قطرة حيث شربتَ قطرات وفيّ من الظمإ ما فيك . غير اني ما كنت اشعر بظمإي الى ان سمعتك تصف لي ظمأك وكيف ارتويت

انا وانت غريبان نحنُّ الى وطن واحد . وفيّ ما فيك من الحنين . غير ان حنيني ابكم اصم . وحنينك ناطق ومجنح لذاك اذا سمعت حنينك متكلما تحرك حنيني وتكلم . لانه قد وجد في حنينك لسانا له

انا وانت حائران في امور كثيرة . وحيرتي قد تغلغلت بين افكاري وتمددت حتى لم اعد اعرف في ما انا حائر . لكن حيرتك نصب عينيك فاذا ما صورتها لي تصورت امامي حيرتي

تسألني — وما القصد من هذه الامثال كلها ؟ ان قصدي يا صاحبي ان اقول — بأن عواطفنا وافكارنا مشتركة لان مصدرها واحد وهو النفس

وان في الواحد منا ما في الاخر من العواطف والأفكار لكنها قد تكون مستيقظة في بعضنا ، غافلة في الآخر . وان هذه العواطف

والافكار ، وان استيقظت في بعضنا ، قد تكون خرساء . وانها في بعضنا مستيقظة وناطقة .وان العواطف والافكار اذا ما استيقظت ونطقت بنفسها بعبارة جميلة التركيب موسيقية الرنة كان ما تنطق به شعرا وان من استيقظت عواطفه وافكاره وتمكن من ان يلفظها بعبارة جميلة التركيب موسيقية الرنة كان شاعرا

واذ ان العواطف والافكار هي كل ما نعرفه من مظاهر النفس فالشعر اذن هو لغة النفس

والشاعر هو ترجمان النفس

هذا ما أعرفه يا اخي عن الشعر والشاعر فلنعد الى الزحافات والعلل

لقد وضع الناس للشعر اوزانا مثلما وضعوا طقوسا للصلاة والعبادة . فكما انهم يتانقون في زخرفة معابدهم لتأتي « لائقة » بجبروت معبودهم ، هكذا يتأنقون في تركيب لغة النفس لتأتي « لائقة » بالنفس . وكما ان الله لا يحفل بالمعابد وزخرفتها بل بالصلاة الخارجة من اعماق القلب ، هكذا النفس لا تحفل بالاوزان والقوافي بل بدقة ترجمة عواطفها وافكارها

اتذكر يا اخي قول الناصري — «حيثما اجتمع اثنان او ثلاثة باسمي هناك اكون في وسطهم » ؟ لم يحدد ابن مريم مكانا معلوما لعبادته . فقد يجتمع اثنان باسمه على رأس جبل او في جوف وادٍ

او على ظهر باخرة او في قهوة او في منجم للفحم . ويكون هو بينهم . والشعر يقول — حيثما تفاهمت نفسان او ثلاث باسمي هناك اكون في وسطهن

فلا الاوزان ولا القوافي من ضرورة الشعر كما ان المعابد والطقوس ليست من ضرورة الصلاة والعبادة . فرب عبارة منثورة ، جميلة التنسيق ، موسيقية الرنة كان فيها من الشعر اكثر مما في قصيدة من مائة بيت بمائة قافية . ورب صلاة خارجة من قلب منكسر فوق رمال الصحراء ادركت غايتها ، وذهبت كصرخة في واد صلوات خارجة من مئات من الافواه بين مئات من القناديل والشموع تحت سقوف مرصعة وقبب مزركشة

غير ان القصد الاولي من طقوس العبادة لم يكن الا شريفا لاعتقاد الناس ان الله لايجيب صلاة الا اذا ارتفعت اليه مع دخان محرقة : ولا يقبل محرقة الا اذا تقدمت اليه بطريقة معلومة وبعبارات منتخبة . وكذلك القصد من اوزان الشعر . فقد رأى الاقدمون ان الشعر ، وهو لغة النفس ، لا يليق بها ما لم يكن مقيدا باوزان . اذ وجدوا ان الاوزان تساعد على تنسيق الجمل وتوازنها . وفي التوازن سر من اسرار الجمال

ان طقوس العبادة على اختلاف انواعها جميلة لمن يفهم سر رموزها . وليس من طقس الا يرمز الى فكر . لكن من طبيعة

الجمهور ان ينظر الى ظواهر الامور كما لو كانت هي جواهر الامور . فالجمهور لا يفكر . بل يقبل الاشياء كما هي . لذلك فالرموز تحل عنده محل ما ترمز اليه . ولذلك ترى الديانات اصبحت مجموعة طقوس وعوائد . فالذي تمكن من حفظ كل تلك الطقوس والتقاليد تأهل لان يكون كاهنا او شيخا او قسيسا .

ولو نظرت الان يا صاحبي الى اوزان الشعر وجدت ان حكايتنا معها هي حكايتنا مع طقوس العبادة . ان القصد الأساسي من الوزن هو التناسق والتوازن في التعبير عن العواطف والافكار . ولا شك ان الاوزان نشأت نشوءاً طبيعيا . وكان سبب ظهورها ميل الشاعر الى تلحين عواطفه وافكاره . والكلام المتوازن المقاطع اسهل للتلحين من الكلام الذي لا توازن بين مقاطعه من حيث الطول والقصر لذاك لحق الوزن بالشعر ونما معه نموا طبيعياً . فكان يتكيف بالشعر ولا يتكيف الشعر به . هكذا نما الشعر العربي ونمت اوزانه . وما زال الوزن لاحقا والشعر سابقا الى ان قيض الله لابي عبد الرحمن ان جمع كل ما توصل اليه من الاوزان فبوّ بها وحددها وجعل لكل منها قواعد ولكل قاعدة جوازات وللجوازات جوازات الخ

منذ ذاك الحين يا اخي اخذ الوزن يتغلب رويدا رويدا على الشعر الى ان اصبح الشعر لاحقا والوزن سابقا . واصبح كل من قدر ان يتغلب على عروض الخليل بأوزانها وزحافاتها وعللها اهلا

لأن يدعى شاعرا . وذاك راجع الى ما قلته عن طقوس العبادة بان الجمهور من طبيعته ان ينظر الى ظواهر الامور كما لو كانت هي جواهر الامور

لو نظرت يا اخي الى ما جمعناه منـذ نيّف والف سنة لوجدته — مع استثناء قليل منه — معرضا للابحر الشعرية بين طويلها و بسيطها وكاملها وخفيفها الخ مع ما « يطرأ عليها من الزحافات والعلل »

لا تضحك . فالموقف موقف بكاء لا ضحك . أمن المضحكات ان ندفن الف سنة من حياتنا الادبية بالزحافات والعلل ؟

العروض لم تسيء الى شعرنا فقط بل قد اساءت الى ادبنا بنوع عام . فبتقديمها الوزن على الشعر قـد جعلت الشعر في نظر الجمهور صناعـة اذا احاط الطالب بكل تفاصيلها اصبح شاعرا . واذ ان للشاعر منـذ بدء التاريخ مقامـا رفيعا بين قومه اصبح كل طالب شهرة يلجأ الى العروض كإلى اقرب الموارد . وبـذاك انصرفت اكثر مواهبنا الى قرض الشعر فافقنا اليوم ولا روايات عندنا ولا مسارح ولا علوم ولا اكتشافات ولا اختراعات . ولا شـك ان كثيرين ممن انصرفوا الى النظم حبا بالشهرة لو انصرفوا الى غيره من ابواب الكتابة والدرس لجاؤوا معاصريهم وجاؤونا بنفع كبير . ناهيك عن ان درس علم العروض يستغرق وقتا طويلا . فقل معي — وآلهف قلباه على عقول احداث لا تزال تصارع العروض على مقاعد المدرسة !

لقد بلغ منا الولع بالعروض درجة اصبحنا معها لا ننطق الا شعرا (واعني نظما) . حتى قواعد نحونا أبينا ان نلقنها لاحداثنا الا منظومة ! هاك الفية ابن مالك وهاك « نار القرى » بل قد نظمنا الحساب والجبر والجغرافية والطب والفلك . ولم لا ؟

واصبحنا نتراسل نظما ، ونتصافح نظما ، ونشرب الخمر نظما ، ونأكل الكبة نظما ، ونعمّد اولادنا نظما ، ونزوجهم نظما ، ونستقبل اصدقاءنا نظما ، ونودعهم نظما ، ونهنئهم بعيد أو بمركز او بمولود نظما الى ان لم يبق في حياتنا ما ليس منظوما سوى عواطفنا وافكارنا ! وعندما دانت لنا العروض وأتتنا زحافاتها وعللها صاغرة رحنا نكتشف طرقا جديدة نظهر بها مقدرتنا « النظمية » فاهتدينا الى التواريخ الشعرية . فصرنا اذا مات صديقنا « حاتم منصور » — لا نكتفي بأن نشق عليه الجيوب . ونستمطر السحب . ونقرّح المآقي . ونشتم الموت . ونعاتب الدهر . ونواري الشمس والقمر في التراب ، بل نحفر على حجر فوق راسه تاريخ موته باحرف منظومة لا بارقام بسيطة

زر قبر حاتم منصور الكريم وقل

كم حسرة لك في طي القلوب ترى

تسقيك اجفاننا ارخ بأدمعها

يا غصن بان لواه البين فانكسرا

فانقلب الشاعر بهلوانا واصبح الشعر ضربا من الحلج والجمز

والمشي على الاسلاك والانتصاب على الرأس ورفع الاثقال بالاسنان ولف الرجلين حول العنق الى ما هنالك من الحركات التي تجيدها القردة أيما اجادة . من ذلك الالغاز الشعرية . وحل الالغاز . والمنظومات التي بعض مفرداتها او كلها منقطة. وبعضها أو كلها مهملة. أو حرف منقط فيها يليه حرف مهمل والتشطير والتسميط والتخميس الخ

ومن المضحكات المبكيات يا صاحبي ان مثل هذه الحركات البهلوانية كانت ولا تزال تعرض في سوق آدابنا « كشعر » وارباب كانوا ولا يزالون في مقدمة الشعراء عندنا والشعر براء منها ومنهم . فعلى من اللوم ؟

اي يا اخي . انك لمحق في قولك بأن ليس كل شعرنا من هذا القبيل . بل ابواب الشعر عندنا كثيرة وواسعة . فمنها الغزل والنسيب . ومنها المديح والهجاء . ومنها العتاب والرثاء والفخر والخمر . لكن هذه الابواب يا اخي قد اصبحت كذلك معرضا للعروض والقوافي لا للشعر

لقد كان البدوي يتصبب على الاطلال والدمن ، وينادي الربوع والركبان ، اذا نظر الى القمر رأى وجه حبيبته فيه او الى الظبي راى عنقها في عنقه وفي عينيه عينيها . ونحن لا نزال نتصبب على الاطلال والدمن ولا اطلال عندنا ولا دمن وننادي الركب ولا ركب نناديه . وقلّ ممن يقرض العروض في ايامنا مَن راى في

حياته ظبيا فالتا . . .

واذا هزتنا الحماسة طعنا بالهندواني واليماني ونحن لم نطعن في حياتنا ضبّاً ولو بسكين صغيرة

واذا مدحنا لم نجد بدا من وضع من نمدحه فوق الشمس والقمر لقد شام هذا البدر فيك رجاحة

عليه بميزان البها اذ تاملك

هوت كفة الميزان فيك الى الثرى

وخفت به الاخرى فعلق بالفلك

واذا رثينا لا نجد سبيلا لرثاء الفقيد الا بذم الاحياء

والموت نقاد على كفّه جواهر يختار منها الجياد

فالموت لم يخترك ولم يخترني بعد يا اخي . فلا انا ولا انت من الجياد ولا هذه الملايين التي تصبح على وجه الارض وتمسي بل الجود كل الجود تحت التراب . ولا يمشي فوق التراب سوى كل زنيم خسيس ! . .

إي لحق ما تقول . فليس كل ما ينظمه شعراؤنا من هذا النوع . لا سيما شعراء اليوم . فقد اخذوا يفتشون عن مصادر جديدة يستقون منها الالهام . ويحضرني الان بعض منها : الطيارات . الكهربائية . الغازات المسمة . التلفون . الفونغراف . كرة الرجل او « الفوتبول » . الاستقلال . حدائق الحيوانات . الديموقراطية .

الاشتراكية الخ . الخ نعم . نعم هم ينظمون اليوم في مثل هذه الموضوعات. وفي ذلك شاهد على انهم سائرون مع العصر لا وراءه . لذلك يدعونهم « عصريين » . اعتبر ذلك ايضا في دواوينهم . أولا ترى كيف يتفننون اليوم في طبعها ؟

لقد كان واحدهم سابقًا يكتفي بنشر ديوانه مبوّبًا تبويبًا محكما او مرتبًا حسب احرف الهجاء . اما اليوم فتأخذ الديوان وتجد فيه عدا عن القصائد الشائقة « العصرية » رسومًا لا تترك عندك من شك في عبقرية الناظم . هناك رسمه وهو في العاشرة ثم رسمه وهو في العشرين . ثم في الثلاثين ثم رسم زوجته واولاده . ورسم بيته . ورسوم اصحابه الذين رثاهم . ورسوم اقربائه الذين هنّاهم إما بمولود او بمعمود او بزفاف او بعودة بعد غيبة

نعم . نعم . ان هذه كلها «لموضوعات عصرية» والذين ينظمون فيها لا شك « عصريون » — سائرون مع العصر لا وراءه وانما ينقصهم امر واحد — وذاك ان يسيروا ولو بعض الطريق وراء الشعر فقد ساروا اجيالا وراء الزحافات والعلل

لا بد لنفسي ونفسك يا اخي وانفس من ينظمون « عقود » المديح الفارغ والرثاء الشائن والغزل الذي لا غزل فيه من ان تستفيق يومًا من غيبوبتها الطويلة . حتى انفس من ينظمون التاريخ ليأتيها يوم تنفتح فيه اعينها فترى الشمس والفضاء . ولا تستفيق

انفسنا الا اذا شعرت برعشة الحياة في داخلها . لان الحياة فينا لا خارجاً عنا . وما التأثيرات التي تحدثها فينا الطبيعة او الحياة الخارجية الا منبّه لما كمن في داخلنا من العواطف والافكار . فلولا عواطفنا ولولا افكارنا لكان ما ندعوه « الطبيعة » صحيفة بيضاء . ان الحياة إرث مشترك ولي فيها ما لك . غير ان ما ينتفع به كلانا من هذا الارث يتوقف على ما تنبه فيه من العواطف والافكار لانها مفتاح أهراء الحياة العجيب الذي كلما ولجت منه باباً أدى بك الى باب سواه

اي . يا اخي ان عواطفنا وافكارنا هي ما استيقظ من الحياة فينا . ومن الغريب انه كلما تحركت فينا عاطفة او تململ في داخلنا فكر تأتيهما ساعة تلفظهما النفس كما تدفع الحامل الجنين من احشائها عند اكتمال دور الحمل كأن النفس لا تعرف ما في داخلها الا اذا انتصب امام عينيها . وكما ان الحامل تجهض وتعود فتحمل . كذلك النفس كثيراً ما تلفظ عواطفها وافكارها قبل الأوان فتظهر ناقصة مشوهة . لكنها ابداً تعود فتحمل وتعود فتلد . والنفس التي تلد عواطف جميلة وافكاراً حية ناضجة هي النفس المستيقظة . النفس الشاعرة . وما تلده مثل هذه النفس هو الفن ، والفن اذا اتخذ الكلام ثوباً كان شعراً

اما النفس التي لا تلد الا اوزاناً صحيحة وقوافي رنانة فهي

النفس المصابة بالعقم . ولا بد لهذه النفس من ان تتلقح يوماً بجرثومة الحيـاة . فتجد في داخلها عواطف وافكاراً لا أوزاناً وقوافي فقط

لقد نبهتني يا أخي الى امر ما كنت غافلا عنه حين قلت لي ان شعراءنا في هذه الايام قد تعدوا ابواب الشعر القديمة وانهم يفتشون عن موضوعات جديدة تجول فيها قرائحهم . فذكرت لك بعض تلك الموضوعات وضحكت منها وضحكي كان ممزوجاً بالمرارة والامل . اما المرارة فلأن شعراءنا لا يزالون يبحثون عن الشعر في رغوة الحياة وفقاقيعها . واما الأمل فهو انهم ببحثهم عن موضوعات جديدة لا بد من ان يعثروا يوماً على الشعر فيدركوا انه لا ينحصر في عشرات من البحور ولا في الوف من الابواب . ففي كل عاطفة باب وفي كل فكر بحر . بل ان في مظهر واحد من مظاهر العاطفة الواحدة الف باب وباب . وفي ثنيَّة واحدة من ثنيات الفكر الواحد الف بحر وبحر . ومتى أدركوا ان مصدر الشعر طي النفس عكفوا على درس نفسهم وتفقدوا زواياها وخباياها . حتى اذا ما عثروا هناك على عاطفة ترتعش وفكر يتململ صاغوا لتلك العاطفة ولذاك الفكر لباساً من الكلام يليق بهما . وليس من الكلام ما يليق لباساً للعاطفة الحيـة والفكر المستيقظ الا ما جمع منه بين ائتلاف

ألوان الرسام وتناسق اشكال النحات وتوازن خطوط البناء وترابط الحان الموسيقي

حينئذ يا اخي تثمر قرائحنا فيكثر شعرنا وتقل زحافاتنا وعللنا

فلنترجم !

الفقير يستعطي اذا لم يكن له من كد يمينه ما يسد به عوزه . والعطشان ، اذا جفّ ماء بئره ، يلجأ الى بئر جاره ليروي ظمأه . ونحن فقراء وان كنا نتبجح بالغنى والوفرة . فلماذا لا نسد حاجاتنا من وفرة سوانا ، وذاك مباح لنا ؟ وآبارنا لا ترويننا ، فلماذا لا نرتوي من مناهل جيراننا ، وهي ليست محرّمة علينا ؟

نحن في دور من رقينا الادبي والاجتماعي قد تنبهت فيه حاجات روحية كثيرة لم نكن نشعر بها من قبل احتكا كنا الحديث بالغرب . وليس عندنا من الاقلام والادمغة ما يفي لسد هذه الحاجات . فلنترجم ! ولنجلّ مقام المترجم لأنه واسطة تعارف بيننا وبين العائلة البشرية العظمى ولانه بكشفه لنا اسرار عقول كبيرة وقلوب كبيرة تسترها عنا غوامض اللغة ، يرفعنا من محيط صغير محدود ، نتمرغ في حمأته ، الى محيط نرى منه العالم الأوسع ، فنعيش بأفكار هذا العالم وآماله وافراحه واحزانه . فلنترجم !

الارواح الحائرة

(ديوان لنسيب عريضه . تحت الطبع)

الشعر ، من حيث المصدر ، واحد . لا يقاس ولا يتجزأ ولا يتنوّع . لأن مصدر الشعر الحياة . والحياة هي هي في البعوضة ، وفي الجمل ، وفي الاسد . فان تكن جميلة ومقدسةً في الاسد والنمر ، فهي جميلة ومقدسة في الضبّ والحرباء . امّا من حيث المظهر فالشعر كالحياة ، كثير الاصناف ، عديد الالوان ، متفاوت الرتب .

اننا نرفع الاسد عن الضبّ لا لأنّ الحياة التي تدِبّ في عضلات الاسد اجمل او أشرف من الحياة التي تسيّر الضبّ . بل لانها في الاسد قد اتخذت لها مظهراً أتمّ واكمل واوسع من المظهر الذي تجلّت به في الضبّ . هذا حدّ مداركنا وغاية ما بلغته قوّة التمييز فينا . امّا ان هذه القوة — واعني قوة التمييز — معصومة من الخطأ فقول اتنصّل منه كل التنصّل .

ترانا ، على القياس نفسه ، نفضّل هذا الشاعر على ذاك . ونقدّر هذه القصيدة بأكثر مما نقدّر تلك . والذي نقصده من مثل هذا التفضيل والتقدير ليس اكثر من القول بأن المظهر الذي يتجلّى فيه شعر الواحد هو اجمل في اعيننا واتمّ واوسع من المظهر

الذي يتجلّى فيه شعر الآخر . اما شعر الاول والثـاني فواحد لا تفضيل فيه ولا تفاوت في القيمة .

هكذا ، فالشعر الذي يهبّ علينا من مزامير داود ، واناشيد سليمان ، واقاصيص هوميروس ، وغراميات المجنون ، وخمريات ابي نُوَاس ، والهيات الفارض ، وروايات شكسبير هو نفس الشعر الذي نسمعه في زغاريد فتياتنا وندب عجائزنا وترانيم شباننا وكهولنا واغاني شيوخنا . ولا تنوّع فيه الاّ من حيث المظهر . فبينا نراه في بعض مظاهره بركةً صغيرة من الماء ، نراه في سواها جدولا ينساب ساكتًا بين الرمال . او نهراً معربداً تصب فيه جداول . او بحراً زاخراً تتدفق فيه انهار . او اوقيانوسًا شاسعًا تلتقي فيه بحور .

نحن نفضّل الاوقيانوس على البركة ليس لانّ ماء الاوقيانوس اجمل أو اشرف من ماء البركة . بل لان في الاوقيانوس مدىً ليس في البركة . وكل ما فينا ينزع الى المدى . عضلاتنا تطلب اتساعًا لحركاتها . وافكارنا ترغب مجالا واسعًا لتجوالها . وعواطفنا تطمح الى تناول الكون كلّه وجعله مسرحًا لها . اذا لم يكن مأوى سوى السجن فقد نرضى بالسجن مأوى . لكنه اذا تيسر لنا ان نتّخذ البسيطة مسكنًا فكلنا يفضّل البسيطة .

لكل قارىء مقاييس عديدة يقيس بها الشعر والشعراء لست لآخذها منه ولا لأبدلها بمقاييسي . فما انا الاَّ عارض عليه ما عندي. فلينبذه اذا شاء . او ليقبله اذا شاء .

انَّ اول ما ابحث عنه في كل ما يقع تحت نظري باسم الشعر هو نسمة الحيـاة . والذي اعنيه بـِ « نسمة الحياة » ليس الاَّ انعكاس بعض ما في داخلي من عوامل الوجود في الكلام المنظوم الذي اطالعه . فان عثرت فيه على مثل تلك النسمة ايقنت انه شعر . والاّ عرفته جماداً . واذ ذاك ليس ليخدعني بأوزانه المحكمة ، ومفرداته المنمّقة ، وقوافيه المترجرجة .

ومتى ايقنت ان في ما اطالعه شعراً ميَّزته عن سواه – اولا – باتساع مداه : بعمقه ، وعلوّه ، وانفراج ارجائه . وبعد ذلك فحصت عن سرواله الخارجي ، عن دقة تركيبه ، وحلاوة رنتـه ، وطلاوة ألوانه وما أشبه . وآخر ما اعيره انتباهاً هو الاوزان والقوانين العروضية والقواعد اللغوية . فالشعر الذي ينزل بفكري الى أغوار تحتها أغوار . ويعلو به الى سموات تلوح من ورائها سموات . ويفتح لخيالي آفاقاً خلفها آفاق . ويفسح لعاطفتي مدىً يجرّها الى امداء، هو الشعر الذي تستأنس به روحي وتتفتّح له براعيم الحياة في داخلي. وما كان دونه مدًى لنفسي كان دونه قيمـةً لديَّ . اما الشعر الذى لا آنس فيـه سوى متانة لغويّة . وزركشة بيانيّة ومقدرة

عروضية فهو في نظري كغرفة طولها ذراعان . وعرضها ذراعان . وعلوّها ثلاثة اذرع .جدرانها موشاة بالرسوم . وسقفها مموّه بالذهب . وأرضها مرصوفة بالفضّة . يبهرني لأول وهلةٍ منظرها . لكنني لا أقضي فيها بضع دقائق حتى أشعر بحاجة الى الهواء النقي والى فضاء الله الواسع . فأهرب شاكراً ربي على النجاة وغير ملتفت الى الوراء .

بين شعرائنا المعاصرين الذين في شعرهم مدًى ، شاعر أقلّ ما يقال فيه ان لشاعريته وجهاً يميّزها عن كل شاعرية . ولألحانه رنة تعرف بها بين سائر الالحان . وفي كل ما ينظمه نكهة تختلف عن كل نكهة . وبعبارة اخرى ، ان في شعره شخصيّةً لا تندغم في شخصيّة احد من الشعراء . وهذا الشاعر هو نسيب عريضه .

بدأ نسيب عريضه مطاردة القوافي وهو في الخامسة عشرة من سنيه . ومن الحسنات التي تذكر له — ولو في سبيل العرض — انه نشأ في عصر لم يقم فيه شاعر الا تعمّد بعمودية المديح المبتذل . أو اختتن بختان الرثاء البائخ والنسيب الاصطناعي . مع ذلك لم تكن اول قصيدة نظمها لا في مدح والٍ او مطران . ولا في رثاء « وجيه » أو « ركن من اركان الفضيلة والمروءة والشرف » بل كانت خطاباً الى « ارزة لبنان » يناجيها فيه بما اوحاه في ذلك الوقت خياله الفتيّ من التأملات في الزمان وشؤونه . فيسألها لماذا

اختارت لنفسها اعالي الجبال مسكناً. أشغفاً بالمناظر الفتانة التي تنبسط امام عينيها في منحدرات لبنان وأوديته وسهوله ؟ ثم يجيب بلسانها انها لم تختر الاعالي لبغية المناظر الجميلة ، ولا تنسكاً ، ولا ترفعاً . بل تعشقاً للحرية واسفاً على فقدها من لبنان :

« أنا رمز الثبات والمجد فانظر هل حنى الدهر هامتي الشماء ؟
انا وحدي بقيّة السلف الحرّ . . . . . .
وبهذا المكان قمت لأبكي سلفاً لم أجد بينهم جبناء
... حلة النعيم هذه حلة الحزن ودمعي الندى الذي يتراءى
ومعي تندب الصخور القواسي والبوادي بمقلة حرّاء . »

لأن ابناء لبنان اصبحوا « عبيداً » اذلاء . وغدت نفوسهم ضعيفة ، كلها « احنة وادعاء . » . . .

اجل . ان القصيدة من حيث النظم (وفيها ٣٢ بيتاً) ليست من المتانة والسلاسة بشيء يذكر . والخيال البادي في تأملاتها الصبيانيّة خيال ضيّق ، محدود . لكن من يعرف نسيب عريضه يرى فيها صورة مصغّرة للشاعر الذي بعد عشرين سنة شدّ اطناب خياله بالنجوم . وبسط عاطفته على مدى الأفق . وانحدر بفكره الى اعماق اللجة . وارتفع الى مستوًى في الوجود تلتقي فيه كل وجوه الحياة ، وتتوازى عنده كل مظاهرها . فليبدُ جوهرها واحداً لا يتغيّر . ويبدو كل شيء ازاء هذا الجوهر « سيان » :

« سيّان ان تصغي للنصح او تغضي
يا نفس ، فالآتي مثـل الذي يمضي

العيش اذ يشفي كالعيش اذ يضني
ان الذي يحيي بعض الذي يفني .

الطهر لا يدني والعـهر لا يقصي
فالكأس ان تطفح كالكأس في النقص .

الجوهر السـامي يبقى بلا رجس
كم مومسٍ تمضي عذراء للرمس !

فافعل كما تهوى ، يا قلب ، لا تحذر
ان كنت من تبرٍ ما ضرّك المصهر ! »

لا شك في ان الشاعر لم يبلغ هذا المستوى الذي تجلّت له فيه وحدانيّة الحياة . فتقلّصت ظلالها . وتوارت اشباحها . وتكسرت نواتئها الاّ بعد جهاد طويل . فقبل ان ادرك في اعماق وجدانه ان « الذى يحيي بعض الذي يفني » وانّ « الجوهر السامي يبقى بلا رجس » . وان ما ندنسه نحن بشفاهنا وافكارنا لا تدنّسه الحياة لانه بعض منها . قبل ان بلغت روح الشاعر هذه المحطة من الوجود — وهي في نظري أقصى ما بلغته الى الآن — قد اجتازت

محطات عديدة تكاد تلمحها خلال ابيات قصيدته « ارزة لبنان » .
فذاك الصبيّ نفسه الذي وقف امام ارزة لبنان يطرح عليها سؤالاته قد وقف في السنين التي عقبت ذلك امام وجه الحياة سائلا ، ثم حائراً ، ثم مستوحشاً ، ثم متزهداً ، ثم متصوفاً لم ينل من الحياة الخارجية نصيباً فانعكف على الحياة في داخله يذرّيها تارةً بمذراة عقله وطوراً بمذراة قلبه . وفي كل وقفةٍ كانت تنتابه آلام وعضات وحرقات تكاد لا تخلو منها قصيدة من قصائده .

ها هو ينظر الى الحياة ، أو بالحري الى ما يحيط به بصره من مظاهر الحياة ، فيراه مشوّش النظام . منافياً لافكاره الشخصية عن العدل والتوازن . هوذا بقعة من الارض يجرفها السيل واخرى يشويها القيظ . هوذا غنيّ يشكو التخمة وفقير يشكو مضض الجوع . وطفل يولد كسيحاً اعمىً في كوخ وآخر يأتي هذه الحياة صحيحاً معافىً محاطاً بالوفرة وبكل اسباب الراحة والعناية . فيسأل الشاعر فكره عن القصد من مثل هذا التفاوت في قصيدة عنوانها « لماذا ؟ » :

« لماذا تهبّ الرياح على شواهق ليست بها حافله
وتحرم من بردها مهمهاً به اوشكت تهلك القافله !
لماذا السفينة تطلب ريحاً ومن تحتها البحر هائله
وفي القفر عطشى يريدون ماءً وريح السموم بهم نازله

لماذا نحب ، لماذا نحسّ ، لماذا نعيش بلا طائله ؟ . . . »

لكنّ فكره لا يهديه الى نور . بل يزيد ظلمته سواداً . ويحاصره من كل جانب بسؤالات جديدة واستفهامات هي اكثر تعقداً من ذي قبل . واذ لا يجد له مفرًّا من الحاح فكره يحذّره بقوله انّ ما يراه من التفاوت في مظاهر الحياة هو ظلم من الحياة وخلل في تنظيمها . وانه لو كان هو ربًّا لرتبّها على غير ما هي عليه من السنن . ولاستغفر الانسان عمّا انزله به ، منذ خلقه ، من الإحن والشدائد والاوجاع . فيقول :

« لو كنتُ ربًّا في السماء عظيما
بجميع امر الكائنات عليما
لهبطت من عرشي الى ارض الشقا
نحو ابن آدم من خلقت قديما
وطرحتُ نفسي عند موطئ رجلهِ
وسجدتُ ثمَّ لوجهه تكريما
ولبثتُ اغسلُ بالدموع كلومه
وازيده بتذللي تعظيما
مستغفراً عن عيشة قسمتْ له
منذ الخليقة لا تزال جحيما » .

غير انّ مثل هذا التحذير ليس ليقصّ جناح فكره . ولا

ليكبح جماحه طويلا . فهو لا يلبث ان يوقعه في حيرة هي في حدّ نفسها أكبر فاجعة واشد مأساة . فيرى الشاعر نفسه واقفاً على ملتقى سبل الحياة وقد حار أنّى يدير وجهه . لذاك يخاطب نفسه :

« لماذا وقفتِ بخوفٍ وحيره
أيا نفس عند الطريق العسيره ؟
ألا امشي ، فانّ الحياةَ قصيره
ألا امشي ! »

هو يحثّ نفسه على المسير . امّا هي فقد شُلّت ارادتها ووقفت كأنها سُمِّرت في مكانها . حتى ان الشاعر اخذ يغريها بالوصول الى محجّات روحية جميلة . لو اطاعته ومشت :

« ألا امشي ! وبعد الجهاد الحقيقي
سنسبق آمالنا في الطريق
ونجني الاشعّة قبل الشروق
ألا امشي ! »

لكنها لم تطعه بل ظلّت واقفة وقفة الحائرة الضائعة .

ليس من شاعر إلاّ يعرف الحيرة وما فيها من ألمٍ أبكم وتفجّع أصمّ . امّا نسيب عريضه فقد اوجد لحيرته جسما تكاد تلمسه اليد . واعطاها لساناً يخترق ستائر القلب وينفذ الى اعماق الروح . فصورَتُه

واقفاً على ملتقى طرق الحياة يحث نفسه على المسير ، ونفسه حائرة انّى تنقلب ، صُورةٌ يفاخر الفن بأن تكون من موحيّاته .

فلا بدع اذا انتقى لديوانه اسم « الارواح الحائرة » . لأنه ينطق بألسنة الحائرين .

قلت ان الحيرة مأساة لانها حالة نفسيّة سلبيّة . فالحائر في امرٍ كالعالق بين الارض والسماء . يتوقع كل لحظةٍ ان يهبط الى الحضيض فيطير شظايا . ومن طبيعة النفس ان تبحث ابداً دائماً عن ممسك تتمسك به . او مستندٍ تستند اليه . او شبه شيء ثابت تقف عليه . فالحيرة ، وان تكن محطة من محطات النفس في مسيرها الارضيّ ، ليست سوى مطهر تمر به ، فإمّا تهلك وامّا تنجو . وقد هلكت في ذلك المطهر نفوس كثيرة . ونجت نفوس . ونسيب عريضه من الذين خرجوا من مطهر الحيرة ليكتشفوا آفاقاً اجمل وابعد من آفاق الحيرة الضيّقة .

امّا الآفاق التي اكتشفها نسيب عريضه بعد تخلصه من الحيرة فآفاق الروح التي تقوم عليها قبّة الوجود الذي لا يحد . اذ مال ببصره عن ثانويات الحياة الى اوليّاتها . وعن مرئياتها الى ما وراء مرئياتها . فقال ، وكأنه يؤنب نفسه السابقة بهذا القول :

« لو حدّق المرء في البرايا لَشَام ما لا ترى العيونْ
ما حولنا عالم خفيّ تدركه الروح في السكونْ

كم مبصرٍ لا يرى ، واعمى يرى ويدري الذي يكون
يا ويح من لا يرون شيئاً الا اذا فتحوا الجفون ! »

وكذلك قوله :

« كم دوحةٍ لا يبان منها الا قليل من الكثيرْ
فروعها والغصون جزء بدا ولكنّه حقيرْ
وتحت سطح الثرى اصول محجوبة ، حجمها وفيرْ
فيها حياة الغصون لكن لدى الورى شأنها صغيرْ . »

الاّ ان روحه ، قبل ان تدرك العالم « في السكون » وقبل ان تراه من غير أن « تفتح الجفون » ، قد جرعت كؤوساً من المرارة — مرارة الوحدة ، والشك ، واليأس . فلنسمعها تشكو مرارة الوحدة وألم الوحشة في هذه القصيدة المؤثرة :

« انا في الحضيضْ
وانا مريضْ
أفَلا يد تمتدّ نحوي بالدوا وتبثّ في جسمي ملامسها القوى
وتقلّني من هوّتي نحو الذرى فاسير مستنداً عليها في الورى ؟

. . . .

دربي بعيدْ
وانا وحيدْ
أفلا رفيق او دليل في الطريقْ ؟

أفلا سلاح او دعاء من صديقْ ؟
وارحمتاه لِمَنْ يسير بلا وطابْ
بين القفار وقد تعلّل بالسراب !
ما من مجيبْ
ما من حبيبْ
سِرْ يا شقيّ كفاك تشكو ما دهاكْ
العلّ لا شاكٍ من البلوى سواكْ ؟
كم ذا تفتش عن مؤاسٍ او معينْ
هيهات ، ان الناس مثلك اجمعين!»

امّا في الابيات التاليــة فنسمع ترديد هذه الشكوى نفسها ، شكوى الوحدة ، وقد مازجتها مرارة الشكّ التي يحاول الشاعر ان يرشّ عليها قليلا من سكّر الزهد :

« شربت كاسي امام نفسي وقلت : يا نفس ما المرامْ ؟
حيــاة شكٍّ ، وموت شكٍ فلنغمر الشــك بالمدامْ
آمالنــا شعشعت فغابت كالآل ابقى لنا الأُوام
لا بأس ، ليس الحيــاة الاّ مرحلة بدؤها ختامْ »

ان الوحدة ، كالحيرة ، حالة نفسية ترافق كل شاعر في تطوّرات شعوره وتقلبات افكاره . غير انها تكاد لا تترك نسيب عريضــه الاّ في ما ندر . فهي تتخذ في منظوماته ألوانًا وأزياء

كثيرة . حتى انك تعثر عليها في قصائده التي مسحها بمسحة صوفيّة ظاهرة . كقصيدته الجميلة التي يناجي فيها « اخت روحه » وعنوانها « مناجاة » :

« لاحت قصور الخيالِ تعلو متون الغمامْ
يا اخت روحي تعالي اطلتِ فيها المقام .
يا اخت روحي اسمعيني من اوج تلك السماءْ
قد كاد يقضي يقيني هلاّ اجبتِ النداءْ
اراكِ لا تعرفيني أزال عني البهاء ؟
اجل . تغيّر كنهي مذ جئت ارض الشقاء
بدلت فيها جلالي بحلّةٍ من عظامْ
يا اخت روحي تعالي قد اضجرتني الانام ! »

وهكذا الى آخر القصيدة . كما انك تسمع صدى تلك النغمة عينها في قصيدته « يا نفس » :

« يا نفس مالك والانينْ تتألمين وتؤلمين
عذّبتِ قلبي بالحنين وكتمتِه ما تقصدينْ
. . . . . .
أصعدتِ في ركب النزوعْ حتى وصلتِ الى الربوعْ
فأتاكِ امرٌ بالرجوع — أعلى هبوطك تأسفين ؟
. . . . . .

يا نفس ان حمّ القضاء ورجعت انت الى السما
وعلى قميصك من دما قلبي فماذا تصنعين ؟
ضحيتِ قلبي للوصولْ وهرعت تبغين المثولْ
فاذا دُعيتِ الى الدخول فبأيّ عين تدخلين ؟ »

اذا سمع القارىء في هذه القصيدة رنةً خفيةً من نغمة الوحدة الملازمة لروح نسيب عريضه فهو يرى فيها مدًى بعيداً تكاد تلك النغمة تضمحل وتتلاشى في جنباته الواسعة . فالشاعر لا يتأفف من وحدته فقط . بل يتبرّم من الحرب الضروس الناشبة بين روحه السماوية وجسمه الارضيّ . بين كيانه الخفيّ وكيانه الظاهر . فينتهر نفسه النازعة الى فوق ، ولكن بدون جدوى . ثم يعود اليها متوسلاً ان ترحم قلبه المشدود بالتراب والذي يتفتّت من جراء نزوعها المستتبّ الى مصدرها العلويّ .

يلمح القارىء كذلك من وراء هذا المدى مدىً أبعد منه تطمح اليه نفس الشاعر وتتلمّس سبيلها في الوصول اليه . امّا ذاك المدى الأبعد فقد بلغت روح الشاعر عند ما اقتربت لأول مرّة من جوهر الحياة فوجدته واحداً لا يتغيّر ولا يتحوّل ولا يتجزّأ . فتساوت اذ ذاك عندها المظاهر . وبان كلها « سيان » فقالت :

« الجوهر السامي يبقى بلا رجس
كم مومسٍ تمضى عذراء للرمس »

لم يصل نسيب عريضه الى هذا المستوى الشعري الاّ بعد ان قطع مفاوز شاسعةً من التسآل والحيرة والشك واليأس ناله في كل منها نصيب وافر من التحرّق والتوجّع والتفجّع . ولا شك عندي انه لو اتيح له ان يعود ويقطع ذاك الطريق نفسه لمَا تردّد ولما أثناه خوف الألم والوجع . لأنّ اكبر لذة يلاقيها الشاعر في حياته هي لذّة الألم المولِّد ، لذة لا يتذوقها من البشر إلاّ الامّهات وأبناء الفنّ .

وددت لو كان بامكاني ان أتخطّى بالقارىء خطوة خطوة مع شاعرية صاحب « الارواح الحائرة » . فهي في تجوالها بين ظواهر الحياة وبواطنها قد سلكت شُعباً كثيرة ، وطرقت ابواباً عديدة . ومن كل سياحةٍ ساحتها قد عادت بآثار طريفةٍ .وتذكارات ثمينة . والديوان حافل بمثل هذه الآثار والتذكارات التي تفسح مداه وتفرج صدر قارئه .

قلت في مقدمة الكلام انّ اوّل ما اتطلّبه من الشاعر هو المدى — مدى الفكر والعاطفة والبيان . ومن ثَم اتفحص قوالب شعره الخارجية . امّا المدى فليس من ينكره في شعر نسيب عريضه الاّ مَن لا يرى أبعد من أنفه . او من يتعثّر بخيال حذائه . وامّا قوالبه الشعرية فقد جمعت بين كثير من السلاسة والنعومة والتقتير في الكلام وبين قليل من التعقّد والخشونة والاسراف في التعبير .

ولعل اوفر منظوماته سلاسةً ونعومةً هي التي نزع فيها عن القافية الواحدة الى القافية المتنوعة . لكنه سواء تقيّد بروي واحد في القصيدة الواحدة ، او تعداه الى اكثر من روي تراه يتساهل في بعض الاحايين مع قريحته فيرضيها بكلمة نافرة ، او بجواز مستهجن ، او بصورة غير مكتملة الالوان ولا متسقة الخطوط . في الديوان اكثر من قصيدة تطالعها ثم تقول في نفسك : ليته تحاشي هذه الكلمة أو تلك القافية . او ليته اسقط هذا البيت او ذاك المقطع . او ليته لم يُجز لنفسه هذا الجواز او ذلك . اذن لجاءت القصيدة لؤلؤةً كاملة .

كل ذلك مما يجعل جانباً من قصائد الديوان كسلسلة قمم عالية فسيحة تليها منخفضات حرجة مظلمة . غير انّ ما لا ينكر على نسيب عريضه هو انه ، حتى في احرج منخفضاته النظمية ، يأتيك بصورة نفسية تستوقفك وان تكن مبهمةً او ناقصة . وازيد على ذلك ان القمم العالية في نظمه هي اكثر بكثير من المنخفضات .

لو عثرنا على مثل هذا النقص في ديوان من الطبقة الثانية او الثالثة لقبلناه كشيء نتوقعه في مثل تلك الدواوين . لكنه في ديوان من رتبة « الارواح الحائرة » يستوقفنا لغرابته ولعدم ائتلافه مع روح الديوان الجميلة .

. . . .

من الناس من اذا جالستهم ساعةً مللتهم وضرعت الى ربك ألاّ يجمعك بهم ثانية . ومنهم من تجالسهم دقيقة فتود لو تجالسهم دهراً .

كذلك الشعراء . فمنهم من اذا قرأت لهم قصيدة فكأنك قرأت كل ما نظموه وما سينظمونه . هؤلاء هم شعراء الزحافات والعلل . ومن يطلب في نظمهم شعراً كمن يبتغي عسلاً من البصل .

ومنهم من تطالع لهم دواوين بكاملها فلا يستوقفك فيها سوى قصيدة او قصيدتين او بضع ابيات مبعثرة هنا وهنالك تبين رتقاً جديدة على اثواب بالية . هؤلاء هم شعراء المصادفات . والشعر في ما ينظمون كقبضةٍ من تبرٍ في ربوةٍ من تراب .

غير أنّ من الشعراء من لا تقرأ لهم مطلعاً حتى يستهويك ويستغويك . فتراك في لحظةٍ ، وعن غير قصدٍ منك ، متنقلاً من بيت الى بيت . ومن قصيدة الى قصيدة . كأنك قد دخلت قصراً سحرياً . كل مقصورة فيه قصر مستقل بذاته . وكل بابٍ يؤدي بك الى باب . هؤلاء هم الشعراء الذين في شعرهم مدىً . ومن هؤلاء شاعر الحيرة الخرساء ، فالناطقة ، فالمستوحدة ، فالمتوجّعة ، فالمشككة ، فالمتزهدة ، فالمتصوفة ، فالمهتدية ، فالهادية — نسيب عريضه .

الدرة الشوقية

في عدد «الهلال» لنيسان (ابريل) من هذه السنة (١٩٢٠) قصيدة نشرها المحرر تحت عنوان « درة شوقية » وهي اول قصيدة « لامير الشعر » بعد رجوعه الى مصر وقد ارسل لها صاحب الهلال توطئة يزف فيها الى قرائه بشرى عودة « امير الشعر العربي » احمد بك شوقي الى مصر بعد تغيبه في الاندلس ويخبرهم كيف « تهللت مصر باستقبال شاعرها الكبير وطفحت قلوب الادباء فرحا بعودة رئيسهم وزعيمهم وحامل لوائهم » . اما « الدرة » التي نحن بصددها فقد « نظمت لاحتفال اقيم في دار الاوبرا السلطانية » غرضه « انشاء جمعية تعاون لمساعدة الفقراء » في القطر المصري .

ما وقع بصري على هذه القصيدة بعنوانها الدري حتى التقفتها التقاف الجائع للرغيف وانفردت بنفسي لانعم روحي بجمالها دون رقيب او مزاحم . واختليت « بامير » الشعر لاسكر بسحر معانيه وارتعش لرنة قوافيه واسبح في جو خياله واطوف في جنبات عالم افكاره واغطس في بحر تاملاته فاخرج من خلوتي ودرة شوقي درتي . لان بنات الشعر متى برزن من مخيلة الشاعر اصبحن بنات كل مخيلة قادرة ان ترافق مخيلة الشاعر في كل ادوار الحمل

والمخاض والولادة .

لقد سمعت « بدرر » شعرية كثيرة ولما اعملت فيها طرف المبرد وجدتها صدَفاً لماعاً . وقد حدثني الكثيرون كما حدثتني الكتب عن « معجزات » شعرية ولما فحصتها وجدتها خزعبلات عروضية تبهر البسيط وتخدع المغفل . وقد عودتني جرائدنا ومجلاتنا المباركة ان اسمع كل يوم تقريباً بشاعر « لا يُشق له غبار » وحين عرفت هؤلاء الشعراء الفيتهم وغبار الدهور الخالية فوقهم قامات كانهم ليسوا من ابناء اليوم ولا يشعرون بدق انباض حياة اليوم . لذاك اصبحت شديد الحرص كثير الشكوك كلما سمعت « بدرة » جديدة . ولولا ما « للهلال » عندي من الاعتبار والثقة بحسن ذوق صاحبه الفني والادبي لما اقبلت على مطالعة « الدرة الشوقية » . لكن للهلال في عينيَّ منزلة خاصة به بين سائر المجلات والجرائد العربية . فقد تعودت منذ ايامي المدرسية ان اصدق ما يقوله الهلال وان اعتبر من يعتبره واحتقر من يحتقره لذاك عندما رأيته يقدم الى درة قلت لا شك في انها درة . وعندما سمعته ينعت صاحبها بامير الشعراء قلت لا شك فهو امير الشعراء . أوَ لم يقل فيه كذلك زميله « شاعر القطرين » بأنه

« كالبحر يهدي كل يوم درة

ازهى سنى من اختها الحسناء » ؟

وهكذا « فعلى ذمة » صاحب الهلال وشاعر القطرين جلست اقرأ وفي قلبي نار شوق مستعرة الى ما سيتجلى لعينيّ من الرسوم والرموز والخيالات والافكار الشعرية .

فقرأت :

« انادي الرسم لو ملك الجوابا

واجزيه بدمعي لو أثابا »

ووقفت قليلاً لأتأكد مما اذا كنت اطالع قصيدة جاهلية ام عصرية . اذ تبادرت في الحال الى ذهني ابيات كثيرة فيها «أطلال» و « رسوم » « ودموع » . « لعبلة اطلال . . . » . « قفا نبك . . .» عفت الديار . . . . » . . .

اذا وقف امرؤ القيس وبكى واستبكى « من ذكرى حبيب ومنزل » ففي وقفته وفي ذكراه وفي ما يلي من وصفه ما يبكي . فلا تكلف في بكائه ولا تصنّع . لكن ماذا الذي يبكيه احمد شوقي ؟

— عز الاندلس ؟ مجد العرب ؟ — لا شك ان في اشباح عروش ثلت وفي رسوم مجد باد وفي بقايا مدنية درست ما يقبض على القلب ويعصره فيطلق دمع العين . لكن عينا لم تر تلك الاشباح والرسوم والبقايا لا تسكب عليها دمعا الا اذا تجسمت تلك الخيالات امامها في وصف راوٍ او رسم رسام او نحت نحات او حركات ممثل . وما الشاعر الا راوٍ يقص في قالب جميل عن انفعلات نفسه وتموجات

عواطفه وآماله وتقلبات افكاره في كل ما يسمعه ويراه ويشعر به . وشوقي بعد ان صرف سنوات في الاندلس عاد الى مصر ووقف يخبر اهلها بما شاهد ويقاسمهم عواطفه وتأثيراته التي ولدتها فيه تلك المشاهد لينقل الى قلوبهم بعض الانفعالات التي تسربت الى قلبه يوم كان واقفاً بين تلك « الدمن البوالي »

فماذا قال لهم ؟

قام ينادي الرسم و « يجزيه بدمعه » ويقول ان العبرات « قلت لحقه » وانهن — يعني العبرات — « ستبقى مقبلات الترب » عنه وانه « نثر الدمع في الدمن البوالي » . وبكلمة اخرى انه بكى . ولماذا ؟

لو بقيت شهراً بل عاماً اقول للناس : « يا ناس اني بكيت ! » لما بكى معي احد ولما رق لحالي مخلوق . غير اني لو ادخلتهم قلبي وقد خيم الحزن فيه وفتحت أمامهم أبواب نفسي وقد علقت في شراك اليأس لتبللت مع عيني عيون ، ولانقبضت مع قلبي قلوب ، ولاكمدت مع نفسي نفوس . وهذه هي مهمة الشاعر . ان قصّر فيها فهو وزان وليس بشاعر . وكم هم الشعراء بيننا الذين يستعيضون عن وصف عاطفة بذكر نتيجتها الخارجية . فإن حزنوا قالوا « بكينا » وان فرحوا قالوا « ضحكنا » كأن لا سبيل لوصف الحزن الا بالدموع . او لوصف الفرح الا بالضحك . فما اغزر الدموع في

مآقينا وما اسخى مآقينا بسكب الدموع !

في « الدرة الشوقية » امثال كثيرة من هذا الوصف السطحي الذي لا يحرك فكراً في رأس ولا يرسم صورة في مخيلة ولا يهيج عاطفة في قلب . غير ان فيها من الوصف الشعري ما يكاد يشفع بتلك الترهات لو لم يكن ضائعاً بين ابيات جاءت حشوا فبان كبطاقة زهر في حقل من العوسج .

فمن ذاك الوصف تعبيره عن شوقه الى مصر وحبه لها حيث يقول :

« ويا وطني لقيتك بعد يأس كأني قد لقيت بك الشبابا
ولو اني دعيت لكنت ديني عليه اقابل الحتم المجابا
أُدير اليك قبل البيت وجهي اذا فهت الشهادة والمتابا »

ومن الحشو قوله بعد البيت الاول من هذه الفقرة :

« وكل مسافر سيعود يوما اذا رزق السلامة والإيابا »

فلا فرق عندي بين هذا البيت وبين قول القائل :

الليل ليل والنهار نهار والارض فيها الماء والاشجار

ومن الحشو قوله كذلك بعد الابيات الثلاثة السابقة :

« وقد سبقت ركائبي القوافي مقلدة ازمتها طرابا
تجوب الدهر نحوك لا الفيافي وتقتحم الليالي لا العبابا
وتهديك الثناء الحر تاجا على تاجيك مؤتلقا عجابا »

فماذا يؤهل هذه الابيات لأن تدعى شعراً ؟ اذ لا رسم فيها جديداً ولا فكر مبتكراً ولا عاطفةَ حيةً تزيد على العاطفة التي وصفها في الابيات السابقة . بل جل ما يقال فيها انها لو قام الخليل من قبره وعرضت عليه لقال انها محكمة النظم وانها من البحر «الوافر»

ومن وصفه الشعري ايضاً قوله حيث يشكر للاندلس انه في مدة اقامته فيها تخلص من وجوه الممالئين والاغبياء المدعين :

« فانت ارحتني من كل انف كانف الميت في النزع انتصابا
ومنظر كل خوّان يراني بوجه كالبغي رمى النقابا »

ومن الحشو قوله بعد هذين البيتين :

« وليس بعامر بنيان قوم اذا اخلاقهم كانت خرابا »

فعلام هذا الانتقال الفجائي الغريب من نقد عنيف مر الى « حكمة » مبتذلة لا حكمة فيها ؟ اما كان الاحرى به ان يتم صورة حالة قومه الاجتماعية حتى اذا تجلت امام اعين سامعيه بكل خطوطها والوانها قالوا من تلقاء انفسهم : « لا والله . فلا يعمر ابداً بنياننا ما زالت اخلاقنا خرابا » ؟

لئن غفرنا للشاعر ابياتا ما حشا بها القصيدة الا لزيادة العدد فلن نغفر له تناقضاً فاحشاً في المعاني . فوالله لنعجب من امر شاعر يشكر الغربة لانها اراحته من « كل أنف كأنف الميت في النزع انتصابا » ومن منظر « كل خوان » يراه « بوجه كالبغي رمى

النقابا » وينذر قومه بأن بنيانهم لا يقوم « اذا اخلاقهم كانت خرابا » ثم يعود بعد لحظة يخاطب وطنه واولئك القوم انفسهم بهذه اللهجة :

« وحيا الله فتيانا سماحاً كسوا عطفيّ من فخر ثيابا
ملائكة اذا حفوك يوما احبك كل من تلقى وهابا
وان حملتك ايديهم بحورا بلغت علي اكفهم السحابا
تلقّوني بكل اغر زاه كأن على اسرته شهابا
ترى الايمان مؤتلقا عليه ونور العلم والكرم اللبابا
وتلمح من وضاءة صفحتيه محيا مصر رائعة كعابا »

فبلد فتيانه ملائكة اذا « حفوه يوماً » احبه وهابه كل قادم اليه وان حملته « ايديهم بحورا » بلغ السحاب . وبلد ترى على اوجه فتيانه شهبا وترى الايمان « مؤتلقا عليها . ونور العلم والكرم اللبابا » لبلد سعيد واهله لقوم مهما جاز ان يقال فيهم فلا يصح ان يقال ان « أخلاقهم خراب » . ام هي « الدرر » لا تكون كاملة ما لم يتخللها قليل من النقد وقليل من الاطراء وقليل من الفخر وقليل من الحكم سواء تآلفت معانيها ام تنافرت ؟ بل هو الموقف . فلا يجب ان ننسى ان القصيدة « نظمت لاحتفال اقيم في دار الاوبرا السلطانية غرضه انشاء جمعية تعاون لمساعدة الفقراء » .

وكيف يمكن شاعر ان يتلو قصيدة في اجتماع تلك غايته بدون

ان يندد ولو قليلاً بالاغنيـاء والتجار ويحنن القلوب على الفقير والجائع والبائس ؟ وكيف يمكن شاعر استهل قصيدته بمناداة الرسوم ونثر العبرات بين « الدمن البوالي » ان يتخلص من خرابات الاندلس الى غلاء المعيشة ، الى شقاء الفقير الا اذا غالى في اطراء سامعيه فوصفهم بالملائكة وحينئذ صاح فيهم :

« شباب النيل ان لكم لصوتا يلبي حين يرفع مستجابا
فهزوا العرش بالدعوات حتى يخفف عن « كنانته » العذابا
أمن حرب البسوس الى غلاء يكاد يعيدها سبعاً صعابا » ؟

هـذا ما يدعونه « حسن التخلص » لكن شاعرنا ما بلغ بنا هذا الحد الا بعد ان دار بنا ألف دورة لولبيةً انستنا اول الطريق ونصفها . مع ذلك فقد سرنا معه حتى الآن فلنسر معه حتى النهاية .

بعد ان تخلص الشاعر الى الغلاء والضنك وقف يعاتب ربه على ما انزله بمصر : « أنيلا سقت فيهم ام سرابا ؟ » ثم يضرع اليه :

« حنانك واهد للمثلى تجارا بها ملكوا المرافق والرقابا
ورقق للفقير بهـا قلوبـا محجرة واكبادا صلابا »

ومتى انقلب الشاعر فجأة من نائح يبكي « الدمن البوالي » الى ناقد يسخر بادعاء قومه وجهلهم الى مغرم يتغزل بحب وطنه الى مادح يرى في قومه ملائكة يتلألأ على وجوههم نور العلم والايمان والكرم الى شيخ او قسيس يعاتب ربه ويسترحمه الى

اقتصادي يبحث في غلاء أسعار المعيشة واسبابه الى عالم اجتماعي يناضل عن الفقير الى فيلسوف لا يرى « مثل سوق الخير كسبا ولا كتجارة السوء اكتسابا» واخيراً الى لا هوتي يفسر لنا غاية الله من ارساله الانبياء على الارض :

« ولولا البر لم يبعث رسول ولم يحمل الى قوم كتابا »

متى تقلب الشاعر هـذا التقلب السريع بين مطلع القصيدة وختامها ولم يترك في النفس سوى رنة القافية المتتابعة حار في امره الناقد وسدت في وجهه السبل . فلا حول ولا !

قال دعبل :

اني اذا قلت بيتًا مات قائله ومن يقال له والبيت لم يمت

ولعمري سواء أصدق دعبل بقوله هذا القول في شعره ام كذب ففي البيت افضل مقياس للفصل بين جميل الشعر ورديئه وبين غثه وسمينه . فالشعر الذي يحق ان ندعوه شعراً لا يموت مادام في الارض بشر تتحرك في قلوبهم عواطف وتجول في رؤوسهم افكار . فهل قصيدة شوقي شيء من هذا النوع من الشعر ؟ ودرر الشعر لا تحل بها الغيَر ولا يسلبها الزمان رونقها . فهل « درة » شوقي من هذه الدرر ؟ ام ما هي الا صَدفة براقة ؟

انني اترك الجواب للقراء

واخاف انني قـد تعديت الحدود المرعية في شرع الكثيرين

من ادبائنـا اذ انني جسرت ان ارفع عيني الخاطئتين الى عرش « امير الشعر » . وما كنت لاجـد من نفسي جرأة على ذلك لولا علمي بأن بيني و بين الامير واعوانه بحراً بل بحوراً لا اخالهم قادرين ان « يرفعوها على اكفهم » !

وفي كل حال فالله حسبي وحسب الأمير .

القرويات

(ديوان لرشيد سليم الخوري طبع بمطبعة مجلة «الكرمة» — سان باولو — برازيل . سنة ١٩٢٢)

* * *

منذ خمس سنوات اصدر رشيد الخوري — وهو « الشاعر القروي » — ديوانًا دعاه « الرشيديات » . واظن انه جمع فيه كل منظوماته منذ حداثته حتى ذلك العهد من حياته فجاء متنوع البحور ، مشكل القوافي . كثير النظم ، قليل الشعر . شأن اكثر دواوينا الشعرية . غير ان ما جاء فيه من الشعر وان قل ، كان شعراً شجياً بنغمته ، اثيريا بخياله جذابًا بحزنه ، ناعمًا بلمسه للروح ، وخفيفًا بنقره على اوتار القلب . وما ذاك الا لأنه كان منطلقًا من جنات روح ناعمة ، خفيفة ، حساسة . فقلنا « نحمد الله هو ذا شاعر شاعر » وغفرنا « للرشيديات » كل ما جاء فيها من الحشو والزركشة العروضية

واليوم — وقد مرت على « الرشيديات » خمسة اعوام — جاءنا القروي « بقرويات » فلله ما تفعل السنون ! اهي الحرب بويلاتها ، ام هو العمر باوجاعه ، ام هو الزمن بمساحيقه السحرية ؟

فالشاعرية التي لم تك في « الرشيديات » الا زهرة مكممة ، قد تفتقت عنها في « القرويات » بعض اكمامها . فرأيناها وعرفناها واحببناها . وسنزداد معرفة بها وحباً لها حين تنعتق مما بقي عليها من الاكمام وما ذاك العهد ببعيد

ان « القروي » رقيق ولطيف ورشيق عندما يسخر دماغه لقلبه . ففي قلبه حرقة . بل في قلبه حرقتان — حرقة الوحدة التى تلازم روح كل شاعر . وحرقة الغربة عن اهله واوطانه فهو ابدا كئيب شاك يعشق كآبته وشكواه

« يا حزن لا بنت عن قلبي فما سكنت
عرائس الشعر في قلب بلا حزن »

كذلك

كم فيك يا عيش من معزّ أليس من واحد يهني ؟
لا في رقادي ، ولا سهادي ولا سروري لما اغني ؟

ولطيف ما يقوله الشاعر في غربته الروحية في قصيدة دعاها « الوطن البعيد »

ما البرازيل مهجري ليس لبنان لي حمى
ان نفسي غريبة تشتكي البعد فيهما
انا ما دمت في الثرى وبعيداً عن السما
مهجتي كلها جوى كبدي كلها حنين

نـازح اشتكي النوى دأبي النوح والأنين

والطف من ذلك قوله في نفسه ،وهو قول ينطبق على كل ذي خيال

لاصق الجسم بالتراب عالق الجفن بالسحاب

وقوله ايضاً في « هذيان شاعر »

اجوع فآبى ان أذوق غذائي واثقل في الحر الشديد كسائي

ويُسمع في عرس الصديق رثائي ويعلو على قبر الحبيب غنائي

وانقر قدام الجنازة عوداً

اما حنينه الى لبنان ، وقمم لبنان ، وسماء لبنان ، فتكاد تسمعه في كل قصيدة . وليس فيه ما ينفر منه السمع . او يغلق دونه القلب. لان التكلف فيه قليل . والشعور الحي غزير وعميق . حتى لتنقبض منك الروح شفقة على هذا الغريب . او تتعشق لبنان مثله ، وان كنت تجهل لبنان . فتقول معه اذ تسمعه يقول

دع عنك تأنيبي فكم من نازح مثلي يطالع وجـده بسطوري

ومتى « طالعت وجـدك » أيها القارىء في بيت من الشعر فقل إن صاحبه شاعر

اي . لله ما تفعله السنون ! فقـد عرفنـا « القروي » في « رشيدياته » شاعراً يتمرمر بمرارته ، ويتألم بـآلامه ، ويستوحش بوحشته . واليوم نراه في « قروياته » يتلذذ بمرارته ويتعزى بالآمه ويستأنس بوحشته . وما ذاك كل الفرق بين « قروي » الامس

و « قروي » اليوم . فلناظم « القرويات » عين تجول في أفق الحياة ما كان لناظم « الرشيديات » مثلها . وله روح تراقب وتسجل ما كانت تغفل عن مراقبته وتسجيله روح « القروي » لخمس سنوات فاتت . ففي « القرويات » نظرات جميلة في الناس وشؤون الناس لسنا لنجد لها نظيرا في « الرشيديات » واليك بعضاً منها . قال بمعنى « الاحتفاظ بالصديق » :

كم صاحب حرصاً على وده طلبت ان يغفر لي ذنبه

وفي قصيدة بعنوان « هنا وهناك »

جوع النفوس هو الجوع الذي عجزت
عن سده هذه الدنيا وما تسع

وفي القصيدة نفسها نقرأ هذه الملاحظة للشاعر في ابناء جنسه

لا يبذلون لاجل الخير خردلة
الا اذا قيل قبل الدفع « قد دفعوا »

اذا تولوا على احبابهم جبروا فأن تجلت لهم اربابهم ضرعوا
جور على ذا وتعفير الجبين لذا كنائم السطح مطروح ومرتفع

وقوله في « سيداتنا وساداتنا »

اذا وفر العرضَ الرغيفُ ولم يُنل رغيف فإن الباخلين زناة
وان قتل الفقر اليتيم ولم يجد معيلا فإن الموسرين جناة

كذلك قوله ، وفيه نظر بعيد

وقيمة الشيء مقدار الهيام به فأن زهدت فما للماس مقدار

وعلاوة على ذلك فللقروي مقدرة في الوصف لا يستهان بها . ولعل اجمل بيت وصفي في ديوانه الجديد على وجه الاطلاق هو قوله في بيت المقدس يوم دخله العسكر الانكليزي بقيادة ألنبي الذي ترجل مع اعوانه هيبة ووقارا

لله اورشليم . عند جلالها ما اشبه المنصور بالمكسور

لقد قلت ، في سياق الكلام ، ان القروي رقيق ولطيف ورشيق عندما يسخر دماغه لقلبه . لكنه ، ويا للأسف ، لا يندر ان يسخر قلبه لدماغه . فينظم لا مدفوعاً بعاطفة ، بل بحب النظم لا غير . كانه يقول لنفسه — لقد مر بي زمان ولم انظم قصيدة . فلأنظم . فيأخذ اذ ذاك يلتقط موضوعات من هنا وهناك تغيب فيها شاعريته خلف ستار كثيف من الوعظ الممل والتفلسف السطحي والفخر الفارغ او التنديد المبتذل

من هذا النوع قصيدته في « البشرانية الحسناء » و « القيصر وتولستوي » و « الخير الكبير والشر الكبير » و « وحي رسم » و « عبرة للمدمنين » و « الدوحة الساقطة » وسواها . ومن هذا النوع كذلك اكثر ابياته « الوطنية » التي تارة يؤنب فيها شعبه لأنه كان مستعبداً ولا يزال مستعبداً ، وطوراً يبكي عز بلاده وحرية بلاده وعزم بلاده التي قضى عليها الاجنبي

ليس هذا التفاوت في شعر « القروي » الا لأن القروي شاعر لم يتخلص بعد من وهم هو اكبر ضربة على الشعراء في كل مكان ، لا سيما على شعرائنا فكثير بينهم من يتوهم ان اهمية مجموعة شعرية تتوقف لدرجة كبيرة على عدد القصائد فيها . لذاك يحشونها بكل ما ينظمونه ان في احسن ساعاتهم او اسواها كأن قيمة الشعر بكميته لا بجوهره . ولو تروّى « القروي » في نشر ديوانه لاهمل منه اكثر من نصفه فرفع بذاك قيمته . وكل شاعر في حاجة الى غربال لكنه يجب ان يكون هو الغربال والمغربل

سينسى العالم العربي اكثر من خمسين بيتا من « سقوط اورشيم واريحا » ولكنه لن ينسى

لله اورشليم ! عند جلالها ما أشبه المنصور بالمكسور

وسيهمل كثيراً من قصائد القرويات لكنه لن يهمل خطاب الشاعر للبقر في قصيدته « بين البقر والبشر »

تشكين فصل الشتاء البارد القاسي ؟

ماذا اقول انا في عشرة الناس ؟

نامي على الثلج نامي ليس من باس

فالثلج غير فؤاد دون احساس

وان تكن هاطلات الغيث تغشاك

طوباك ، فالقطر غير الدمع طوباك !

الريحاني في عالم الشعر

لأمين الريحاني قلم ولوع بالاستكشاف والتنقل ، لا ينزل بقعة من مرج الادب حتى ينزح عنها طالباً سواها . فقد عرفناه بادىء بدء بمقالاته بين اجتماعية وسياسية وادبية . ثم برواياته بين تمثيلية وغير تمثيلية . ثم بأقاصيصه الصغيرة . وكذلك ببعض شعره المنثور . واليوم نراه في عالم الشعر المنظوم . انما الشعر الانكليزي لا العربي . فقد اتحفنا منذ ايام بمجموعة من نظمه بالانكليزية دعاها « انشودة الصوفيين وقصائد سواها » (١)

ليس من آفة ان يتنقل الكاتب من هذا الباب الى ذاك من ابواب الادب . فما ابواب الادب سوى اساليب يتخذها الاديب للافصاح عن افكاره وعواطفه . كما يتخذ الموسيقي هذه الآلة او تلك لنشر ما هو كامن في روحه . فليس ما يمنع كاتب المقالات من أن يؤلف روايات . ولا مؤلف الروايات من ان يزاول « الدراما » . ولا كاتب الدراما من ان يقرض الشعر . كما انه ليس ما يمنع من

---

(١) A Chant of Mystics and other Poems
New York, James T. White & Co. 1921

ينقر البيانو من أن يضرب العود أو الكمنجة . ولا ضارب الكمنجة من أن ينفخ « الكلارنت » . لكن العالم لا يعرف الا القليل ممن اجادوا ضرب آلة او آلتين . وأقل منهم من برز بين الكتاب في اكثر من اسلوب من اساليب الادب . وبكلمة أخرى فلكل كاتب حقل يمتاز به من حقول الادب وان أجاد في سواه . فهو إما شاعر — ثم مصنف روايات ومقالات وقصص . او مصنف روايات — ثم شاعر ومحبر مقالات . او ناقد — ثم روائي وشاعر الخ . فيستحيل عليه ان يجيد في كل هذه الاساليب الكتابية على السواء .

لقد ساءلت نفسي بعد ان طالعت مجموعة الريحاني الجديدة ما اذا كان الريحاني شاعراً أجود منه ناثراً . وفي أي أساليب التعبير قد أظهر لنا الريحاني ما فيه . فعدت في ذاكرتي الى « الريحانيات » فإلى « كتاب خالد » فإلى « زنبقة الغور » فإلى « خارج الحريم » فإلى « تحدّر البلشفية » واخيراً الى « اللزوميات » ثم الى « الأنشودة الصوفية » . وقابلت بين مقالاته ورواياته واشعاره فوجدته في المقالة أبلغ منه في الرواية والشعر (وذاك لان فكره راجح على عاطفته . ومنطقه متغلب على خياله) . وكيف يكون الشعر بدون عاطفة وخيال ؟

ان جوهر الريحاني يتجلى لي في « ريحانياته » لا لافكار

فيها سامية مبتكرة — فليس فيها افكار مبتكرة . فقد كتبها قبل ان ينضج فكره وتتبلور آراؤه . ولا لغزارة مادتها — فمادتها ليست غزيرة .(بل لانها تنم عن فكر يميل الى البحث والتنقيب وتعليل الامور ، وتحليلها من مركبها الى اجزائها البسيطة ثم الى ضم تلك الاجزاء بعضها الى بعض بسهولة ودون تكلف . ناهيك عن ان اسلوب مقالاته في اكثر الاحيان سهل المأخذ جميل المبنى)

اما في الرواية التي تحتاج ، عدا الفكر المعلل والمحلل ، الى يد المتفنن لابراز اشخاصها الى الحياة ولتطبيق مشاهدها على فكرتها الاساسية فباع الريحاني لا تزال قصيرة ، واقصر منها باعه في الشعر . حيث لا يكفي التعليل والتحليل ، بل لا بد من العاطفة والخيال والرنة الشعرية التي تجعل من الشعر والموسيقى توأمين

ففي « اللزوميات » قد حاول الريحاني ان يترجم بعض افكار المعري الى الانكليزية شعراً . اقول « افكار المعري » لان المترجم قد أخفق في تأدية جمال الاصل . أعني ذاك الجمال المتغلغل بين المفردات التي يتألف منها شعر ابي العلاء والذي يعطيه تلك الرنة التي قلما تجدها في شعر سواه . اما «افكار » الشيخ فقد نجح الريحاني في تأدية بعضها . لكن كثيراً منها قد ضاع بين ضرورة القافية واللغة أو لم يبق عليه الا القليل من المسحة المعرية

لكننا لسنا لنحكم على شاعرية الريحاني بما ظهر منها في

« اللزوميات » فهو لم يك هناك الا مترجماً . ولا يعرف صعوبة الترجمة ، ولو كانت من أبسط ما كتب ، إلا من عاناها . فكيف بترجمة ابي العلاء ؟

اما في « انشودة صوفية » فالريحاني يظهر امامنا لا كمترجم بل كشاعر ينطق بتموجات فكره وبنبضات قلبه . فحيثما تسمع لقلبه نبضة تجد في شعره جمالاً وتسمع له رنة وتأتي على آخر القصيدة شاعراً انك قد اقتربت خطوة من الشاعر ولمست جانباً من كيانه . وحيثما لا تسمع لقلبه نبضة تأتي على آخر القصيدة وتقف حائراً ، سائلاً نفسك « ماذا عساه يعني » ؟

لا سيما وامين يكثر من استعمال الأوابد في اللغة الانكليزية كأنه بذلك يقول لأبناء تلك اللغة « انظروا . ها أنا دخيل عليكم . مع ذلك اعرف من مفردات لغتكم اكثر مما تعرفون »

في المجموعة احدى وثلاثون قصيدة — بين طويلة وقصيرة ومقفّاة ومطلقة . اجملها في نظري ما جاء فيه بعض عاطفة . كقصيدة « التائه » و « لبانوس » (لبنان) و « الصلاة في الصحراء » و « ترنيمة الغيث » . ويتلوها بعض قصائد فيها تأملات جميلة لا تخلو من العاطفة . كقصيدة « الهارب » و « ثمرات الموت » و « الزلزال »

ففي التائه نسمع حنين الغريب الى بلاده . وهو حنين الشاعر

الى لبنان وما فيه من الجمال الفطري والبساطة ونفوره من محيطه الغريب ومن كل ما فيه من اسباب الراحة ومظاهر الرقي

وفي « لبانوس » نسمع لبنـان ينادي الشاعر و « حبيبته » الى احضانه . وفي ندائه حنو وحنـين ورقة . وفي خطاب الشاعر « لحبيبته » حرقة ولوعة . كأنه قد أودع هذه القصيدة بعضاً من نفسه . لأن الحرقة التي فيها انما هي صادرة عن قلب محروق . لذاك يهتزّ لها قلب القارىء

اما في « الصلاة في الصحراء » فنسمع له لغة قد لا تأنس لها الآذان الغربية بمقدار ما تأنس لها اذننا الشرقية فهي صلاة ابن الصحراء من أجل « قليل من المطر » — يا رب غيثك ! ففي هذه الصلاة قد جسم الشاعر باسلوب رشيق بعض ما في الروح الشرقية من حرارة الايمان والتعبد والرجوع الى الخالق في كل الامور . وكذاك في « ترنيمة الغيث » فهي تسبيح وشكران لمرسل الغيث ممن يعزون كل خير في الارض اليه . لذاك يمجدونه ويشكرونه من اجل قليل من المطر

ومن القصائد التي وددت لو ينظمها الريحاني بالعربية قصيدة « الاندلس » . فقد ذكرتني مطالعتها « بدرة » شوقي وعن غير قصد مني وجدتني اقابل في فكري بين تلك وهذه فما اعظم الفرق بين الاثنتين . لقد حاول شوقي ان يصف الاندلس ومجدها البائد

فجاء وصفه كلمات مرصوصة ، وقوافي فوق قواف ، ودموعاً تلو دموع ، ومبالغة بعد مبالغة . ونظم فيها الريحاني فجاء نظمه جميلاً ولا مبالغة ، ومؤثراً ولا دموع ومحزناً ولا زفرات والأهم من ذلك ان القارىء يعرف منه شيئاً عن عظمة الاندلس ويأسف معه على زوال عزها . اما من « درة » شوقي فلا .

وهنا يجب ان اذكر للريحاني حسنة صغيرة بحد ذاتها ، كبيرة في عين كل من يحب الآداب العربية ويغار عليها . (وهي انه يلبس كل منظوماته الانكليزية حلة شرقية) ففي مجموعته نكهة عربية بحتة . حتى انك تجد في « الانشودة الصوفية » اسماء اشهر شعرائنا الصوفيين وتسمع في القصيدة من اولها الى آخرها رنة شرقية لا غش فيها . بل بعض ابياتها يكاد يكون ترجمة حرفية لكثير من الابيات الصوفية الشهيرة كمطلع الفارض

« شربنا على ذكر الحبيب مدامة

سكرنا بها من قبل ان يخلق الكرم »

(غير ان هذه الحسنة في اعيننا قد تكون سيئة في عين المطالع الانكليزي . لانها تزيد المعنى تعقداً وغموضاً) . والريحاني غامض بشعره البسيط فكيف به متصوفاً ؟ ويعن لي ان هذا الغموض ناتج عن امرين . اولهما ان الشاعر يحاول في محلات كثيرة ان يعبر عن فكر كبير بأبيات قليلة او عن فكر صغير بأبيات كثيرة . فاذا

اختصر بان فكره ممسوخاً واذا أطال ضاع الفكر بين اول القصيدة وآخرها .

وثانيهما ان فكر الشاعر لا يتجلى له بصراحة تامة . ولا هو يحيط به من كل جوانبه . لذاك عند ما يجلس لينظم لا ينظم في الحقيقة الا بعضاً منه . وهذا البعض قد لا يكون في كثير من الاحيان الا مظهراً عرضياً من مظاهر الفكر لا جوهره الاصلي ، مظهر ينبيك بوجود الفكر لكنه لا يهديك اليه ولا يعطيك ما يساعدك على الاهتداء اليه من نفسك .

السابق (١)

ان كتاب (المجنون) الذي ظهر بالانكليزية منذ اكثر من عام هو في نظري بدء طور جديد في حياة جبران خليل جبران الكتابية . بل هو الحد الفاصل بين جبران الامس وجبران اليوم . فحتى صدور « المجنون » كان جبران يحاول المستحيل — اما ان يجعل العالم يسير بمشيئته ، او ينسحب من العالم . فندد ولم يجده التنديد . وبكى فلم يقرّح سوى مقلتيه . وتحرّق فلم يحرق سوى قلبه . ونادى : « باطلة هي المدنية وباطل كل شيء فيها » فمشت المدنيـة في سبيلها ولم تحفل بندائـه . وما ذلك الا لأنه استسلم في بادىء الامر الى عواطفه . وعواطفه رقيقة يجرحها اقل خلل واقل فساد يراه في الحياة من حوله . والفساد في حياة الناس ضارب اطنابه . فقال تباً لها من حياة وتباً لهم من بشر مستعبدين لها . وراح يرشق الناس وحياة الناس بسهام نقمته ذات اليمين وذات اليسار . فطاشت سهامه واخطأ المرمى لانه لم يكن يقصد مرمى محدوداً . بل كان كمن يحاول قطع كل رؤوس (الهيدرا) بضربة واحدة . (الهيدرا

---

(١) السابق THE FORERUNNER

لجبران خليل جبران طبع الفرد كنوف سنة ١٩٢٠

في اساطير اليونان افعى ذات تسعة رؤوس اذا قطع رأس منها نبت مكانه اثنان)

اما كاتب (المجنون) فقد اتخذ من فكره نصيراً لعاطفته . فأدرك ان من شاء ان يصلح ما فسد في الحياة وجب عليه ان يقبل الحياة كما هي وان ينصرف بعد ذلك الى تنقية أدرانها واحدة واحدة . فجبران اليوم ليس بالناقم على البشر ولا على حياة البشر . بل هو محب للبشرية وحياتها . ومن حبه لها ينبه افكارها الى بعض ما فيها من الضعف والوهم والشناعة . ومنبهه ليس طبلا ولا جرساً ولا مدفعاً . بل مثل بسيط نقرأه فنضحك ثم نعبس ثم ننتفض اشمئزازاً من انفسنا ثم نجلس صامتين مفكرين بتقويم ما اعوج وبتر ما فسد فينا . وبكلمة اخرى فهو يجعلنا نضحك من جهلنا ونسخر من عمائنا او تعامينا . وكم قومت السخرية من اعوجاج حيث لم ينفع الوعظ ولم يجد التنكيت ولم ينجع التهديد والوعيد .

ونعماً فعل جبران باتخاذه المثل واسطة للتعبير عن افكاره . فالمثل من كل اساليب البيان هو ابسطها واجملها وافصحها لانه اقربها الى العقل . وقد أظهر جبران في تنسيق امثاله مقدرة تضاهي مقدرته في تنسيق شعره المنثور . فأمثاله كشعره — صورة حية ناطقة . بل هي ابلغ من شعره من حيث نقد وهم من اوهامنا او تصوير مظهر من مظاهر حياتنا . وكتابه (السابق) الذي جاء لاحقاً (بالمجنون)

هو اغنى منه بهذه الامثال . واخاف اذا جئت لاعطي نموذجاً منها ان أراني مضطراً الى ترجمة القسم الاكبر من الكتاب ولعلنا لا نعدم في المستقبل القريب من ينقله لنا الى العربية بلغة تضاهي الاصل الانكليزي بساطة وجمالا . غير اني لا أرى بداً من ذكر بعض امثاله . خذوا مثل « الحرب والامم الصغيرة »

شاء جبران ان يبدي رأيه في علاقات الامم الكبيرة بالامم الصغيرة وما قيل فيها ابان الحرب الاخيرة من ان الكبير والقوي قد هبا يهرقان دماءهما في مناصرة الصغير والضعيف . فماذا فعل جبران ؟ — لم يكتب مجلداً ولا راح يبحث عن اسباب الحرب التاريخية والاقتصادية بل رسم باقل من مائة كلمة صورة شاة ترعى مع حملها في المرج وفوقهما في الجو نسران يقتتلان عليهما . فنظرت الشاة اليهما ثم الى حملها وقالت :

واعجباه . علامَ يقتتل ملكان من ملوك الجو ؟ اوَ ليس الفضاء رحباً بكليهما ؟ — صلِّ يا بنيّ . صلِّ في قلبك الى الله ليصلح ما بين اخويك المجنحين !

فصلى الحمل في قلبه

أليس هذا المثل الصغير أفصح من المجلدات الكبيرة التي كتبت في انخداع الامم الضعيفة بنوايا اخواتها القوية ؟

اليكم مثلاً آخر :

« اربع ضفادع اجتمعن على خشبة عائمة فى النهر فأخذن يتجادلن عن المحرك الذي يحركهن ، فقالت الأولى انه الخشبة . وقالت الثانية انه الماء . وقالت الثالثة انه الفكر فلولا الفكر لما كانت الحركة . واذ لم يتفقن على رأي واحد سألن الرابعة فأجابت ان كلاً من اخواتها اصابت في ما ارتأت . فالحركة انما هي في الخشبة وفي الماء وفي افكارهن ايضاً . فما كان منهن الا انهن اخذن بخناق الرابعة وقذفن بها الى النهر . ولماذا ؟ لان كلاً منهن لم تقبل على نفسها ان يقال في رأيها انه لم يكن كل الصواب بعينه وان آراء رفيقاتها لم تكن الا خطأً محضاً »

لله ما اكثر امثال هذه الضفادع بين الناس ! فكم من ضفدعة بشرية على رأسها تاج سلطة مدنية او دينية لا ترى حقاً الا في دياناتها او سياستها . وكم من ضفدعة بشرية يجرها ناموس الكائنات فتحسب انها تجر الكائنات بناموسها . ولكم من ضفدعة انسانية تسمع صدى الحقيقة من بعيد فتخال انها وحدها قد ادركت كنه الحقيقة بأسرها وان سواها يخبط في الضلال . ولكم تألبت امثال هذه الضفادع على ضفدعة مسكينة تجاسرت ان تنظر الى الحق كإلى دائرة شاملة لا أول لها ولا نهاية فكان نصيبها إما الصليب واما الحجارة واما النار !

ومن منا لا يمثل دور الضفادع الثلاث كل يوم من ايام حياته

ان لم يكن في علانيته ففي سره ؟ اما دور الضفدعة الرابعة فلا يمثله الا جبابرة الروح . وما اقلهم بيننا !

ها كم مثلاً ثالثاً :

قطعة من الورق بيضاء كالثلج تقول في نفسها : « نقية خلقت ونقية سأبقى الى الابد » فسمعتها المحبرة واقلام الرصاص الملونة بجانبها فلم تجسر ان تدنو منها . وهكذا بقيت تلك الورقة الى الأبد بيضاء ونقية — وفارغة .

اواه لو يعلق هذا المثل الصغير على باب كل كنيسة وكنيس وجامع وخلوة ! ورحمة الله على تربة جدتنا حواء التي لم ترض ان تبقى الى الابد نقية طاهرة ، وغير مدنسة بمعرفة الخير والشر !

لقد اخترت هذه الامثال الثلاثة لا لأنها أبدع ما في الكتاب بل لأنها تنم عن بقية الأمثال التي لا يسعني ذكرها وبينها تفاوت في الجمال وبعد النظر . فمن الأمثال التي لا تزيد في قيمة الكتاب كثيراً . مثل « ملك ارادوس » ومثل « الشعراء » ومثل « الناقدين » ومثل « الملك المتنسك » « والذات الكبرى » ومن الامثال التي ليس الكتاب كاملاً بدونها مثل « المغفل » و « الاستبداد » و « القديس » و « المقاييس » و « البحور الاخرى» و « التوبة » ومثل « العالِم والشاعر » وفي هذا الاخير قد دمج جبران الشعر البديع بالنقد البسيط بطريقة قلما يجاريه

فيها أحد . فقد صوّر العالِمَ في هيئة ثعبان يرود احشاء الارض ويدرسها لكنه لا يحلم بجمال الفضاء الأعلى ولا يعرف اسراره . اما الشاعر فقد صوره في هيئة شحرور يجوب الفضاء حراً مرنماً مستحماً بنور الشمس متنعماً بزرقة السماء . فيحاول الثعبان أن يصرف نظر الشحرور عن السماء الى الارض — الى ما في جوفها من المعادن الثمينة والحجارة النفيسة . فيجيبه الشحرور محدثاً عن جمال الشمس والفضاء ويختم حديثه قائلاً : «اسفاه انك لا تطير . اسفاه انك لا تغرد . » هو ذا العالم المنكب على درس المادة وخصائصها . وهو ذا الشاعر السابح في ملكوت الروح . فلا تسألوني ايهما يفضل جبران خليل جبران على الآخر . . .

للسابق كما « للمجنون » قصائد منثورة عدا الامثال وهذه القصائد تعيد الينا ذكر جبران كما عرفناه في « دمعة وابتسامة » وفي « العواصف » لأن فيها حنين روح تصبو الى ما وراء المحسوس وتتألم من قيود المادة . واذا كان « السابق » اغنى من « المجنون » بأمثاله فهو افقر منه بقصائده المنثورة فللمجنون قصائد خلابة لو جئت أميز بين احداها والأخرى من حيث الجمال في المبنى والمعنى لوقعت في حيرة . هناك قصيدة « الله » و « يا صاحبي » و « الذوات السبع » و « في خيبتي ظَفري » و « الليل والمجنون » و « على الصليب » و « عندما ولد لي الفرح » و «عندما

ولد لي الحزن » واخيراً قصيدة « العالَمِ الكامل » .

اما قصائد «السابق» فلم اجد بينها ما يقاس بقصائد « المجنون » الا اربعا وهي فاتحة الكتاب حيث يعرفنا « السابق » بنفسه

ثم قصيدة بعنوان « من عمق اعماق قلبي » ثم « الرجل المنازع والشوحة » وأخيراً خاتمة الكتاب حيث يودع « السابق » الناس . وابلغ هذه القصائد معنى هي « الفاتحة » حيث يحدثنا « السابق » عن تسلسل الوجود وتتابع الحياة : كلنا سابق لنفسه . وما نحن عليه اليوم سيكون أساساً لما نصبح فيه غداً . فحياتنا الحاضرة هي لاحقة لحياة مضت قبلها وسابقة لحياة ستأتي بعدها . والحياة الآتية بعدها ستصبح بدورها سابقة لحياة اخرى . وهكذا بلا نهاية . نزرع في هذه الحياة ما جنيناه في حياة سابقة . ثم نحصد ما زرعناه في هذه الحياة لنعود ونزرعه في حياة بعدها . فنحن الحقل ونحن الزارعون . ونحن الحصاد ونحن الحاصدون .

اما قصيدة « الرجل المنازع والشوحة » فهي من نوع الشعر المطلق (غير المقفى) وهي خطاب رجل في حالة النزع الى شوحة تحوم فوق رأسه وتنتظر بفارغ الصبر ساعة تنفصل الروح عن الجسد لتنقض على الجثة الهامدة وتغرز منقارها فيها .

ان وصف قصيدة كهذه القصيدة او تعريبها لما يحط من جمالها فقد قرأتها بدل المرة مرات . وكلما قرأتها مرة زاد اعجابي بها . فمن

أحب أن يدرك كل ما فيها من الدقة والرقة فليطالعها في الاصل . وان كان يجهل الانكليزية فمن سوء حظه .

انّ من اكبر النكبات التي تحل بالشاعر والكاتب وابن الفن أن تنفد مواهبه فلا تبقي فيه جراثيم جديدة للنمو . فيبدأ يعيد نفسه أو يرجع القهقرى . اما جبراننا فبعيد عن مثل هذا الخطر . لأني أراه يتجدد من عام الى عام . ويخيل اليّ في بعض الاحايين ان ما رشحت به مواهبه حتى اليوم لم يكن سوى قطرات من الينابيع التي ستتفجر من روحه فيما بعد . وما دام له من نفسه سابق ولاحق فكل ما يصدر من قلمه سيكون لنا نبأ بأنه سابق وبأن له لاحقاً

فنبقى بانتظار اللاحق

وها نحن بانتظار لاحق « السابق »

ابتسامات ودموع

او « الحب الالماني » لمكس مولر

(معربة عن الالمانية بقلم الانسة « مي » — طبعة ثانية — مطبعة الهلال)

***

« غاية الحياة » — للآنسة « مي »

محاضرة القتها في الجامعة المصرية بدعوة « فتاة مصر الفتاة » مطبعة المقتطف والمقطم

عند ما تتحفنا « مي » بقصيدة منثورة نتلوها ونطرب . وعند ما تفاجئنا ببحث انتقادي دقيق نطالعه ونعجب . لكنها عند ما تعرب لنا رواية من الطبقة الثانية او الثالثة بين الروايات نطالعها ونسكت . وعند ما تتفلسف لنا في « غاية الحياة » نضيع معها بين جبال من المفردات السمينة والعبارات المنمقة ولا ندري أنسكت أم نصرخ .

اني لأظلم نفسي ، واظلم « مي » اذا فهم القارىء من هذه النظرة الاجمالية في « ابتسامات ودموع » و « غاية الحياة » انني اقدّر بها منزلة هذه الكاتبة الموهوبة في عالمنا الادبي . فمي شاعرةً ومي ناقدةً ، غير مي متفلسفة ومترجمة ومكانتها لا تقاس بهذين الكتيبين . لذلك ما اقوله فيهما لا يتعداهما الى ما كتبته مي وما ستكتبه

لعل اغرب ما في كتاب « ابتسامات ودموع » مقدمته . وأغرب ما في المقدمة اعتراف المترجمة بأنها عربت الكتاب يوم لم يكن لها من إلمامٍ بالالمانية سوى ما تلقنته منها في «عشرين درساً او اكثر قليلاً » ! ليقل القارىء ما شاء في هذه « الشجاعة الادبيـة » . إما انا فأخرس امام مشهد فتاة سورية تعرب كتاباً بكامله عن لغة لا تعرف من روحها واساليبها وتراكيبها سوى ما نالها منها في عشرين درساً او « اكثر قليلاً » ثم تورد لنا ما قاله « احد الادباء » عند اطلاعه على تلك الترجمة في ذيل المحروسة « أسائل ذاتي ساعة أقرأ ذيل المحروسة أ أنتِ ناقلة مكس مولر الى العربية ام هو ناقلك الى الالمانية ؟ »

اذا ما اخذنا على مي هذه الهفوة فلنشكر لها في الاقل اخلاصها للمؤلف الالماني . فهي لم تقف عند ترجمتها الاولى . بل بعد أن نفد ما طبعته منها اعادت النظر فيها فأهملت ما زاد واضافت ما نقص . واصدرت طبعة ثانية تقيدت فيها بالاصل « معنى وتعبيراً » وهذه الطبعة هي امامي الآن

لقد استغربت المقدمة التي ارسلتها المعربة لهذه الطبعة لا لأنها غريبـة في ذاتها . بل لانها غريبة في محلها . فلا علاقة بين تسعة اعشارها و بين الكتاب . فالغاية من المقدمة لكتاب هي اما تعريف

القارىء بروح الكتاب ، او جلاء بعض غوامضه ، او بسط بعض الظروف التي تساعد على فهمه ، او شرح القصد من تأليفه او ترجمته ونحو ذلك . فحسن من هذا القبيل ان نعرف ان المعربة طالعت « الحب الالماني » لاول مرة في صيف سنة ١٩١١ يوم كانت مصطافة في ظهور الشوير بلبنان . وجميل ان تخبرنا عن انها لم تفرغ من الفصل الاول حتى تملكتها « روحه الشعرية الفلسفية وارهفت ذهنها » . لكنها لا تكاد تقول لنا كلمة عن الكتاب حتى تحلق بخيالها في سماء لبنان . فتأخذنا الى « كوخها الاخضر » بظهور الشوير . ثم ترتفع بنا الى شواهق صنين وهناك تسبح متأملة في البشر وحياتهم . متغزلة بالطبيعة . متفلسفة في « الفكر » وفي تأملاتها وتغزلها طلاوة شعرية . وعذوبة موسيقية . ونفحة لبنانية . لو أُخذت وحدها لجاءت قصيدة حلوة رنانة . لكنها حيث هي تجعلنا نسأل — اين العلاقة بينها وبين « الحب الالماني » ؟

اما الكتاب ، فكما طالعناه معرباً بلغة مي الطلية ، فجميل ومؤثر . ولكننا لا نراه « آية سحر وبراعة » ولا « مهبط وحي للنفوس الحساسه » مثلما تراه المعربة فهو كدرس بسيخولوجي ، لا يخلو من تحاليل دقيقة ونظرات بعيدة في بعض المراحل التي نقطعها في الحياة بين دور الحداثة ودور الشباب . فالمؤلف يفتح امامنا فصولاً متقطعة من كتاب حياته وفي كل فصل يصور لنا عثرة من

العثرات الكثيرة التي تضعها المدنية الزائفة في سبيل الروح الطاهرة فتحيدها عن طريقها القويم . مثال تلك العثرات طقوس البشرية بكل انواعها وعاداتها وسننها ، والمقاييس الاصطلاحية التي تقيس بها الخير والشر والعدل والظلم ، والصلاح والطلاح والتي تجلها روح الولد لانها تقيس الامور بالمقاييس الطبيعية قبل ان يشوهها الفكر البشري . هكذا فليس في نظر الولد من طبقات اجتماعية . بل جميع الناس عنده سواء غير ان المدنية لا تبطىء أن تحفر في فكره النقي نواميسها وتقاليدها وتقاسيمها . فتعلمه ان ليس كل الناس ناساً . بل ذاك ملك . وذا امير . وذا تاجر غني . وذاك فلاح فقير . وذا قريب . وذاك غريب . وذا يخصني . وذاك يخص سواي الخ . وفي « الذكرى الثانية » من « الحب الالماني » صورة جميلة لهذا الاصطدام المؤلم بين مفهوميات الولد الطبيعية و بين مفهوميّات محيطه الاصطناعية

حدث ليلة ان انطلق ابوا المؤلف — وهما كما يظهر من الطبقة المتوسطة (بورجوازي) — لزيارة امير من جيرانهما . واخذا ابنهما الصغير برفقتهما بعد أن القيا عليه دروساً في كيف يجب ان يسلك في بيت الامير . وكيف يجب ان يخاطب الاميرة بقوله « سموك » لكنه عند ما وقعت عيناه على الاميرة وانس في وجهها لطفاً ،

نسي كل ما تلقنه من ابويه ، ونسي الفواصل الاجتماعية التي تفصله عن الاميرة فاندفع نحوها بقلبه الطاهر وطوق عنقها بذراعيه الصغيرتين وقبلها كما يقبل والدته . فكان جزاؤه أن حنق والده عليه فأخذه من يده ودفعه بجفاء قائلاً انه صبي « شرير » . ولما راح يشكو بلواه وحيرته لأُمه اجابته « وكيف فعلت ! هؤلاء الناس اشراف اماثل . وهم غرباء عنا »

لو اقتصر المؤلف على هذه النظرات الاجتماعية ، النفسية في تذكاراته ، كما فعل ذلك اناتول فرانس في كتابه « بتي بيير » لجاء كتابه درساً ملذاً مفيداً . لكنه يمزج هذه النظرات بمسحوق قوي من « السنتمنتاليزم » فقد اكثر فيه من «أواه» و «لوعتاه» و « واحسرتاه » و «واحرّ قلباه » «فالسنتمنتاليزم» — ولا أجد له تعريفاً في العربية اقرب من قول من قال — « زاد في الرقة حتى انقطع » — يكثر من الشكوى ، ومن النحيب ، والشهقات والدموع ، حتى ليغص بشهقاته ويغرق بدموعه ، وقد لعب دوره على مسرح الآداب الغربية . ثم توارى وراء الستار ولم يبق بين المتفرجين من يذكره ولو بصفقة كف على كف . وكأنه بعد انخذاله في الغرب راح يبحث له عن مسرح جديد . فعثر على شرقنا الصغير . وهناك وجد العيون الدامعة كثيرة والقلوب الشاكية اكثر.

فضرب في مصر وسوريا خيامه . ونزل فيهما بخدمه وحشمه ضيفاً كريماً عزيزاً

ان « الحب الالماني » هو حب بطل الكتاب لابنة الامير المذكور سابقاً . واسمها الكونتس ماري . فقد تملكه هذا الحب لأول تقربه من الفتاة يوم كان لا يزال صبياً يلعب مع اخوانها واخواتها ، وهي فتاة مقعدة بمرض مزمن ، لا تبرح الفراش . وبالطبع (وطبقاً لشرائع السنتمنتاليزم) كانت ملاكاً في جسم بشر . مرت اعوام وتلتها اعوام ، واصبح الصبي شاباً ، وحب ماري ينمو ويتمدد في قلبه . الى ان لم يعد في وسعه الصبر والكتمان فكاشفها حبه بعد عراك داخلي طويل . وطلب يدها . لكنها — واحر قلباه — كانت قد عرفت من طبيبها ان ايامها معدودة . وكان قد جاءها كتاب من اخيها الامير يسألها ان تقطع كل علاقة بينها وبين الشاب الذي مال اليه قلبها نظراً لما بينها وبينه من التفاوت المدني . لذلك اجابته بغصة وحرقة —

« ان اسفي لألمك شديد . ولكن قل لي انك تعفو عني . ولنفترق صديقين كما التقينا »

غير ان « الحب الالماني » ليس ليندحر امام وجه التقاليد العقيمة . فبدلاً من ان يشكر المحب لحبيبته اسفها « لألمه الشديد » ويتركها لتلفظ آخر انفاسها على مهلها ، راح يلقي عليها موعظة طويلة

عن فساد المدنيــة وفساد قوانينها وطقوسها ويدعم اقواله ببراهين من « علماء الاحصاء » بأن « عدد القلوب المتفطرة يوازي عدد الساعات » فكان لموعظته ولبراهينه التأثير المرغوب . اذ ان ماري ، وهي في حضرة الموت ، « زفرت زفرة عميقة » على اثر سماعها تلك الموعظة وهمست هذه الكلمات المؤثرة — « اغتفر لي يا ربي كل هذه السعادة ! والآن اذهب ودعني وحدي لعلنا نلتقي مرة اخرى يا صديقي ومحبوبي ومستودع غبطتي ! »

فعاد العاشق المتيم الى غرفته ونام . وبعد انتصاف الليل جاءه الطبيب بخبر انتقال حبيبته الى حضن خالقها . وبخاتم منها ملفوف بورقة عليها هذه الكلمات — « كل ما لك هو لي - خاصتك ماري »

وكأن المؤلف خاف أن تبقى في مقلة القارىء ولو دمعة واحدة بعد هذه الفاجعــة . فختم كتابه باعتراف من الطبيب الى حبيب الراحلة بأنه كان مغرماً بوالدتها . وانه اضطر ان ينفصــل عنها بعد أن علق بحبها امير من امراء بلاده . وانه من اجلها غادر المدينة ولم يرها بعد ذلك الا على فراش الموت يوم وضعت ابنتها الفقيدة — فلينثر الدمع من في عينيه دمع !

هذا هو « الحب الالماني » وليس ما يدعو فيه الى الاسف سوى ان مي لم تصرف وقتها في ترجمة كتاب افضل منه بل حرام على كاتبة من طبقــة مي أن تتلهى بالترجمة ، ولها من عواطفها

وافكارها ما تقدر ان تنسج منه قصائد وروايات ومقالات كثيرة

غاية الحياة

ان الحياة جوهر عجيب لا يتجزأ ولا يتحلل . ويستحيل ادراك بعضه الا بادراك كله . وجلي ان ما لا ندركه لا ندرك الغاية منه . واذا ما حاولنا تقسيمه الى اصول وفروع وحددنا غاية هذا الاصل وذاك الفرع فما نحن الا خادعون انفسنا

ما زلنا نجهل مصدر الحياة الكونية ومصيرها فنحن نجهل كل ما في الحياة من ذرة الرمل الى اكبر السيارات واقصاها ،هكذا فقد ندرس حياة الجماد ، وحياة النبات ، وحياة الحيوان ، وحياة الانسان . لكننا ، مع ذلك ، نظل قاصرين عن ادراك غاية الجماد والنبات والحيوان والانسان . لان لكل هذه علاقات خفية بالحياة الشاملة . ونحن قاصرون عن الاحاطة بالحياة الشاملة . وعن ادراك النواميس التي تربطنا بها . فأنى لنا ان ندرك غايتنا منها وغايتها منا ؟

لذاك فكل بحث في « غاية » الحياة — سواء أأخذنا الحياة بمعناها الشامل أم بمعناها المحصور قاصدين الحياة البشرية الارضية فقط — ليس سوى تكهن وتخمين . وحيث جاز التكهن اتسع المجال لكل ذي فكر ان يظهر فكره ولكل ذي رأي ان يبدي رأيه . فأمر نجهله كلنا على السواء لامر يصح فيه رأي كل واحد على

السواء وليس لنا ان نحتم بخطأ هذا الرأي ولا بصواب ذاك بل جل ما يحق لنا فعله هو تقديم رأي على رأي بالنظر الى ما يجلوه لنا الواحد او الآخر من غوامض الحياة وما يجيب عليه من الاسئلة التي نقف تجاهها كل يوم صامتين ، حائرين ، معذبين . وليس هذا التقديم او التفضيل الا نسبياً اذ انه يتوقف على مداركنا وميولنا وفطرتنا

هكذا ، عند ما تقول لنا مي ان غاية الحياة البشرية هي السعادة . وان السعادة في العمل . لا نقول لها اخطأت او اصبت . كلا . ولا نحاسبها بما اذا كان رأيها رأياً جديداً او اذا كان قد سبقها اليه الكثيرون . بل نصغي الى كل ما تقوله باحترام لنرى ما اذا كان فيه جلاء لغامض او جواب على سؤال ، او مسلك لتائه . وبعبارة اخرى ، نعيرها انتباهنا لنرى ما اذا كانت تقنعنا بصحة ما ترتئيه . ولا اقناع الا بالحجة

لا شك عندي في ان السيدات اللواتي سمعن خطاب مي في الجامعة المصرية صفقن له تصفيقاً حاداً اكثر من مرة وفي اكثر من موقف واحد . ومما لا شك فيه كذلك انهن انطلقن الى بيوتهن معجبات بحلاوة الخطاب وبراعة الخطيبة انما غير عالمات « عن غاية الحياة » اكثر مما كنّ يعلمن حين دخلن قاعة الخطابة . وذلك لان الخطيبة انصرفت الى نحت الفاظها وصقل عباراتها اكثر مما

انصرفت الى ربط افكارها وتسلسل براهينها . فكانت مقودة بقوالبها اللغوية اكثر منها بتحاليلها الفلسفية . فجاء ما قالته طلياً ، جميلاً ، منمقاً كتمثال من رخام . اما روح ذلك التمثال فظلت مدفونة في قلبه الحجري

ان ما تقوله مي في العمل لجميل وراجح اذا أُخذ بحد ذاته . فالعمل هو « الذي ينير العقل ، ويفتح القلب ، ويملأ الوقت ، ويحبو الحياة طعماً لذيذاً ، ويروّح النفس الواجمة ، ويرضي الطباع الساخطة ، ويصرف العواطف المتلازبة في منافذ ومخارج حسنة العائدة على المرأة الواحدة وعلى من يلوذ بها . . . . ولا فرق بين نوع العمل من علم وفن وخياطة وتطريز وتدبير منزل او بيع في المخازن . . . وليس منظف الشوارع بين الغبار والاقذار بأقل اهمية من الرجل العظيم في قصره بين التهليل والاكبار ولا هو اقل نفعاً لأمته وللانسانية »

ان مثل هذا القول لقول جميل غير ان الصعوبة هي في تطبيقه على حياتنا اليومية كما نعرفها . فمع كل اعتبارنا لرأي الخطيبة لا نرى كيف ان تنظيف الشوارع او مسح الاحذية مثلاً — « ينير العقل ، ويفتح القلب ، ويحبو الحياة طعماً لذيذاً ، ويروح النفس الواجمة ، ويصرف العواطف المتلازبة في منافذ ومخارج حسنة العائدة . . . » الخ . . .

ولو كان لكل منا ان يعمل ما يميل اليه بالفطرة لسهل علينا ان نوافق مي في رأيها . لكن العاملين مرغمين اضعاف اضعاف العاملين مخيرين . فكيف لإنسان ان يجد السعادة في عمل تجبره الحاجة القاهرة والنظام الاجتماعي القاسي على ممارسته دون ايما رغبة فيه او ميل منه اليه ؟

ان الخطاب الذي يرجى به الاقناع مقدمة فشرح فاستنتاج . والثلاثه مترابطة بعضها ببعض كحلقات في سلسلة . ومي في خطابها شاءت ان تقنعنا بأن العمل هو السبيل الوحيد الى السعادة . لكنها قدمت الينا النتيجة من غير ان تبسط امامنا من الحجج المتلاحقة ما يوصلنا الى تلك النتيجة دون سواها لذاك وان سدلت عليها نقاباً جميلاً من عذب الالفاظ والتراكيب نراها تترك في قلب السامع او القارىء عطشاً ، وفي رأسه اسئلة اهمها :

« وكيف لنا ان نحصل على السعادة بالعمل ؟ »

اغاني الصبا

نظم محمد الشريقي

مطبعة الحكومة العربية بدمشق — سنة ١٩٢١

* * *

لقد شاء ناظم « اغاني الصبا » ان يكون له ديوان فكان له ديوان . وقد دعاه « مجموعة قصائد وجدانية في قالب وصفي روائي تمثل روح الناظم في مدارج الحياة منذ الطفولة حتى آخر سني المدرسة » . اما هذه القصائد « الوجدانية » الوصفية الروائية — وكلها من البحر الخفيف — فهي كما يلي

حول المهد . يوم الصبا . على شاطىء البحر (او نظرات في الطبيعة والحياة) . بوق المدرسة . حياة التلميذ . نجوى العقل . الضباب (او بين المدرسة والمجتمع)

ولم يسه عن بال الناظم ان يزين ديوانه برسمه . بل قد زينه علاوة على ذلك بسبعة رسوم « رمزية » — لكل قصيدة رسم . فجاء الديوان جديداً بموضوعاته وطبعه . لكنه ، ويا للأسف ، — لم يأت جديداً لا بخياله ، ولا بعواطفه ، ولا بأفكاره . فهو فقير بالشعر . وليس غنياً حتى بالنظم

ان في « اغاني الصبا » شاعرية لا تزال محصورة الفكر ، محدودة الخيال ، ضيقة المجال . فهي تحوم حول ظواهر الحياة ولا قوة لها على اختراق القشور توصلا الى اللباب . اذا نظرت الى الام وطفلها فلا ترى في الام والطفل غير ما تراه كل عين . ولا تسمع في نشائد الام قصيدة الامومة الشاملة والطفولة الساكتة التي لا تسمعها اذان العابرين انما تعيها مسامع الشاعر . وان عبرت بمدرسة رأتها منبت العلم والنور ، والحرية والعرفان ، والكمال . وان عادت الى عهد الصبا لم ترَ فيه من جمال سوى خلوه من الهم والتفكير . وان تأملت في الحياة راعها من العقل البشري اكتشافاته العلمية والميكانيكية قبل كل شيء . فهي طفلة بما تقوله ، وبما تراه ، وبما تعجب به . لكنها تحاول قول ما تقوله لا بلهجة مألوفة ، بل بلهجة تتخللها بعض نبرات جديدة . وهذا مما يشفع بها ويحببها الينا

اما الرسوم في الديوان ، التي شاء الناظم ان يدعوها رمزية فرسوم صبيانية لامسحة عليها من الفن . بل هي من النوع الذي لو رأينا ولدا في المدرسة يرسم مثلها لقلنا — قد يكون هذا الولد رساماً يوماً ما

لو اخذنا ديوان « اغاني الصبا » بكل ما فيه لوجدناه نموذجا صادقاً لآخر تطور الذوق الشعري في سورية . ففي شعراء الوطن

اليوم نزعة الى الاقلاع عن كل مطروق من الأبواب الشعرية. غير انهم في جدهم وراء الجديد لم يفلحوا حتى الآن الا بتنويع العناوين التى ينتقونها لقصائدهم اما القصائد التي تتضمنها تلك العناوين فتبقى غير منظومة لانهم يرفرفون حولها رفرفة الفراش حول السراج.

ومما يستلفت النظر من هذا القبيل ان الواحد منهم — رغبة في إلباس قصائده حلة جدية، فلسفية، علمية — يكثر في القصيدة الواحدة من ذكر العلماء والفلاسفة والاكتشافات الحديثة. ثم يتبع ذلك بشرح طويل عن ذاك العالم او الفيلسوف. وعن تلك القضية الفلكية. او هذه الحقيقة العلمية. وهذه « موضه » جديدة قد يدعوها البعض « شعراً علمياً ». مثال ذلك في « اغاني الصبا » القصيدة المدعوة « نجوى الروح ». فقد وردت في اول ابياتها كلمة « برج » فشرح لنا الناظم معناها « في اصطلاح علم الفلك ». كذلك تفضل علينا بتفصيل اسرار الجاذبية لأن في القصيدة بيتاً فيه هذه الكلمات:

« انا لولا نظام قوة جذب الخ » ومثل ذلك « نجمة القطب » و« البدر المنير » اما ورود اسماء « لابلاس ودروين والمعري و نيوتن » فقد جاءنا بفذلكة من تاريخ كل هؤلاء المشهورين حتى ليخيل إلينا ان الناظم ما اورد اسماءهم الا ليرهبنا بسعة اطلاعه ووفرة علمه.

قد تجرح هذه الكلمات ناظم « اغاني الصبا » وقد تجرح سواه . لكن في الشريقي شاعرية متى امتلكت قواها ، فتجنح خيالها ، واتسع افق بصرها ستعود فتضحك من اغانيها «الصبيانية»

النبوغ

تأليف لبيب الرياشي

المطبعة العلمية — صادر — بيروت — سنة ١٩٢١

يحكى عن الدكتور دجنسن ان احد اصدقائه سأله مرة ابداء رأيه في كتاب . فأجاب الدكتور — « احب الي ان امدح هذا الكتاب من ان أقرأه »

وهذا كان لسان حالي مع كتاب « النبوغ » بعد ان اتيت على مقالته الافتتاحية عن « مهندس الكون الاصغر »

« . . . مهندس الكون الاصغر . عجيب مهندس الكون الاصغر . يركب المواد فتعظم المواد . ثم تعصر المواد . مهندس الكون الاصغر . مخدوع مهندس الكون الاصغر . وعجيب مهندس الكون الاصغر . . . مبدع ضعيف مهندس الكون الاصغر . ومدهش مهندس الكون الاصغر . . » الخ

ان الذي يقصده الكاتب « بمهندس الكون الاصغر » هو الدماغ لا الفكر ، ولا اظنه يفرق بين الاثنين . فالدماغ في عرفه هو الفكر ، والفكر هو الدماغ . واذ ان النبوغ هو ابعد واسمى مانعرفه من مظاهر الفكر ، والفكر بالدماغ ، فجلي ان درس النبوغ يتوقف

في نظر المؤلف على تشريح الدماغ . لذلك يأخـذنا في منعرجات تشريحية طويلة وقصيرة . فيضع الدماغ في الميزان ويرينا ان « ثقله ١٣٠٠ — ١٥٠٠ غرام . وان علا ٢٤٠٠ » ثم يشج امامنا رأس نابغة ويستخرج من جمجمته دماغه ليرينا ان كبر عقله انما يتوقف على كبر دماغه . وأي دماغ ؟ الجواب :

« الدماغ الغزيرة مادته النخاعية السنجابية

« الدماغ السليمة اليافه العصبية . الدماغ السليم جهازه الشوكي »

« الدماغ السليمة اعصابه المتوزعة في اقسام الجسم . الدماغ المتناسبة اعضاء جسمه مع تقاطيع حجمه . » الخ

وبعد ان يعرفنا الكاتب بتركيب دماغ النابغة يعيـد الدماغ الى الجمجمة ، ويعيد الجمجمة الى اصلها ليرينـا النسبة بين دماغ النابغة وتقاطيع وجهه . فيقيس لنـا طول الجبهة وعرضهـا . وطول الانف بالنسبة الى الجبهة . وطول ما تحت الانف حتى طرف الذقن بالنسبة الى الانف وبعد العين عن العين والحاجب عن الحاجب . والاذن عن الاذن الى ما هنالك من القياسات الفراسية . فلا ننتهي من هـذه التحاليل والتعاليل حتى نهمّ بأخذ خيط نضعه في جيبنا لنقيس به جباه كل من نعبر بهم في الشارع وانوفهم وذقونهم ونقرر ما اذا كان بينهم من نابغة .

اما وقد عرفنا الآن ما يجب لنا معرفته عن ثقل دماغ النابغة

واليافه العصبية . ومادته السنجابية . وعرفنا كذلك النسبة الكائنة بينه وبين تقاطيع وجه النابغة . فلم يبق علينا الا ان « نفبرك » نوابغ . وما ذاك بالامر العسير . فليس على من شاء ذلك الا ان يعمل بإرشادات كاتب « النبوغ » في فصله عن « كيفية ايجاد نوابغ فنياً » . او لم يحصل يعقوب يوم كان يرعى قطعان خاله لا بان على نعاج ملونة باستعمال حيلة بسيطة ؟ وما الفرق بين الناس والنعاج الا زهيد . اللهم عند من عرف كل اسرار الوراثة والتناسل كما عرفهما صاحب «النبوغ» . اما ان في الحياة قوى تتعدى قوى الوراثة والتناسل ، فتخلق محمداً واحداً في مائة وثلاثين قرناً . وشكسبير واحداً في ثلاثة قرون ونابليون واحداً (وصاحب « النبوغ » يكاد يؤله نابوليون) في اكثر من مائة وخمسين سنة ، او ان في المسكونة مهندساً يعتبره بعض بسطاء القلب والعقل اكبر من « المهندس الاصغر » وان هذا المهندس الاكبر يكيف الاصغر كما يشاء ، لا كما يشاء كاتب « النبوغ » و « مجامعه العلمية » — فما في كل ذلك من سر . ولا هو بالامر الكبير . . .

ان من يتصفح كتاب « النبوغ » مثلما تصفحته انا متوقعاً ان يجد فيه درساً مشبعاً في النبوغ والنوابغ سيلقى ما لقيته من الخيبة ويترك الكتاب كالخارج من مجتمع تبلبلت السنته وعلت ضوضاؤه .

فليس في الكتاب سوى بضع فصول مشوشة حاول المؤلف فيها ان يحلل النبوغ . وما بقي ففصول مختلفة كتبت في احوال مختلفة . بعضها سياسي . و بعضها تهذيبي . وبعضها انتقادي . حتى ليحتار القارىء في العلاقة بين هذه الفصول و بين اسم الكتاب . الا اذا رأى المؤلف ان يجمعها تحت هذا العنوان لان كلمة « نبوغ » او « نابغة » واردة في بعضها .

لقد قلت اني تركت الكتاب وانا كالخارج من مجتمع تبلبلت السنته وعلت ضوضاؤه . ولعل الاحرى بي ان اقول اني شعرت كمن نظر طويلا الى وجه بركة عكرتها الريح فكانت تتراءى له بين اللحظة والأخرى بعض اشباح وتماثيل منعكسة على وجه الماء . ففي بعض فصول الكتاب تلوح للقارىء خيالات وافكار قد تكون جميلة وجليلة لو كانت جلية . حتى ان المطالع ليجهد نفسه في استجلاء غوامضها اكثر مما اجهد الكاتب نفسه في ابراز ما ابرزه من خطوطها المبهمة .

ان في لبيب الرياشي كلمة يحاول لفظها . لكنه لم ينطق بها في كتابه « النبوغ »

شكسبير خليل مطران[١]

ان في اقدام خليل مطران على نقل شكسبير الى العربية شجاعة تؤهله لاعجابنا . ففي اقتحام صعاب الامور من الفضل ما يكاد يوازي فضل التغلب عليها . وليس مغامر خاض المعامع فسقط اقل ثواباً ممن خاضها وفاز بالغلبة وبروحه . لذاك فلنهتف « برافو » لمعرب شكسبير قبل ان نقابل بين شكسبيره وشكسبير « ستراتفورد ابون ايفون »

لو كان في عالم الادب اكثر من شكسبير واحد . ولو لم يكن شكسبير بين الشعراء كقمة « افرست » بين القمم لما كان من كبير صعوبة في نقله الى أية لغة كانت . لكنه واحد ليس له ثان . والاجيال التي عقبته ما كانت الا لتزيده تفرداً وسمواً . وقد احاطته بهالة من الطهر والقداسة تضارع الهالات التي تحيط بها الانسانية ابناءها واركان ديانتها . فابن الادب يقترب من شكسبير بخشوع ورهبة كما يقترب ابن الدين من اولياء دينه .

لا غرض لنا ان نبحث الآن في ما اذا كان شكسبير قد نال

---

(١) تاجر البندقية — رواية تمثيلية لشكسبير . نقلها الى العربية خليل مطران . مطبعة الهلال سنة ١٩٢٢

هذه المنزلة الرفيعة في عالم الادب بحق او بغير حق . انما قصدنا تذكير القارىء بأن العالم الادبي قد أقر له بهذا التفوق . وانه ينظر اليه نظره الى نبي . والى مؤلفاته كإلى موحيات وآيات منزلات . وفي ذاك سر الصعوبة في نقله . اذ انك قد تترجم الى العربية رواية لهيغو او لتولستوي (وكلاهما من فحول الادب) فتهمل عبارة او تضيف عبارة . وتتصرف في الاصل بما تقتضيه ضرورة الترجمة دون أن تفسد على المؤلف رأيه وقصده . لكن ذلك لا يتسنى لك مع شكسبير . اذ قلما تجد فيه كلمة زائدة او عبارة محشوة او فكراً يمكنك اسقاطه من الرواية دون ان تزعزع بذلك بنيان الرواية بأسره . ناهيك عن ان بين افكاره وبين اكسيتها اللغوية ترابطاً هو غاية في الدقة والفن . وهذا الترابط هو ما يكسبها جلالها الملوكي . وسلاستها السحرية . ورنتها الموسيقية . فمن ترجمها دون جلالها وسلاستها ورنتها يكون كمن اخذ من الشجرة ساقها بعد ان عراه من الفروع والغصون والاوراق . ونخشى ان يكون هذا ما فعله خليل مطران في تعريبه « تاجر البندقية »

تمنينا لو ان المعرب اشار الى الموارد التي لجأ اليها في ترجمة الرواية . فقد لاح لنا من غضون بعض سطوره انه نقلها عن ترجمة افرنسية لا عن اصلها الانكليزي . والا من أين جاء بكلمة « موسيو » وبأية حيلة من الحيل اللغوية تمكن من ان يترجم كلمة

GENTILE الانكليزية (وهي تعني نصرانياً او كل من ليس عبرانياً) بكلمة « لطيفة » في حديث غراتيانو عن جيسكا ابنة شيلوخ اليهودي ؟ ام كيف اسقط سطوراً كثيرة في مشاهد مختلفة هي في الاصل لا للزركشة بل لتتميم قصد المؤلف ؟ مثال ذلك تتمة حديث بين انطونيو و باسانيو بعد ان يتركهما شيلوخ في آخر الفصل الاول . وخطاب وجواب بين لنسلو وابيه جوبو في المشهد الثاني في الفصل الاول وذلك بعد ان قال لنسلو «لا يهمنا ابوه الخ » ونقص في جواب برسيا لامير اراغون حيث تقول . « هذه هي الشروط » يراه من يرجع الى الاصل . ونقص اكبر منه في خطاب الامير الذي يلي ذلك الجواب . وكذلك في طلب انطونيو الى المحكمة ان تترك لشيلوخ نصف امواله حيث يقول . « ولي على تحقيق هذا العهد شرط . وهو ان يوقع الآن الخ » وفي الاصل شرطان بدل واحد . اولهما ان يتنصر والثاني هو ما ورد في الترجمة. وفي هذا الفصل عينه قد قضى المترجم على المشهد الثاني برمته !

هذا بعض ما رأيناه في الترجمة من سوء التصرف . او التسرع . او قلة الانتباه . ولعل ما اهمله المترجم قد جاء مهملاً في الترجمة الافرنسية التي نقل عنها . وما ذاك عذر له . واذا صح ظننا بأنه نقل الرواية عن الافرنسية كان لومنا اشد . اذ كيف يفوت نبيهاً مثله ان شكسبير لا يجب ان ينقل الا من مصادره الاصلية . وان كل

ترجمة — مهما دقت — تجيء بعيدة عن الاصل ولو قليلاً . فكيف بترجمة الترجمة ؟

اما من حيث الدقة في تأدية المعاني المقصودة فقد عثرنا في الترجمة على مواضع كثيرة افسد فيها المترجم على المؤلف قصده ونزع من الاصل جماله او رقته او دقته . ان بتصرف صغير ام كبير ام بعدم فهمه لمرامي المؤلف .

هكذا نصادف في المشهد الاول من الفصل الاول غراتياثو يخاطب انطونيو عن الناس وتعدد اطوارهم ومزاياهم . وهو خطاب طلي ينطوي على كثير من الحكمة . ومن بعض حكمه ان من الناس من اذا فتح فاه فكأنه يقول . « انا الوحي . واذ افتح شفتيّ حذار ان تنبح الكلاب » فقد وردت في الترجمة . « انا صوت الوحي حذار ان تنبح الكلاب »

وفي المشهد الثاني من الفصل نفسه حديث شيق بين بطلة الرواية برسيا ورفيقتها نريسا . تبدي فيه برسيا رأيها في كل من جاء يخطب يدها من الرجال . وبكلمات معدودة تنقش صورة كل منهم كاملة طلية وبحذاقة رب فن محنك . فتقول في الامير النابلي « هو مهر لا شك فيه . يتكلم بلا انقطاع عن جواده . . . الخ » لكن المترجم قد اختار بدل « المهر » كلمة « حيوان » . ولو شاء

شكسبير ان يقول « حيوان » لفعل . لكنه نعت الرجل « بالمهر » لانه يتكلم بلا انقطاع عن جواده .

ثم تقول في الشريف الفرنسوي . « لقد صنعه الله في صورة رجل » فلنحسبه من الرجال . . . . وعنده حصان اكرم من حصان النابلي . . . هو كل رجل في لا رجل . . . الخ » وقد نقل المعرب ذلك على الصورة الآتية . « هكذا خلقه الله ولا اعتراض لي على وجود مثله بين الرجال . . . لكن ذلك الرجل اكرم حصاناً من النابلي . . . هو كل شيء ولكن لا شيء . . . »

وفي حديث انطونيو و بسانيو مع شيلوخ يهتف انطونيو بعبارة قد جرت مجرى المثل . « لله ما اجمل رداء الباطل » فقد رأى المعرب ان ينقلها هكذا . « ما اكثر الظواهر الخادعة التي تشبه الرذيلة بالفضيلة »

وبعد قليل في المشهد نفسه يقول شيلوخ ما مؤداه . « لأن الالم هو الشارة التي تعرف بها امتنا . » فينقله المعرب هكذا . « لأن الألم هو احدى الآفات التي خصت بها امتنا »

كذلك في حديث لنسلو مع ابيه جوبو وقد عرف من ابيه انه جاء بهدية لشيلوخ اليهودي فصاح فيه . «أتأتيه بهدية ؟ بل اعطه رسناً ! » فقد رأى المترجم ان ينقل هذا كما يلي . « اتهاديه ؟ أولى لك أن تضع حبلاً في عنقه وتشده »

وفي مكان آخر يعرب GOLDEN FLEECE بالجزازة الذهبية » — وذاك صحيح . غير انه يعود ويفسرها بقوله « انها قلادة من ذهب لها سيرة عندهم . » وما هي بالقلادة على الاطلاق. ان هي في خرافات اليونان الا جلد كبش ذهبي نجا على ظهره بطل من ابطال الخرافة ثم ذبحه وعلق جزازته في غابة بعيدة وكان جازون البطل الذي ظفر بها بعد عناء طويل .

قد يحسب البعض مثل هذه الملاحظات تعنتاً وتنكيتاً . لكن اكبر تنكيت على من ترجم شكسبير ان لا يتقيد بالاصل حيث لا ضرورة لغوية تجبره على التغيير والتبديل . اذ ليس مَنْ في امكانه الاضافة على شكسبير والتنقيص منه الا اذا كان اكبر منه . ولا اخال خليل مطران مدعياً مثل هذا الادعاء . فعلام يترجم « لقد دربتني كيف اختطفها من بيت أبيها » بقوله . « بعثت تسألني كيف اختطفها من بيت أبيها ؟ » وعلام ينقل الابيات المنقوشة على كل من الصناديق الثلاثة بأبيات افقدتها نصف معناها ورونقها ؟

هو ذا الصندوق الذهبي وعليه هذه الآية .

« من انتقاني فقد ظفر بما يشتهيه كثير من الناس »

ثم الفضي وهذه آيته .

« من انتقاني نال اقصى ما يستحقه »

ثم الرصاصي وهذه آيته .

« من انتقاني عليه ان يجازف بكل ما لديه »

فاليك هذه الآيات كما نظمها المعرب بالترتيب

من اصطفاني فقدماً تمنت الناس وصلي
من انتقاني فاني اهل له وهو اهلي
من ابتغاني فأعزز بما يهين لأجلي

وقس عليها بضع ابيات سواها وردت مطوية في كل صندوق من الصناديق الثلاثة . افسدها المعرب بنقلها نظماً او لم يدقق في نظمها ليأتي بالاصل قدر الامكان .

لو ان المعرب صرف على التدقيق في الترجمة مقدار ما صرف من الجهد في انتقاء أوابد المفردات العربية وشواردها لما كان على ترجمته من غبار سوى تعقدها . فهي تسير متعثرة متشبكة بينا عبارات شكسبير تترادف بجلال وتكر بسهولة كالنهر الواسع العميق. ولو اتيح له ان يطالع شكسبير في الأصل لرأى ، ولا بد ، ان اللغة الانكليزية قد نبذت في ثلاثة اجيال كثيراً من مفردات شكسبير وتراكيبه . واذ ذاك كان يدرك ان اللغة كيان حيّ . وانها ابداً تكتسب وأبداً تنبذ . وان ما تنبذه يصبح ميتاً . وان ما يموت منها لا يقوم حتى القيامة . وان لا نفع لكاتب او شاعر من التفتيش بين القبور اللغوية عن كلمة ميتة او تركيب مهمل . وحينئذ قد كان يخجل

من استعمال « ماهن » بدل خادم . « وألوكة » بدل رسالة . « وفذ » بدل وحيد . والقرم بمعنى الجوع . والركل بدل الرفس الخ الخ . ام تراه يقصد ان يدهشنا بطول باعه في اللغة ؟

اذا لم يكن ذاك قصد المعرب فما قصده من مثل تلك المفردات وهي أثقل على السمع من التي تفسرها ؟ بل ما قصده (وقصد الكثيرين من الذين لا يزالون ينهجون نهجه) من تكريس فسحة في آخر كل صفحة من الكتاب لتفسير غوامضه اللغوية واكثرها من نوع تفسير الماء بالماء ؟ لماذا يضع لنا رقماً بجانب « لا غرو » ويرسلنا الى اسفل الصفحة لنرى انها تعني « لا عجب » . ومثلها يمت — قصدت . الماء الراكد — غير المتحرك . النبيل — الذكي الكريم العنصر . العباب — صدر البحر . — اليافع — الفتى في اول شبابه . انبثت — انتشرت . السوقة — ضد الملوك . أنّى لي — من أين لي . البواسق — العاليات . حليلة — قرينة وزوج الخ الخ . ؟ ؟ فاما انه عربي يكتب بالعربية لابناء العربية . ولا حاجة به اذ ذاك الى تفسير ما يكتب او انه يخاطب ابناء اللغة العربية بلغة اعجمية وكان أولى به ان يخاطبهم بلغة يفهمونها . وفي الحالين لا ضرورة للشروح والتفاسير . الا اذا كان المترجم يقصد من ورائها ان يقول لقرائه : « انكم والله لقوم جهّل . لا تعرفون من لغة اجدادكم وشلاً من بحر ما اعرفه أنا .

فتنويراً لبصائركم وشفقة على جهلكم افسر لكم ما اعرفه وتجهلونه . »
حتى ليتعذر علينا البتُّ بما اذا كان المطران ينقل شكسبير الى العربية حباً بشكسبير أم رغبة منه في القاء دروس في اللغة العربية على ابناء العربية . وما كان اغناهم عن مثل هذه الدروس وكلهم يعرف كيف يُستعمل القاموس مثلما يعرف ذلك المعرب . لو سلمنا ان في تفسير الكلمات العربية لقرائها توفير عناء عنهم . وان ليس فيه ما يحط من كرامتهم وكرامة اللغة . فما قول المترجم بالسامعين او المتفرجين فيما لو مثلت الرواية على مسرح تمثيلاً ؟ أيجعل كل ممثل يقف عند كل كلمة غامضة ويخطب في الحاضرين بمثل هذه الكلمات « سيداتي وسادتي . ان كلمة كذا وكذا تعني كيت وكيت . » اوليس من الحق ان يفسر للسامع ما يفسره للقارىء ؟ فما اجمل ان يقف شيلوخ على المسرح سائلاً باسيانو . « ما اخبار التجارة في المصفق » ثم ان يلتفت نحو الجمهور قائلاً . « سيداتي وسادتي . انني اعني بالمصفق البورصة » . بل ما اجمل امير مراكش يهز حسامه بيمينه ويتبجح بانتصاراته ويشكو غرامه بالشكل الآتي:

« . . . ولو اقتضاني غرامي . . ان اكافح كل قرم (الى الجمهور اعني بالقرم البطل) عنيد قهار شديد بل لو سامني (الى الجمهور اعني بسامني — كلفني) انتزاع رضيع الوحش عن ضرع امه او مناوأة الضيغم الهصور (الى الجمهور . اعني مقاتلة الاسد)

وقد استفزه القرم (الى الجمهور . اعني بالقرم الجوع) . . . وهلم جرا ؟ ؟

ليست براعة البيان في الاكثار من الآبد والمنسوخ بل في انتقاء الفصيح المألوف وترتيبه في عبارات مترابطة المعاني ، متآلفة الالوان ، خفيفة اللفظ ، لطيفة الوقع ، ولا نفع للكاتب من تفسير مفرداته الا اذا تعمد اهانة قرائه بجعلهم احط منه ادراكاً وأقل منه اطلاعاً . او شاء رفع نفسه في اعينهم بايهامهم انه اخبر منهم بمخبآت القاموس . وليت شعرى ، هل من فضيلة في تغييب القاموس؟

يبشرنا ناقل « عطيل » « وتاجر البندقية » في مقدمته للثانية انه قد عرب ستاً أُخر من مبتكرات شكسبير وانه سيوالي تمثيلهن بالطبع . وتلك بشرى نستقبلها بحبور وامتنان . اذ لا مندوحة لنا من الاعتراف له بجميل كبير على ابناء العربية الذين لا يزال شكسبير عندهم سفراً مختوماً ونزيد على ذلك اننا ، مع كل ما وجدناه من النقص في ترجمة « تاجر البندقية » نكاد لا نرى بين كتابنا وشعرائنا اليوم من هو أوفر مادة وأتم عدة بينهم لتعريب شكسبير من خليل مطران . واذا كان يقبل نصحاً من ناصح فاننا ننصح له ، اذا لم يكن حظه من الانكليزية كحظه من الافرنسية أن يستعين على درس الاصل بمن تؤهله معارفه الانكليزية لفهمه حق الفهم . وان يهتم بعبارته العربية من حيث سلاستها محافظاً على رونق

الاصل وجلاله وان يستعيض عن غير المألوف والجميل من المفردات بالفصيح المألوف والبسيط الجميل . وان يقلع عن تفاسيره وشروحه اللغوية في اسفل كل صفحة . وان يدرس كل شخص من اشخاص الرواية درساً مدققاً حتى يراه مجسماً امام عينيه . اذ ذاك لا يشق عليه ان يعرب ما يقوله ذاك الشخص بعبارات توافق اطواره ومداركه وتنطبق كل الانطباق على دوره بالنسبة الى ادوار البقية من الاشخاص وان لا ينسى ان شكسبير قد وضع رواياته لتمثل . وان اكثرها لا يزال يمثل على مسارح اليوم . وان على من يترجمها ان يترجمها بلغة قابلة للتمثيل .

ولعل معرب شكسبير يحقق امانينا في الروايات الست التي سيتحفنا بها عما قريب .

الديوان

تأليف عباس محمود العقاد وابرهيم عبد القادر المازني

كتاب في النقد والادب يتم في عشرة اجزاء . صدر منها الى الان الاول والثاني
طبع مكتبة السعادة بمصر . الطبعة الثانية سنة ١٩٢١
ثمن الجزء الواحد ٣٠ مليما مصرياً

ألا بارك الله في مصر . فما كل ما تنثره ثرثرة . ولا كل ما تنظمه بهرجة . وقد كنت احسبها وثنية تعبد زخرف الكلام . وتؤله رصف القوافي . فكم زمرت لبهلوان وطبلت لمشعوذ . و « طيبت » لسكران !

غير اني عرفت اليوم بالحس ما كنت اعرفه امسِ بالرجاء . عرفت ان مصر مصران لا واحدة . مصر ترى البعوضة جملاً . والمدرة جبلاً . ومصر ترى البعوضة بعوضة . والمدرة مدرة . مصر لها ميزان بكفة واحدة . ومقياس بطرف واحد . ومصر لها ميزان بكفتين . ومقياس بطرفين . فهي تفصل بين الرطل والدرهم . وتميز بين الفتر والفرسخ.

ان مصر هذه — مصر الثانية — قد قامت اليوم تناقش الاولى الحساب . فانتصبت واياها امام محكمة الحياة . وسلاحها

الوجدان الحي . ومحكمها الحق . كأنها تقول لها « اما ان تثبتي لي حقك باعتباري فأسكت . او اريك كل ما فيك من زيف فتسكتين » و بعبارة اخرى — ان مصر تصفّي اليوم حسابها مع ماضيها .

الامة وآدابها كالتاجر و بضاعته . فنظير ما يحتاج التاجر الى « تقويم » بضاعته بين الشهر والشهر . او العام والعام . فينزل من سعر البضائع التي هبطت اسعارها . ويرفع في سعر التي ارتفعت . هكذا تحتاج الامة المتيقظة الى « تقويم » مفهومياتها الادبية . وتعديل مقاييسها وموازينها الروحية . حتى اذا ما وجدت في مستودعاتها الادبية بضاعة هبطت اثمانها ، واصبحت لا تساوي شيئاً نبذتها . وان عثرت على ما كان بخساً وارتفع رفعته . فرفوفنا الادبية في حاجة دائمة الى التنقية كرفوف التاجر بل اكثر . والفرق بين الشعوب الناهضة والشعوب المتخاذلة ان الاولى ابداً تصفي حساباتها مع نفسها ومع العالم . فتعرف ما لها وما عليها بيد ان الثانية تودع العام وتستقبل العام . ويمر بها الجيل تلو الجيل وهي تكردس ارقاماً فوق ارقام . و بضاعة فوق بضاعة . ناظرة الى كمية ما عندها لا الى قيمته . وحاسبة نفسها ، اذا عد الاغنياء ، في مصاف الاغنياء . الى ان يقيض الله لها ان تستفيق . فيبعث اليها من يجبرها على فتح دفاترها القديمة . ويحملها على اخراج ما في مستودعاتها المظلمة

الى النور. حتى اذا ما لامسه الهواء تمزق كثير منه وتساقط على الارض خرقاً بالية. فتدرك اذ ذاك ان ما كانت تحرص عليه كل الحرص لم يكن الا غروراً فاضحاً وان ما كانت تحسبه في ميزانيـة حياتها بعضاً من رأس مالها الادبي لم يكن في الواقع الا عجزاً

تلك كانت حالة الشرق العربي لأجيال طويلة فاتت. اما اليوم فقد تنبهت فيه روح فتية قامت تحاسبه بما عنده وبما عليه. وتتفقد زوايا مستودعاته الادبية. وفي يدها الواحدة ميزان. وفي الاخرى ذراع. وميزانها غير ميزان الامس وذراعها غير ذراعه

ان الساعة لرهيبة وجميلة. ومبكية ومضحكة. ساعة ينتصب الميزان فتهبط منه كفة. وترتفع كفة. فيظهر ناقصاً ما كان يحسبه الكثير راجحاً. وراجحاً ما كان يُحسَبُ ناقصاً، انها لساعة ستُثَل فيها عروش. وتتدحرج تيجان. وتتحطم صوالجة. وتطلى بالقير وجوه لامعة. وتغرب شموس. وتندثر آثار. فكم من شهرة ستنقلب وصمة. ومن اله صنماً. ومن درة مدرة! لذاك سنسمع عويلاً ونحيباً. وقهقهة وكركرة. ودمدمة وزمجرة. سنسمع تهليلاً. ونسمع وعوداً. ونسمع وعيداً. وقد بدأنا نسمع كل ذاك في مصر. فهناك جماعة تأبى اليوم أن تتناول غذاءها الادبي من قصع اجدادها وبملاعق اجدادها بل تفضل ان تطبخ طعامها بيدها وان تمضغه بأسنانها لا بأسنان سواها. وبعبارة اخرى، ان هذه الجماعة قد

اكتشفت لذة الاستقلال في التفكير والشعور . فهي تفكر لذاتها وتشعر لذاتها . ولعل اطيب ساعة في حياتي الادبية هي الساعة التي اهتديت فيها الى هذه الجماعة . ولمست الحياة الجديدة فيها . فأيقنت من ان ما كان منذ سنين حلماً من احلامي قد اصبح اليوم حقيقة محسوسة . حتى قلت في داخلي ما قاله سمعان الصديق يوم استقبل في الهيكل الطفل يسوع . « الآن اطلق عبدك ايها السيد بسلام » والذي اعطاني هذا اليقين هو كتاب اشترك في تأليفه اثنان من ادباء مصر دعواه « الديوان »

ان الجزئين اللذين صدرا الى الآن من « الديوان » يقعان في نحو من ١٥٠ صفحة من حجم كبير . لكنها صفحات مرصوصة، محشوة بما يفسح للقارىء مجالاً واسعاً للتأمل ويحمله بسهولة الى حيث يشاء صاحبا الكتاب ان يسيرا به والطريقة التي سار عليها العقاد والمازني في تعاونهما بتأليف الكتاب هي ان يأخذ كل منهما كاتباً او شاعراً وينقده بما اوتيه من مقدرة النقد . فالعقاد – مثلاً – قد استقل في نقد شوقي . فوضعه في « الميزان » في الجزء الاول . وكأنه خشي ان يكون قد ترك في بعض العقول شكاً في صحة موازينه . فعاد « ووزن » شوقي ثانية في الجزء الثاني . والمازني قد اهتم باماطة اللثام عن « صنم الألاعيب » (وهو يعني شكري) في

الجزء الاول من الكتاب ثم اعاد الكرة عليه في الجزء الثاني . وكذاك مد ذراعه ليقيس به المنفلوطي . وسنرى النتيجة

لا بد لي من القول بأني ما كنت لأحفل بموازين العقاد ومقاييس المازني لولا اني وجدت فيها دقة وصحة ما عهدتهما الا عند نفر قليل من ادباء العالم العربي . فلنسمع العقاد يخاطب شوقي ليفهمه ما هو الشعر . قال العقاد :

« فاعلم ، ايها الشاعر العظيم ، ان الشاعر من يشعر بجوهر الاشياء ، لا من يعددها ويحصي اشكالها والوانها . وان ليست مزية الشاعر ان يقول لك عن الشيء ماذا يشبه وانما مزيته ان يقول ما هو . ويكشف عن لبابه وصلة الحياة به . وليس همّ الناس ان يتسابقوا في اشواط البصر والسمع وانما همهم ان يتعاطفوا ويودع أحسهم وأطبعهم في نفس اخوانه زبدة ما رآه وسمعه . وخلاصة ما استطابه واستكرهه واذا كان وكدك من التشبيه ان تذكر شيئاً احمر . ثم تذكر شيئين او اشياء مثله في الاحمرار ، فما زدت على ان ذكرت اربعة او خمسة اشياء بدل شيء واحد . ولكن التشبيه ان تطبع في وجدان سامعك وفكره صورة واضحة مما انطبع في ذات نفسك . وما ابتُدع التشبيه لرسم الاشكال والألوان فان الناس جميعاً يرون الاشكال والالوان محسوسة بذاتها كما تراها . وانما ابتدع لنقل الشعور بهذه الاشكال والالوان من نفس الى نفس .

وبقوة الشعور وتيقظه وعمقه واتساع مداه ونفاذه الى صميم الاشياء يمتاز الشاعر على سواه . ولهذا لا غيره كان كلامه مطربًا مؤثراً وكانت النفوس تواقة الى سماعه واستيعابه . . .

« وصفوة القول ان المحك الذي لا يخطىء في نقد الشعر هو ارجاعه الى مصدره . فان كان لا يرجع الى مصدر اعمق من الحواس فذلك شعر القشور والطلاء . وان كنت تلمح وراء الحواس شعوراً حياً ووجداناً تعود اليه المحسوسات كما تعود الاغذية الى الدم ونفحات الازاهر الى عنصر العطر فذلك شعر الطبع القوي والحقيقة الجوهرية »

وعلى هذا المحك الصادق راح العقاد يحك طائفة من قصائد شوقي مثل — رثاء فريد . رثاء عثمان غالب . استقبال اعضاء الوفد . النشيد . رثاء مصطفى كامل . رثاء الاميرة فاطمة . فما انتهى من حكها حتى تركها كوماً من الصدور والاعجاز الشعرية . مفككة الاوصال . متنافرة الالوان والمعاني . يابسة القلب . مكفهرة الوجه . وقد فعل ذلك بمهارة لا شك في انها قد سببت لشوقي ولعشاق شوقي الف غصة وغصة . اذ انها قد نزعت عن رأس « امير الشعر » اكليله الذي ضفره له وَهْمُ الكثيرين وجهلهم وخلته ولا اكليل على رأسه الا الخيبة . ولا برفير على كتفيه الا الخجل . وخلتهم حيارى ينظرون الى اميرهم متسائلين متغامزين متعاتبين .

ان من يرى شوقي في ميزان العقاد يشفق على شوقي وتكاد شفقته تنقلب نقمة على الناقد الذي لم يشأ الا ان يكسر رجلي الجبار الخزفي ليري الناس انه من خزف . ولو صبر قليلاً لفعلت الايام به فعلها تدريجاً . فأدرجت هذا « الجبار » في كهوف منسياتها دون ان تجرح قلباً او تقرح مقلة . لكن الناقدين — واعوذ بالشيطان من الناقدين — لا يهنأ لهم عيش الا اذا دعوا الاشياء بأسمائها . فالصنم في عرفهم صنم ، وان ألّهه سائر الناس . والوزّان وزان وان لقبته الالوف « بالشاعر الكبير » و « بالامير » وكيف يستطيع الناقد السكوت ومن حوله قوم يلهجون « بأمير الشعر والشعراء » وهو يعلم حق العلم انهم يهرفون بما لا يعرفون وانهم خادعون ومخدوعون . اذ ان الشعر في نظره هو ملتقى جميع انباض الحياة العالمية ، المنظورة وغير المنظورة فكيف يكون ابن انثى ، كائناً من كان ، « اميراً » للشعر ؟ ام كيف يكون من لا يأبى ان يسخر قريحته للاعلانات التجارية « امير الشعراء » وبين هؤلاء الشعراء هوميرس ودانتي وفرجيل وامرؤ القيس وابو العلاء والمتنبي والفارض وشكسبير . ولا اذكر سواهم ؟

يا ويل الشعر . وواحرب الشعراء . اذا كان ناظم هذه الابيات « اميرهم » :

لله ريشـة صادق من ريشة
تزري طلاوتهـا بكل جديد
كست الكتابة في المشارق كلها
حسناً وفكتها من التقييد
تهدي لحسن الخط كل مقصر
وتمد في الاحسان كل مجيد
أغلى لدى الكتاب ان ظفروا بها
من ريشة الالماس عند الغيد
والذ فوق الطرس ان خطرت به
من ريشـة الليثي فوق العود
وتكاد تحيي مؤنساً بصريرها
وتقول ايام ابن مقلة عودي
لو لم يكن في الامر الا انها
مصرية لاستوجبت تمجيـدي

هذه ابيات نظمها شوقي اعلاناً « لريشة صادق » والعقاد شاهدي على انه نشرها في الصحف . وهي اكبر وصمة على جبين شوقي واتباعه . لا همّ لي بما قد يقوله البعض ان شوقي نظمها تفكهة وتسلية . فشاعر يجلد قريحته لتحيك له القوافي في مثل هذه التوافه لشاعر يتبرأ منه الشعر وتتبرم منه القوافي

عند ما بدأت بمطالعة انتقاد العقاد قلت ان فيه نزقاً قريباً من التشفي كأن للرجل ثاراً عند شوقي . بل اتهمت الناقد بشيء من التحامل والاغراق في التنديد . لكنني ما وصلت الى « ريشة صادق » حتى استغفرت العقاد في داخلي مثنى وثلاثَ ورباعَ . لا سيما وقد اتفق لي ان عثرت بعد قراءة « الديوان » على قصيدة لشوقي منشورة في مجلة تعد في مقدمة المجلات المصرية ومتوجة بهذه الكلمات النارية « لامير الشعر والشعراء » . اذ ذاك ادركت ان العقاد ما استغرق في نقد شوقي الا ليطال من ورائه جيشاً من الذين قد حاك الجهل او الرياء او التزلف على بصائرهم نقاباً كثيفاً . فهو لا يرمي بنقده الى اصلاح شوقي . بل يرمي الى تمزيق ذلك النقاب . وتمزيق ذلك النقاب ، على ما يظهر ، ليس بالامر العسير

لذلك لا ألوم العقاد اذا ما صوّب كل مدافعه مرة واحدة على شوقي ليظهر لاتباع شوقي ما ليس خافياً عن كل مَنْ عنده ولو قليل من الذوق في الادب والفن . وما اذا خفي اليوم فلن يخفى غداً . فمن ذا مِنَ الذين تفتحت بصائرهم الادبية يطالع منظومات شوقي ولا يرى فيها ما يراه العقاد من التفكك . والاحالة . والتقليد . والولوع بالاعراض دون الجوهر ؟ وان كان بين هؤلاء من يخامره شك في صحة هذا التعليل فما عليه الا ان يطالع « شوقي في الميزان »

اذا كان العقاد قد فضح شوقي شر فضيحة فشريكه المازني قد اماط اللثام عن اثنين آخرين هما شكري والمنفلوطي . فأرانا الاول شاعراً يتصنع الجنون في نظمه ونثره ظناً منه بأن الخروج عن الموضوعات الشعرية المطروقة الى الغريبة الآبدة يؤهله لان يدعى مبتكراً ومجدداً . غير انه في نظر المازني ما افلح الا في اثبات جنونه الحقيقي لا المجازي

اما المنفلوطي فقد اخذ المازني من آثاره الادبية كتاب « العبرات » وتهكم عليه تهكماً اصاب به الهدف في اكثر المواقع . والمجهر الذي تفحص به عبرات المنفلوطي هو هذا

« ان الجيد في لغة جيد في سواها . والادب شيء لا يختص بلغة ولا زمان ولا مكان . لان مرده الى اصول الحياة العامة . لا الى المظاهر والاحوال الخاصة العارضة وكذلك الغث غث في كل لغة . في اي قالب صبيته وسكبته و بأي لسان نطقته »

وناقد ذاك مجهره ، لا يمكنه الا اذا تعامى لغاية ما ، أن لا يرى ما رآه المازني في « عبرات » المنفلوطي من « الحلاوة . والنعومة . والانوثة » لانك اذا نقلتها الى لغة غربيـة تعرّت من كل اثوابها العربيـة وبان كل ما فيها من التكلف في الشعور والسخافة في الافكار . اما في حلتها العربية فقد تخدع الكثيرين من المتأثين في الادب وتبهرهم برونق بزتها وزخرف هندامها . فليس من ينكر

على المنفلوطي تأنقاً في اللغـة ، ونعومة في الاسلوب ، وطلاوة في التركيب هي جلّ ما يمكن ان يدعيه المنفلوطي من الحسنات . اذا عدت هذه الامور من الحسنات في الادب .

أتيت على الجزء الثاني من « الديوان » وفيّ شوق الى الجزء الثالث والرابع حتى العاشر . ففي العقاد والمازني قد وجد الادب العربي اجمالاً — والمصري خاصة — ناقدين في ايديهما موازين ومقاييس هي من أدق ما عرفته في الاجيال الاخيرة من الموازين والمقاييس الادبيـة عندنا . وهما مدينان بكثير من ذاك للآداب الغربية التي يظهر ان لهما الماماً بها واسعاً . وما ذاك مما يحط من كرامتهما او مقدرتهما . بل هو يزيد في اعتبارهما عندي . لا سيما وان اسلوبهما العربي (ولا تكاد تفرق بين اسلوب الواحد والآخر) اسلوب محكم في وضعه . متدفق في جريه . غزير بمادته

ولو انهما يترفعان كل الترفع عن الوخز في شخصيات من ينتقدانهما من الكتاب والشعراء . لما كان على كتابهما من غبار لوم وتثريب . ولما وقعا من الهفوات الا في ما يقع فيه سواهما من الناقدين من تقدير بعض الآثار اكثر من قدرها أو أقل اذ ليس من ذي عصمة بين البشر

لقد شاء هذان الكاتبان « اقامة حد بين عهدين لم يبق ما يسوغ اتصالهما والاختلاط بينهما » وكتابهما هو خطوة واسعة نحو تلك المحجة . فاهلاً به . وسهلاً بهما .

عواصف «العواصف»[1]

كلما جلست في هذه الايام المشؤمة لأطرق موضوعاً ادبياً ترن في اذني اصوات عديدة آتية من كل حدب وصوب هي اصوات جياع الانسانية وعطاشها ، اصوات العراة والتائهين ، اصوات المنفيين والمسبيين ، اصوات امم تنسحق تحت اضراس القضاء وشعوب تسلم الروح على صليب المطامع والاهواء . وكلها تقول :

« أهذا وقت أدب لتهتم بالادب؟ أولا ترى ان البشرية لا تزال تختبط بدمائها وتغتسل بدموعها وتشرق بغصاتها ؟ لو كنت جائعاً لما اكلت شعراً منثوراً . أو عطشانَ لما شربت حبراً . او عُرياناً لما اكتسيت بالورق . او في حالة النزع لما طلبت ان تشنف سمعك برنة القوافي . ان شئت فحدثنا عما نملأ به اجوافنا الفارغة وان شئت اكشف لنا عن اسرار السياسة وان شئت فقل لنا اذا كانت البلشفية ستسود العالم . وان شئت فاخبرنا عن مصير سوريا ومستقبل مصر او عن الحالة الاقتصادية في العالم . والا فدعنا وشأننا

---

(١) العواصف مجموعة مقالات وقصص لجبران خليل جبران نشرتها حديثاً ادارة الهلال ولعل الكتاب من حيث ورقه وطبعه وتنسيقه اجمل ما صدر من مطبعة مصرية حتى اليوم

فنحن في حاجة الى الضروريات وانت تحدثنا عن الكماليات . »
غير اني وان بلبلت هذه الاصوات افكاري اعود فأجمعها وأقول لأخي الجائع :

ليس بالخبز وحده يحيا الانسان يا اخي وان كان لا جوع فيك غير جوع البطن الى الرغيف فلا رغيف عندي

وأقول لأخي الظمآن

ما ظمأ الجسد الى الماء يا أخي كظمإ الروح الى الحق فان كنت لا تظمأ الا الى الماء فلا ماء عندي

وأقول لأخي العريان

ما عري جسمك من الكساء يا اخي كعري نفسك من الفضيلة. فان كنت لا تشعر الا بعريك من الكساء فلا لباس عندي

ولأخي السياسي ولأخي الوطني ولأخي الاقتصادي أقول

لم تأتمني الاقدار على اسفارها لأعرف ما يكون ولا ضاقت بي هذه الكرة لأعبد بقعة منها دون بقعة . ولا جفت من الارض امعاؤها فلم تعد تعطي نباتاً لأهتم بما يقوله الاقتصادي والمالي

لقد سمعت ببسمارك ومولتكه غير اني سمعت كذلك بغيوته ونيتشه فنسيت ما قاله بسمارك وما تنبأ به مولتكه

وقد قرأت عن كرومويل وغلادستون غير اني قرأت عن رجل يدعى شكسبير وآخر يدعى ملتن فغاب عن بالي ما قاله وما

فعله الأولان اما ما فاه به الاخيران فبعضه لا يزال عالقًا بذهني

وحدثتني الكتب عن رجل يدعى غاريبالدي لكنها حدثتني عن آخر يدعى دانتي فرجح ميلي الى دانتي على اعجابي بغاريبالدي

وطالعت في اسفار السلف عن مجاهد يدعى غامبتا . وطالعت في تلك الاسفار نفسها عن مجاهد آخر يدعى فكتور هيكو . فقطعت مع هيكو فراسخ حيث لم اقطع مع غامبتا الا خطوات

لقد رأيت السياسة تتقنع كل يوم بقناع . فوجوه الممالك تتقلب بين اليوم واخيه من ملكية مطلقة الى جمهورية الى اشتراكية فإلى ملكية فإلى فوضى فإلى جمهورية . وحدودها تنتقل من هذا النهر الى ذاك . او من ذاك الجبل الى ذلك ثم تندثر وتبيد ولا يبقى منها الا ثمار افكارها الخالدة وآيات ارواحها المبدعة

ورأيت جهابذة الاقتصاديين يرتفعون وينخفضون كارتفاع اسعار البورصة وهبوطها . لكن هذه الارض ما زالت تدور وقد نسي ابناؤها ما اذا كان سعر الدقيق في زمان هوميروس غرشًا ام غرشين . لكنهم ما نسوا ولن ينسوا الالياذة

وسيأتي يوم يضحك فيه احفادنا واحفاد احفادنا منا ويسخرون بسياستنا واحكامنا لكنهم لن يسخروا بما ابتدعته افكارنا وفاضت به قلوبنا وارواحنا كما لا نسخر نحن بأبي العلاء ولا بالفارض ولا بابن المقفع . ولا شك في انهم لم يعدموا في زمانهم

ايضاً من كان يقول لهم . « انكم منصرفون الى الكماليات ونحن في حاجة الى الضروريات »

ولو انصرف ابو العلاء الى الضروريات فمن اين كانت لنا « غير مُجدٍ في ملتي واعتقادي نوح باك ولا ترنم شـاد » ؟

لقد دالت الدول العربية بأسرها . اما دولة ابي العلاء فلا تزال اليوم اعز منها بالامس

وغداً ستغمرنا لجة العدم باحزابنا واوصابنا بجائعنا ومتخومنا . بفقيرنا وموسرنا . بوجيهنا وحقيرنا . وستقوض الايام اركان ما شدناه من البنايات السياسية والاقتصادية فلا يبقى منا الا الخالد والجميل والحق فينا . ومن ذا الذي يبقى ليخبر عن الخالد والجميل والحق فينا ان لم يكن ابن الادب وابن الفن ؟

فأين هم ابناء الادب ؟ واين هم ابناء الفن فينا ؟

أهم بلابل النيل أم شحارير لبنان ام حَسَاسِينُ سوريا واسمهم « لجيون » ؟ لا ورب الادب . فمعظم هؤلاء طبول قرقاعة وفقاقيع تطفو على وجه حياتنا الادبية . اما الذين سيخلدون هذا الجيل من وجودنا في سفر الاجيال فهم فئة قليلة قد لمست الحياة افواههم بجمرة جديدة فاتقدت قلوبهم بنار ما عرفتها قلوب من حولهم من المنتمين الى مملكة القلم . بعضهم لا يزال في رحم السكينة المولدة وبعضهم يتنفس الهواء الذي تتنشقه ويطأ الاديم الذي نطأه ومن

هؤلاء ، بل في طليعة هؤلاء ، شاعر الليل . شاعر العزلة . شاعر الوحشة . شاعر اليقظة الروحية . شاعر البحر . بل شاعر العواصف — جبران خليل جبران

لم يدرك ابناء العربية بعدُ مقام هذا الشاعر . واخاف انهم لن يدركوه بعد حين . وما يضحكني منهم مثل القائلين بأن جبران « خيالي » وانه في السحاب لا على الارض وانه متطرف في مبادئه. ويضحكني اكثر من هؤلاء اولئك الذين كنت اسمعهم يقولون انهم لا يبتاعون كل ما كتبه جبران بفلس . ولما ظهر لجبران اول كتاب باللغة الانكليزية عادوا يغدقون على جبران الالقاب فهو نابغتهم وهو فيلسوفهم وهو حدقة عينهم . وما همني اذا كان جبران خياليًا او يسكن السحاب أم يكتب بلغة رمزية ام يتطرف في مبادئه . بل ما همني اذا كان مقتدراً في اللغة الانكليزية اقتداره في العربية او ما يقول عنه الاجنبي . فجبران خليل جبران في نظري هو ثورة قبل كل شيء . ثورة بحد ذاته

لقد قيل فيه وقال هو عن نفسه . انه متمرد . والتمرد ليس الا وجهًا من وجوهه . فهو ثائر وبدء الثورة التمرد ولكنها لا تقف عند هذا الحد . فهي تدمر وتحطم وتجتث وتبني وتقطع وتزرع في وقت واحد . وكثيراً ما يهبط ما تبنيه ويجف ما تزرعه الى ان تنهض من تحت انقاضها قوى جديدة ترمم ما دمرته انما على اساس جديد

وتزرع ما التهمته انما في ارض اصلح للزراعة من ذي قبل

ان اسلوب جبران ونغمته ودقة وصفه قد اعطتنا مفهوميـة جديدة عن الجمال في التنسيق والبيان . فنثره الشعري المترقرق ، المتناسب ، المتوازن ، المتجاذب ، قد جعل القافية المتتابعة في اعيننا قذى . ورنتها في اذننا دندنة ونقنقة . فيا ليت شعري هل من يقرأ قصيدة جبران (ايها الليل)

« يا ليل العشاق والشعراء والمنشدين

يا ليل الاشباح والارواح والأخيلة

يا ليل الشوق والصبابة والتذكار »

ويعود فيجد لذة في ثرثرة شعرائنا عن الليل وكواكبه ؟ وعن سهرهم وعن هيامهم وغرامهم وعن شوقهم الى الحبيب النائي وما اشبه ؟ —

« انت عادل يجمع بين جنحي الكرى احلام الضعفاء بأماني الاقوياء . وانت شفوق يغمض باصابعه الخفيـة اجفان التعساء ويحمل قلوبهم الى عالم اقل قساوة من هذا العالم

بين طيات اثوابك السوداء يسكب المحبون انفاسهم وعلى قدميك المغلفتين بقطر الندى يهرق المستوحشون قطرات دموعهم . وفي راحتيك المعطرتين بطيب الاودية يضيع الغرباء تنهدات

شوقهم وحنينهم . فأنت نديم المحبين وانيس المستوحشين ورفيق الغرباء والمستوحدين » —

ليت شعري هل من تطرق اذنيه هذه الموسيقى المسكرة يعود فيطرب لرنة قواف دارت على الف لسان وحوتها بطون الف كتاب؟ ام يحفل باستعارات وتوريات تناقلتها الاجيال فبليت ورثت أم يستكبر معاني قلبتها أقلام الوف من الشعراء والناثرين بطناً لظهر ثم ظهراً لبطن ثم بطناً لظهر ؟

قلت ان جبران ثورة والثورة ليست بنت ساعتها . بل هي مجموع عوامل متعددة تخزنها الايام في صدر الحياة حتى اذا ما جاش جأشها ، ضاق بها ذلك الصدر فتفجرت قذائف وعواصف . وجبران ليس ابن يومه بل هو مجموع عواطف وميول امة قضت على نفسها ، او قضت عليها الاقدار ، ان تعيش اجيالاً تنطق بلسانها اما قلبها فصامت منكمش . وان تسير قانعة ضائعة في طريق مفروشة بالشوك محجوبة عن عين الشمس . اما روحها فتحلم بسبيل نيِّر على جانبيه ورود ورياحين . فقلب لبنان قد لبث صامتاً جيلاً بعد جيل ومن ذا يصدق ان ما كان ينظمه شعراء لبنان كان خارجاً من قلب لبنان ؟ لو صح ذلك لكان لبنان بلا قلب . إي وربي بلا قلب ولا وجدان . لكن في لبنان قلباً تحركه الف عاطفة وعاطفة . ويتنازعه الف شوق وشوق . فأين هذه العواطف وتلك

الاشواق والنزعات ؟ أفي مجمع البحرين أم في « الضياء » ام في دواوين شعراء لبنان ؟ اين هيبة لبنان . اين أنفته ؟ اين عزمه . اين نقاؤه . اين موسيقى غدرانه ؟ اين عطر رياحينه ؟ عبثاً اضعت وقتي باحثاً عن اثر لذلك في قصائد لا تحصى جادت بها ادمغة بعض ابناء لبنان . لقد وجدت ذكراً « لهامة لبنان البيضاء » وسمعت من يدعوه « بالشيخ الجليل » وعرفت من يتغزل بعذوبة مائه وصفاء جوه وهوائه غير اني ما عثرت على قصيدة قط تنم عن روح لبنان . اما في كتابات جبران فقد لمست بروحي اشواق روح لبنان . وشاهدت هيبة ذاك الجبل وانفته وشعرت بعزمه وسمعت موسيقى غدرانه . وتنشقت عطر رياحينه . في منثورات جبران ومنظوماته سمعت دق انباض لبنان وسمعت خفقان قلبه . فأين كانت تلك الانباض وذلك الخفقان قبل ان يظهر جبران خليل جبران ؟ أكان لبنان جثة هامدة ، ساكن الانباض ، متجمد القلب ؟ — بل كان حياً يحلم أحلامه في سره ويدفن امانيه في صدره ، اذ لم يكن من يبوح بتلك الاسرار وينشر تلك الاماني . وهكذا لبث اجيالاً معتصماً بالصمت متجلبباً بالسكينة الى ان لم يعد له على الصمت طاقة . فنطق وكان في نطقه برق ورعد وريح زعزع . وكان اول لسان نطق به لسان جبران خليل جبران . فهل من غرابة اذ ذاك اذا سمعنا هذا الشاعر يخاطبنا بلغة ما تعودناها

من قبل ، ويرسم لنا رسوماً بالوان ما الفتها منا العين ، ويكلمنا بما نحسبه الغازاً وما هو بالالغاز ؟ وهل يمكن النهر الذي تجمعت فيه سواق كثيرة ان يحصر مياهه بين ضفتي ساقية من تلك السواقي ؟ بل كيف لمن في روحه خمرة جديدة ان يسكبها في زقاق عتيقة ؟

لم يتقيد جبران بالقوانين والسنن التي اذعن لها شعراؤنا وكتابنا منذ اجيال لانه وجد نفسه اوسع منها . وعند ما شعر بحاجة الى البيان عما في نفسه الهائجة أبى ان يلجأ الى الاساليب البيانية المطروقة فأعرض عنها ثم ثار عليها

ولماذا ثار جبران على التقاليد العصرية من ادبية واجتماعية ؟

لقد ثار لأن الحياة وضعت في صدره قلباً هو كتلة من الشعور الرقيق والحس المتناهي . فلما التفت يمنة ويسرة لم ير حوله الا قلوباً ختمت عليها التقاليد فقتلت فيها الحق والاخلاص والحنين الى ما هو خلف نقاب اليوم فلم يعد من صلة بينها وبين ألسنة اصحابها وادمغتهم . رأى الشعراء ينطقون بما لا يشعرون والخطباء يتكلمون لا حباً بابراز فكر او بث دعوة بل حباً بالكلام . فوجد نفسه « دولاباً يدور يمنة بين دواليب تدور يساراً »

ثار لان روحه قيثارة لا تمر لحظة الا تلمس اوتارها انامل الحياة الخفية فتملأ كيانه انغاماً غريبة سحرية وعن جانبيه تتألب

مواكب جرارة لا تطرب الا لخوار « الترمبون » ودوي الطبل

ثار لأن فيه نفساً تحن الى الجمال الكلي الذي انبثقت منه وتعشقته في كل مظاهره لذلك تنقبض وتنتفض من كل ما فيه تشويش وتنافر وتناقض . ورأى التشويش والتنافر والتناقض في كثير وكثيرين حواليه فحار في ما اذا كان ينسحب من عالم ذاك شأنه أم يبقى في هذا العالم ويحاول كشف اسرار نفسه امامه عله يفتح عينيه ويرى . وبين هذين العاملين تمدد روح جبران وتنكمش وبين تمددها وانكماشها تقطر لنا هذا السائل السحري الذي لم نعرفه الا في نفثات جبران

هذه هي حال جبران ومن لم يفهمها فعبثاً يحاول فهم جبران

أجل . ان روحاً عواطفها لا تستكنُّ ، وظمأها لا يرتوي ونيران اشواقها لا تنطفيء لروح غريبة لا تقاس بذراع ولا تكال بصاع . فاذا ما رأينا تناقضاً في نزعاتها فلأن فيها نزعات تقذف بها شرقاً وغرباً واخرى تقذف بها شمالاً وجنوباً

امامي الآن كتاب العواصف

فتعالوا نصغ لشكوى « الشاعر » من غربته ووحدته ووحشته

« انا غريب في هذا العالم

انا غريب وفي الغربة وحدة قاسية ووحشة موجعة ، غير انها

تجعلني افكر ابداً بوطن سحري لا أعرفه ، وتملأ احلامي باشباح ارض قصية ما رأتها عيني »

فلا غرو اذا وجد الشاعر نفسه غريباً في عالم لاه عن الروح متعلق بالجسد ، منصرف الى كل ما تكرهه الروح الشاعرة وعن كل ما تعشقه وتحيا به . لكن جبران ليس غريباً عن العالم فقط بل عن نفسه ايضاً

« انا غريب عن نفسي ، فاذا ما سمعت لساني متكلماً تستغرب اذني صوتي ، وقد أرى ذاتي الخفية ضاحكة ، باكية ، مستبسلة ، خائفة ، فيعجب كياني بكياني ، وتستفسر روحي روحي ولكنني أبقى مجهولاً ، مستتراً مكتنفاً بالضباب محجوباً بالسكوت »

تقولون وكيف يمكن ان يكون الانسان غريباً حتى عن نفسه ؟ فاجيبكم اننا كلنا غرباء عن انفسنا لكننا لا ندري اننا غرباء لان ارواحنا لا « تستفسر » ارواحنا ولا يدفعنا الشوق الى استطلاع اسرارنا ، اما روح الشاعر فهي ابداً ساعية وراء خرق ستار المجهول وكشف المكنون ، كأن للشاعر نفسين لا نفس واحدة ، وكيانين لا كيان فقط — نفس باحثة ونفس مبحوث عنها . وكيان ظاهر ينمّ عن كيان خفي . وبين هاتين النفسين او هذين الكيانين تصعد روح الشاعر وتهبط

وفي صعودها وهبوطها « تراودها افكار وتتناوبها ميول مزعجة ،

مفرحة ، موجعة ، لذيذة » وعندما تحاول ان تعرب عن هذه الافكار والميول تجد ان « ليس في الوجود من يفهم كلمة من لغتها » لذلك نلاقي في كتابات جبران كثيراً مما يبين لنا مبهماً ويشكل علينا فهمه . بل قد يشكل فهمه على الشاعر نفسه . هكذا نسمعه يتكلم عن « ضمير الارض » وعن « العبودية للحياة » وعن العاصفة التي « لا تأكل اللحوم الحامضة » وعن متنسك من لحم ودم يشرب القهوة والخمر ويدخن التبغ مع ذلك فقد ترك الناس وتقاليدهم الفاسدة واعتصم بصومعته « عند ما كانت الارض خربة وخالية وعلى وجه الغمر ظلمة وروح الله يرف على وجه المياه » وعن شبح يحفر القبور هو « رب نفسه » واسمه « الاله المجنون » ولد « في كل مكان وفي كل زمان » وليس بحكيم « لان الحكمة من صفات البشر » بل مجنون وقوي يسير « فتميد الارض تحت قدميه » ويقف فتقف معه « مواكب النجوم » مع ذلك فهذا الاله « المجنون » الذي كان من الازل في كل مكان قد « تعلّم » الاستهزاء بالبشر من الابالسة وفهم اسرار الوجود والعدم بعد ان « عاشر ملوك الجن ورافق جبابرة الليل » !

انه ليصعب عليّ ان اعزو هذه المبهمات في كتابات شاعرنا ، وهي كثيرة ، الى رغبة منه في مسح كل ما ينطق به بمسحة الهيبة التي ترافق كل ما هو مبهم ومتستر . غير اني أقر بقصوري عن فهمها ،

ولا اخال شاعرنا نفسه قادراً على تفسير كثير منها . ولعل ذلك ناتج عن ان روحه تنتقل في حالة الالهام الى عالم غير عالمنا فتعود منه برسوم واشباح كثيرة تحاول وصفها لسكان الارض بلغة الارض فتظهر مبهمة مشوشة . فيبقى الشاعر مجذوباً بها ، طامحاً الى كشف اسرارها واظهار معانيها ، وفي جده وراء البعيد المحتجب تلازمه « وحدة قاسية ووحشة موجعة »

لذلك فلا عجب ان نسمع جبران يكثر من ذكر الوحدة والوحشة وان نراه لا يلذ له من وصف مناظر الطبيعة الا ما كان فيه معنى الوحدة والوحشة والسر ، ومن البشر الا من كان فيهم مثل ما في روحه من الميل الى الانفراد والاستطلاع ، ومن الوحشة التي تلازم الانفراد والشوق الذي يرافق الاستطلاع والتذمر من كل ما في سبيل ذلك من العقبات

هكذا ، فالليل وما في ظلامه من الوحشة وما في اشباحه من الرهبة ، وفي سكينته من الاسرار ، هو أحب الرموز الى جبران . ففي الليـل قد صادف « حفار القبور » « وفي ظلام الليل » قد وقف يندب حظ اهله . « وعند ما جنّ الليل » سار نحو البحر حيث لاقى الاشباح الثلاثة التي كشفت له اقانيم الحياة الثلاثة . الحب والتمرد والحرية

وفي الليل باح له يوسف الفخري باسرار روحه . وفي الليل وقف يخاطب الليل :

« يا ليل العشاق والشعراء والمنشدين » ! ومن ذا الذي اجاد في وصف الليل كما اجاد جبران ؟ ما قرأت ، ولا اظن غيري قرأ لشاعر جاهلي او مخضرم او حديث وصفاً في الليل مثل هذا الوصف

« ايها الجبّار الواقف بين اقزام المغرب وعرائس الفجر المتقلد سيف الرهبة ، المتوج بالقمر ، المتشح بثوب السكوت ، الناظر بألف عين الى اعماق الحياة ، المصغي بألف اذن الى أنة الموت والعدم »

بل قلما طالعت لكاتب او شاعر غربي ما يعادل ذلك —

« في ظلالك تدِب عواطف الشعراء ، وعلى منكبيك تستفيق قلوب الانبياء ، وبين ثنايا ضفائرك ترتعش قرائح المفكرين . فأنت الملقن الشعراء ، الموحي الى الانبياء ، والموعز الى المفكرين والمتأملين »

اذا كان جبران قد ابدع في وصف الليل فذاك ، كما قلت سابقاً ، لانه وجد وجه شبه قريب بين روحه والليـل ، فكلاهما مفعم بالاسرار لذلك نسمع الشاعر يقول :

« انا مثلك ايها الليل »

« انا ليل مسترسل منبسط هادئ مضطرب وليس لظلمتي بدء وليس لأعماقي نهاية »

ومن مظاهر الطبيعة الأخرى التي تنجذب بها روح جبران

انجذاب الحديد بالمغنطيس — البحر — فالبحر وما في امواجه من الهيجان المستمر ، وما في اعماقه من الخفيات وما في هديره الابدي من العزم والعظمة والحنين ليس في عيني جبران سوى رمز لما في روحه من النزاع بين معروفها ومجهولها ، ومن الطموح الى ما وراء الوجود ومن النفور من المحدود الى غير المحدود

كذلك العاصفة وهي ثورة عناصر فوق قوى الانسان الجسدية والعقلية فهي لجبران عنوان الحرية المطلقة .

تلك الحرية التي لا يقف في وجهها خصم ولا يثبت معارض . هي ايضاً عنوان ما في نفس الشاعر من العناصر المتشاكلة المتضاربة، المتقاربة المتباعدة ، المتآلفة المتنافرة الهائجة ابداً بين تقاربها وتباعدها، وتآلفها وتنافرها

واذا تحولنا الآن عن رموز الطبيعة الى الرموز البشرية ، او الشبيهة بالبشرية ، وجدنا ان جبران لا ينتقي منها الا ما كان فيه بعض ما في نفسه من الوحشة والوحدة والغربة والنفور من الارضيات، والتعمق في الروحيات ، والتمرد على النظامات البشرية . حتى لنعجب اذ نرى في العواصف قطعاً غريبة عن روح جبران وروح « العواصف » وان يكن فيها بعض الجمال والتفنن . منها « السرجين المفضض » و « فلسفة المنطق » و « السم في الدسم » . ولعل الشاعر شاء بذلك ان يرينا انه يدرك هزل الحياة كما يدرك جدها .

ففي « فلسفة المنطق » مجون يضحك ويلذع في وقت واحد وفي « السرجين المفضض » خطوط رسوم الفناها في حياتنا اليومية ، غير اننا ما كنا نظن جبران ليحفل بمثلها . وفي « السم في الدسم » صورة لا تستلفت النظر طويلاً ، ولا تجعل الناظر اليها يقف حائراً مستفهماً ما خلا حيرته في امر نجيب مالك وانتحاره ، فلماذا قضى على نفسه ؟

غير ان هذه الرسوم ليست لتستوقفنا . فلنعد الى رسوم الوحشة والوحدة والغرابة والتمرد

فمن « حفار القبور » الى « الملك السجين » الى « يسوع المصلوب » الى « الجنيـة الساحرة » الى « قبل الانتحار » الى « رؤيا » الى « مساء العيد » الى « العاصفة » الى « الشيطان » الى « الصلبان » الى « الشاعر البعلبكي » يسير بنا جبران من متوحد الى متوحد ، ومن مستوحش الى مستوحش ، ومن متمرد الى متمرد ، وفي كل رسم من هذه الرسوم يتجلى لنا وجه من وجوه روح الشاعر . لان جبران شاعر ذاتي ، واعني بالشاعر الذاتي من طفح في داخله كيل الوجود حتى لم يبق له مِنْ شاغل الا محتويات نفسـه او من تمددت نفسه لدرجة لم يعد يرى معها الا نفسه فلا يشعر الا بآلامها ، ولا يسمع الا صوتها ، ولا يسير الا مع اشواقها ومطامحها . لذلك وان تعددت اسماء اشخاصه او ابطاله

هم في الواقع واحد — الشاعر نفسه — فجبران هو ذلك الشبح الغريب الذي لا حرفة له الا حفر القبور ، وهو الملك السجين ، وهو الجنية الساحرة ، وهو القائل بلسان المنتحر ان « الحياة امرأة عاهرة ولكنها جميلة ، ومن يرَ عهرها يكره جمالها . » وهو الاشباح الثلاثة على شاطىء البحر المنادون بثالوثية الحياة . « الحب وما يولده . والتمرد وما يوجده . والحرية وما تنميه » وهو يوسف الفخري في « العاصفة » والشيطان في « الشيطان » وبولس الصلبان في « الصلبان » فلا عجب اذ ذاك لو وجدنا تشابهاً كلياً بين هؤلاء الاشخاص . فما هم الا اسماء مختلفة لشخص واحد هو جبران خليل جبران . فكلهم نافر من المدنية ، ناقم عليها ، يعيش في عالم غريب عن عالمنا باهوائه وافكاره وميوله . ويصبو الى ما وراء المحسوس . وكثيراً ما يطلو الشاعر اشخاصه بطلاء كثيف من الغرابة حتى يخيل لنا انهم مصابون بضرب من الجنون بل ان الشاعر يفاخر بأن يظهر ابطاله بمظهر الجنون لكي يتميزوا عن بقية الناس الذين يقيسون الفضيلة والحب والعدل والجمال بمقاييس حاجاتهم الجسدية . وجبران يكثر من ذكر الجنون والمجانين لدرجة يجعلنا معها ان نقف ونسأل انفسنا ما اذا كانوا هم المجانين ام نحن . فحفار القبور عنده « اله مجنون » والناصري ظهر له مساء العيد وكلمه تارة كالفيلسوف وطوراً « كالمجنون » وقال بعض الناس عن يوسف الفخري « هو مجنون » ولجبران

قصيدة نثرية عنوانها « الليل والمجنون » وقصة قديمة دعاها « يوحنا المجنون » وكذلك كتاب باللغة الانكليزية دعاه « المجنون » فما هو هذا الجنون الذي لا يأنف الشاعر من الاتصاف به ؟ أهو اختلال في الدماغ ، ام شغب في العواطف ؟ كلا . بل هو شذوذ عن السنن المألوفة والقواعد المطروقة ، شذوذ ناتج عن حنين في الروح الى الجمال المطلق والحق الذي لا تشوبه شائبة .

وكما ان المجنون يعتقد الجنون في كل انسان إلا نفسه هكذا جبران الشاذ عن القواعد يرى في سلوكه القاعدة الحقة . اما سواه فشاذ عنها . فبينما نسمعه يشكو الوحدة وينادي « انا غريب في هذا العالم » نعود فنسمعه يقول « وهل أنا غريب بينهم (بين الناس) أم هم غرباء في ديار بنتها الحياة واسلمتني مفاتيحها ؟ . . . » ولا شك في ان من كان بيده « مفاتيح » الحياة كان على هدى وكان غيره في ضلال . وقد يتبادر الى ذهن البعض ان من كان هذا شأنه مع الحياة يجب ان يكون سعيداً حتى النهاية . ولكن جبران ليس سعيداً لأن في قلبه مرارة وفي روحه كآبة . فمن أين اتت تلك المرارة وما هو مصدر تلك الكآبة ؟ اذا شئنا ان نفهم ذلك وجب ان نفهم نظر الشاعر في الحياة . فما القصد من الوجود ؟

في « العواصف » قطعة بديعة بنسجها ومغزاها تحت عنوان « البنفسجة الطموحة » وفيها مفتاح فلسفة جبران . فالبنفسجة

الصغيرة لم تكن لتقنع بما قسم لها الحظ في عالم الازهار بل كانت دائماً تصبو لو تصبح يوماً ما وردة ، فترتفع عن التراب وتحول وجهها نحو الشمس وازرقاق السماء . فلما حققت الطبيعة امنيتها « هاجت سواكن الوجود » فاقتلعتها و بعثرت اوراقها . واذ قامت طائفة البنفسج تهزأ وتشمت بها اجابتهن قائلة :

« لقد كان بامكاني الانصراف عن المطامع والزهد في الامور التي تعلو بطبيعتها على طبيعتي . ولكني اصغيت الى سكينة الليل فسمعت العالم الأعلى يقول لهذا العالم انما القصد من الوجود الطموح الى ما وراء الوجود . »

فهذه هي غاية الوجود في نظر جبران — الطموح الى ما وراء الوجود — اما كل ما من شأنه ان يقتل او يخدر هذا الطموح فباطل الاباطيل وقبض الريح « باطلة هي المدنية وكل شيء فيها » وما اختراعات العقل البشري واكتشافاته « سوى ألاعيب يتسلى بها العقل وهو في حالة الملل » ولا المعارف والفنون سوى « الغاز واحاجي » و بالاجمال فكل اعمال الانسان باطلة « وباطل كل شيء على الارض » ومع ذلك يرى الشاعر بين كل هذه الاباطيل امراً واحداً خليقاً بحب النفس وشوقها اما كيف يكون بين « الاباطيل » ما هو خليق « بحب النفس وشوقها وهيامها » فما اترك تفسيره للشاعر نفسه . وذاك الامر هو « يقظة في النفس » وفي

تلك اليقظة ادراك ما سبق من ان القصد من الوجود هو «الطموح الى ما وراء الوجود » وما هي تلك اليقظة ؟ « هي عاطفة تهبط على قلب الفرد فيقف مستغرباً مستهجناً كل ما يخالفها ، كارهاً كل شيء لا يجاريها ، متمرداً على الذين لا يفهمون اسرارها . » وهذا هو مصدر المرارة في قلب جبران والكآبة في نفسه - انه وقد استيقظت نفسه يراها محاطة بأنفس لا تزال تغط بسلام وطمأنينة في حضن الحيـاة ، فيحاول ايقاظها فلا تستيقظ ، فيستغربها ويستهجنها ويكرهها واخيراً يتمرد عليها . وقد يسوقه كرهه الى حد الغلو الفاحش في الطعن والتعنيف . فنراه تارة يحفر القبور لكل من لم تستيقظ نفسه وطوراً مسلحاً بمباضع يعملها في كل من لا يجاري يقظته . ثم نسمعه يخاطب بني امه بهذه اللهجة

« انا اكرهكم يابني امي لانكم تكرهون المجد والعظمة
انا احتقركم لانكم تحتقرون نفوسكم »

فما هذه المرارة التي تفلق الصخر الاصم ؟ ألا ترون ان هذه المرارة ممزوجة بكآبة عميقة ؟ ألا ترون ان قلب الشاعر يتفطر لأن قومه لا يفهمونه ولأن نفوسهم لم تستيقظ كنفسه ؟

خذوا « العاصفة » أفلا ترون أن تمرد يوسف الفخري على المدنية وكل ما فيها ناتج عن حرقة في قلبه لأن ابناء المدنية لم يدركوا اسرار يقظته الروحية ؟ وهذه الحرقة والآلام المتولدة منها تدفعه

الى حد الجنون في كره الناس وتجعله ان ينطق بما لو فكر فيه قليلاً لما نطق به قط . هو ينصح للشاعر ان يترك الناس « وتقاليدهم الفاسدة وشرائعهم التافهة » وان يعيش « كالطيور في مكان خال الا من ناموس الارض والسماء » كأن الناس ليسوا بعضاً من ناموس الارض والسماء ! مع ذلك فما من واحد ادرك شدة مرارة الشاعر وعمق كآبته الا غَفَرَ له مثل هذا الغلو . فجبران أعقل من أن يطلب اصلاح الانسانية بالاعتزال عنها فلو اعتزل الناصري البشر واعتصم بالجبال والغابات وعاش « كالطيور في مكان خال الا من ناموس الارض والسماء » ؟ فمن اين كان للانسان هذا الرمز الالهيّ الذي تجسمت فيه أقصى أماني البشر والذي يخاطبه جبران بهذه العبارات الجميلة :

« وانت ايها الجبار المصلوب ، الناظر من اعالي الجلجلة الى مواكب الاجيال ، السامع ضجيج الامم ، الفاهم احلام الابدية ، أنت على خشبة الصليب المضرجة بالدماء اكثر جلالاً ومهابة من الف ملك على الف عرش في الف مملكة . بل انت بين النزع اشد هولاً و بطشاً من الف قائد في الف جيش في الف معركة »

ولو ان كل من استيقظت روحه في العالم ينسحب من العالم فمن أين كان للعالم سقراطه وافلاطونه ومحمده وسواهم من المصلحين

والمفكرين والشعراء الذين هم نور العالم والقوة التي تولد فيه القوة ؟ واخيراً من اين كان لنا جبران ؟ . . .

لا . لا . ان جبران لا ينادي بمذهب التنسك اعتقاداً منه بصحة هذا المذهب بل تضجراً من اوصاب المدنية واقذارها وقد يبلغ به هذا التضجر حد التعامي عن كل ما في الناس — وهو احدهم — من الخير والصلاح والفضيلة . او يشكل عليه الفصل بين الجميل والقبيح في المدنية فيدفعه حماس الشباب الى نكران المدنية بكل ما فيها . قلت « حماس الشباب » لأن الشباب ، وهو عصر فيضان القوى الروحية والجسدية ، يسير مدفوعاً بعواطفه اكثر مما بعقله . فالشباب يعيش بقلبه اكثر مما برأسه وشاهدي ان حملات جبران على الناس ومدنيتهم لم تكن خارجة من عقله بل من قلبه . ان معظمها كتب وجبران لا يزال في عنفوان الشباب واننا نسمعه الآن بعد ان نضجت قوى الشباب فيه يحدثنا عن سنة النشوء والارتقاء ففي « الجبابرة » نقرأ ما يلي :

« أنا من القائلين بسنة النشوء والارتقاء وفي عرفي ان هذه السنة تتناول بمفاعيلها الكيانات المعنوية بتناولها الكائنات المحسوسة فتنتقل بالاديان والحكومات من « حسن الى الاحسن انتقالها بالمخلوقات كافة من المناسب الى الانسب . فلا رجوع الى الوراء الا في الظاهر ولا انحطاط الا في السطحي »

وهكذا فان جبران المفكر يقول ان « لا انحطاط الا في السطحي » اما جبران الشاعر فيصيح بألم ومرارة « باطلة هي المدنية و باطل كل شيء فيها . . . و باطل كل شيء على الارض » وهذا الالم وتلك المرارة وهاتيك الكآبة التي تكلمت عنها سابقاً لن تترك الشاعر حتى يميل ببصره عن جهة الحياة السلبية الى جهتها الوضعية وجبران قد خطا خطوة كبيرة من السلبيات الى الوضعيات لذاك قد خفف كثيراً من عنفه وحدته وغلوه . فقلما نرى في ما يقطر من قلمه اليوم ما كنا نراه سابقاً من التضجر والمرارة قابلوا بين (حفار القبور) و « يا بني امي » و « المخدرات والمباضع » وكلها كتبت منذ عشر سنين او نحوها و بين تلك القطعة البديعة التي عنوانها « بين ليل وصباح » الا ترون أن المرارة تتدفق من كل سطر من سطور الاولى ؟ اما في الاخيرة فقد تغلبت الكآبة على المرارة بل هي الكآبة نفسها

« اسكت يا قلبي فالفضاء لا يسمعك .

« . . . كانت نفسي بالأمس شجرة قوية مسنة تمتد عروقها الى أعماق الأرض وتتعالى غصونها نحو اللانهاية . ولقد أزهرت نفسي في الربيع وأثمرت في الصيف ، ولما جاء الخريف جمعت أثمارها في أطباق من الفضة ووضعتها على قارعة الطريق فكان العابرون يتناولون منها و يأكلون ثم يسيرون في سبيلهم

« ولما انقضى الخريف وتحولت تهاليله الى الندب والولولة نظرت فلم أرَ في أطباقي سوى ثمرة واحدة أبقاها الناس لي . فتناولتها وأكلت فألفيتها مرة كالعلقم . وحامضة كالحِصْرِم . . . . »

هو ذا شاعر جمع كل أثمار نفسه على اطباق من الفضة وقدمها لقومه فتناولوا منها وأكلوا وساروا فى سبيلهم وليس منهم من وقف طرفة ليتصدق على مقدمها بكلمة شكر او ليقول له ان أثماره شهية لذيذة . وما كان جزاؤه منهم ؟ انهم لم يتركوا له الا ثمرة هي الخل والعلقم . مع ذلك فماذا كان من الشاعر ؟ هل قام يؤنبهم ويقرعهم ويحفر قبوراً ليدفنهم ؟ هل أعمل فيهم مباضعه أم راش عليهم سهام نقمته أم دعاهم اضراساً مسوسة ؟ كلا . بل ذهب الى مدينة الأموات وهناك جلس « بين القبور المكلسة مفكراً بأسرارها » وعاد يخاطب قلبه

« اسكت يا قلبي حتى الصباح ! . . »

وفي ذلك الخطاب لقلبه كآبة لا تدرك اعماقها — هي كآبة النبي الذي لا كرامة له في وطنه . كآبة المحسن المصلوب ممن اغدق احسانه عليهم . كآبة الشاعر الذي يكتب بدم القلب فلا يميز الناس بينه وبين من يكتب بحبر احمر

غير ان الامة السورية بل الآداب العربية وإن أنكرت جبران عاماً ستقدس ذكره أجيالاً . اذ لا يختفي مصباح تحت

مكيال ولا مدينة على رأس جبل . فجبران سيحيا في آدابنا لأنه ثورة زعزعت اركان حصوننا الأدبية المتداعية وجاءتنا بمقاييس جديدة للجمال في البيان سيحيا جبران لأنه عاصفة اقتلعت كثيراً من أغراسنا المسنة البالية التي كانت لا ظل ولا ثمر . سيحيا جبران لا بنقده للتقاليد والطقوس . بل بعواطفه المتدفقة تدفق السيل وبروحه الطامحة أبداً من المعلوم الى المجهول . من الوجود الى ماوراء الوجود السابحة ابداً في عالم الجمال المطلق ، الناطقة بألحان النظام السرمدي

سيحيا جبران لأنه خمر جديدة في زقاق جديدة

قد تهب العواصف ثم تهدأ فكأنها لم تهب . اما عواصف « عواصف » جبران خليل جبران فلن تسكن ولولتها في حياتنا الأدبية حتى لا يبقى في العربية من أدمغة رثة ترشح بأفكار رثة في آنية رثة ، ولا من أرواح منتنة تنتشر منها روائح منتنة ولا من جهال يحسبون تلك الأدمغة كنوزاً وهاتيك الارواح مسكاً وندا

الفصول

مجموعة مقالات أدبية واجتماعية وخطرات وشذور لكاتبها عباس محمود العقاد
الطبعة الاولى . مطبعة السعادة . سنة ١٩٢٢

انما الكاتب قلب يخبر . وعقل يفكر . وقلم يسطر . فحيث لا شعور فلا فكر . وحيث لا فكر فلا بيان . وحيث لا بيان فلا ادب .

الشعور والفكر والبيان — ثلاثة لا يكون رجل كاتباً الا اذا توفرت له أكثر من توفرها لسواد إخوانه في البشرية . ولولا تفاوت الناس بعمق الشعور واتساعه ، وحدة الفكر واندفاعه ، وجمال البيان وجلائه لكان كل من عرف القراءة والكتابة كاتباً

على سطح هذه الارض قلوب عديدة غير ان اكثرها تتدفق الحياة من حوله ومن فوقه فتنحدر عنه انحدار الموجة عن الصخرة . ان أمثال هذه القلوب لا تخبر . وان خبرت فعن تخمة في البطن أو تكمش أو عن وجع في الرأس . أو زكام في الانف

وعلى الارض عقول كثيرة . وأكثرها تتناوله الاشياء ولا يتناولها . وتغربله ولا يغربلها . فأمثال هذه العقول لا تفكر . بل يدور مع الليل والنهار بقوة العادة والاستمرار

وعلي الارض قناطير من الاقلام . لكن منها ما يقول له العقل والقلب اكتب «نعم» فيكتب «لا». ان مثل هذا القلم لا يسطر . وان سطر فحروفاً سوداء على أوراق بيضاء لا علاقة بينها وبين عقل الكاتب وقلبه

ومن نكد البشرية — وقد يكون من حسن حظها — ان أمثال ما ذكرت من القلوب والعقول والاقلام هي القاعدة السائدة فيها . وما اختلف عنها فشذوذ . وكل شاذ نادر . لذاك ندر وجود الكتاب والشعراء وأبناء الفن

للناقدين ولع بتحديد مراتب الكتاب والشعراء . والمقابلة بين واحدهم والآخر . وتفضيل هذا على ذاك . أو ذاك أو على ذلك . وقد يكون في مقابلاتهم وتفاضيلهم نفع لهم أو لقارئيهم . أما أنا فان عثرت على كاتب له قلب يخبر . وعقل يفكر . وقلم يسطر . شكرت ربي الف مرة ومرة . وتركت للقارىء المقارنة بينه وبين سواه . ومحاسبته بالخطإ والصواب والحلال والحرام . والنفع والضرر . فتقديرك الكاتب منوط بما تقرأ من نفسك وعنها في سطوره وبين سطوره . لا بما يقرأه سواك . فرب كتاب أطالعه فألفيه ترديد اصداء بعيدة . هي أصداء أفكار وعواطف خبرتها فنيذتها من زمان . ويطالعه سواى فيرى في كل سطر من سطوره فكراً جديداً وعاطفة جميلة . والعكس بالعكس . لذلك لست أرى جزيل نفع في المقارنة

بين الكتاب والشعراء ومتى أنست من كاتب قلباً يحس . وفكراً يقابل ويستنتج . وقلما يصور باخلاص قست اذ ذاك مقدرته الكتابية لا بعدد ما يضمن سطوره من « الحقائق الراهنات » و « المعجزات البينات » وغريب المفردات . بل ما يثيره فيّ من العواطف والافكار ، وبما يوجه اليه بصري من ظواهر الامور وبواطنها حتى اني لاؤثر كاتباً يخالفني في كل رأي أراه على كاتب ينطق بأفكاري وعواطفي . فقد يروقني من الثاني جلاء في الافصاح ليس لي . وتلك منة صغيرة . لكن منة الاول عليّ أكبر وأوفر لانه يكشف لعيني عوالم كانت خفية عنها . ويفسح لفكري وعاطفتي مجالاً ما كان لهما . فيدفعني بذاك الى تصفية حسابي مع نفسي . والى تقويم بضاعتي الروحية ولولا ذاك لما عرفت اني من أبناء هذه الحياة

تصفحت كتاب « الفصول » فألفيته من الكتب التي تشارك في تأليفها قلبٌ شاعرٌ واعٍ . وفكرٌ متنبه ممحص ، وقلم عربيٌّ صميم ، سهل القياد في أكثر مسالكه ، فتيّ الروح . مستقل النزعة . وما أندر القلوب الواعية ، والافكار المتنبهة ، والارواح الفتية ، والنزعات المستقلة في آدابنا العربية

ان ما جمعه العقاد بين دفتي كتابه الجديد من الفصول والشذور يملأ نحواً من ٣٠٠ صفحة من القطع الكبير . حبّرها في أوقات

مختلفة ونشرتها صحف مختلفة في مصر ابان السنوات العشر الاخيرة . وقد تناول فيها طائفة واسعة من الموضوعات الادبيـة والاجتماعية قد يتبـين القارىء شيئًا من مداها ومنحاها لو ذكرت له بعض عناوينها . فمنها : « نظرات في فلسفة المعري . آراء في الاساطير . الألعاب الرياضية . الثقـة بالناس . كتاب البؤساء (وهي نظرة في ترجمـة حافظ ابراهيم لرواية هيغو المعروفة) . على اطلال المذهب المادي . ساعات بين الكتب . الادب العصري . جمال الطبيعـة . سر تطور الامم . المتأنقون . مهاتما غاندي . اللغات والتبعير . لحظة مع نيتشه . معرض الصور المصري .«وكثير سواها .وليس بالصعب على من شاء مجادلة كاتبهـا ان يعثر فيها على نقاط عديدة تصلح محوراً للجدال . فقد يغالطـه في رأيه في فلسفة المعري الذي يدحض به بعض نظرات وردت في كتاب « ذكرى أبي العلاء » للدكتور طه حسين . وقد يلومه للومه حافظاً على ترجمـة « البؤساء » فالرواية ليست بنظره حرية بالترجمة. وقد يستغرب تعليله لتأثير جمال الطبيعة فينا بأنه صدى فرح أجدادنا من قديم الزمان بالمناهل والمراعي لانعامهم . اقول ان من شاء مجادلة العقاد لايعدم مأخذاً بل مآخذ لذلك . لكنه لا يسعه الا الاعتراف لهـذا الكاتب بالاخلاص لنفسه ولقارئه فيما يقول وما يرى . والاعجاب بنزعاته الجديّة الى الاستقلال في الفكر والرأي . ولو كان بامكاني لنقلت هنـا

صفحات بكاملها من « فصوله » تجلت فيها نظرات بعيدة صائبة . ورسوم طلية شائقة . على انه اذا ضاقت الفسحة بكلها لن تضيق ببعضها . فإلى القارىء هذه الكلمات المأثورة في ختام مقدمة الكتاب حيث يتكلم الكاتب عن الحق والجمال والقوة فيقول :

« قد تختصم القوة الصغيرة والحق الصغير . وقد يختلف الجمال المحدود والحق المحدود . ولكن القوة الكبرى والحق الاكبر لا يختصمان . والجمال الشامل والحق الخالد لا يختلفان . على أنه لا حق وراء هذه الحدود ينفرد عن قوة ولا جمال . ولكنها كلها عناوين شتى لصورة واحدة : هي القدرة التي يبدأ منها كل شيء واليها يعود »

وكذلك قوله في فصل عن « الالعاب الرياضية » وفيه نظرات كثيرة جليلة وقويمة :

« انه خير لنا ان يكون منا مجازفون متهوسون من ان لا يكون بيننا مجازفون على الاطلاق . فيقتلنا حب السلامة ونحسبنا ناجين وادعين ونحن في الحقيقة نعرض انفسنا لأرذل الأخطار . واي خطر أرذل من استكانة النفس وتقلصها من قشورها ؟ »

أما كلماته التالية في حالة الشعر العربي كما ورثناه وعرفناه حتى بدء نهضتنا الادبية الحديثة فناصعة بارعة :

« وأما الشعر فكان لا يقصد به غير الوزن والاستكثار من محسنات الصنعة . فملأوه بالتورية والكناية والجناس والترصيع .

وجعلوا قصائدهم كلها كأنها شواهد نظموها ليذيلوا بها كتب البيان والبديع . وظهر في الشعر التطريز والتصحيف والتشطير والتخميس. وراح الشعراء يتبارون في اللعب بالالفاظ وجمعها كما يتبارى الاطفال في جمع الحصى الملون وتنضيده . وكان الشاعر منهم يلاحق البيت بالبيت . او يشبك المصراع بالمصراع .ويخلط كلامه بكلام غيره . وهو لا يحسب انه يخل بروح الشعر . لأنه يلتزم حرف الروي في كل بيت وعروض البحر في كل قصيدة . . . » اوليس ان هذه الحالة التي وصفها العقاد في صيغة الماضي تنطبق كل الانطباق على جانب كبير من حياتنا الشعرية الحاضرة ؟

الى القارىء كذلك خلاصة رأى صاحب « الفصول » في الفرق بين المدنيتين الغربية والشرقية . وقد جاء على هذه المقارنة في سياق رسالة بعث بها الى صديق . اذا اكبرت هذا الرأي من العقاد بنوع خاص فليس لأنه يتفق مع رأيي كل الاتفاق فقط بل لأنه شاهد جديد لي على ان صاحب «الفصول» ليس ممن تغرهم القشور او تبهرهم الزركشة الخارجية قال في « الرسالة الثالثة » :

« انني لا أقيس المدنية الغربية بعدد اختراعاتها ولكن بالملكات التي أنتجتها . فهل بين هذه الملكات ما هو أعظم وأجل وأرفع من الملكات التي ابدعت صناعات المدنيات الغابرة وعلومها وفنونها ؟ ان كان ثمة فرق فهو يسير جداً بالنسبة الى غطرسة المدنية

الغربية ودعاواها . وأنا أعتقد اعتقاداً جازماً ان القمة الروحية التي ارتقى اليها نساك الشرق وفلاسفته لم يبلغها غربي ممن نعرفهم ونقرأ كتاباتهم وان هذا التقصير عيب كمين فيهم . ويكفي ان اوروبا لم تنبت نبياً . وانها عالة على الشرق في ما تدين به . »

لقد اعجبتني من العقاد نظرته الواسعة في اللغة ومكانتها من الحياة الادبية حيث قال في فصله « اللغات والتعبير » :

« واني لاصغر شان هذه العلوم والآداب القائمة كلها على تفاهم اللغات كلما تأملت فرأيت الأشياء الكثيرة التى تقوم بوجدانات الانسان ولا يحس بها . والتي يحس بها ولا يعبر عنها . والتي يعبر عنها ولا تصل برمتها الى عقل سامعها . فيتأكد لي ان الناس في حاجة الى تفاهم ارقى من هذا التفاهم اللغوي »

ان الكتاب حافل بمثل هذه الأقوال الماثورة التي يراها القارىء بارزة بقوتها وجمالها بين السطور دون ان يرى ساعات التأمل الداخلي ، والانفراد النفسي ، والتعطش العقلي والروحي التي حبلت بها طويلاً ووضعتها رسوماً حية مرتعشة بين يديه وامام عينيه . فمن الفصول التي تزيد في قيمة الكتاب فصل « الثقة بالناس » لما فيه من دقة في وصف بعض طبقات الناس . وفصل « مغنّي المجالس » وفيه كثير من المجون اللداغ الموجة الى المغنين الذين لا يعرفون من الغناء الا « يا ليل » ويحسبون غناءهم تغريد البلابل وهو نهيق الحمير.

وحري بالنظر كذلك فصله « المتأنقون » وأحرى منه مقاله في « قوة الارادة » فهو رشيق بأسلوبه القصصي التصويري . صادق بمغزاه . اما « ساعاته بين الكتب » فهي مزيج لطيف من النثر الشعري والقياسات النظرية الادبية

لقد عرفنا العقاد في كتاب « الديوان » ناقداً له مقاييس ادبية دقيقة . ونراه في « الفصول » الناقد الذي عهدنا . والكاتب الذي له قلب يخبر . وعقل يفكر . وقلم يسطر . فاذا ما تمنينا « لفصوله » رواجاً فحبًا بقراء العربية . لا غيرة على شهرة الكاتب الادبية او منفعته العادية

فهرس « الغربال »

الرقم	الموضوع
٥	كلمة الناشر
٦	مقدمة الكتاب
١٤	الغربلة
٢٤	محور الادب
٣٠	الرواية التمثيلية العربية
٣٨	الحباحب
٦٧	المقاييس الأدبية
٧٧	الشعر والشاعر
٩١	نقيق الضفادع
١٠٨	الزحافات والعلل
١٢٧	فلنترجم !
١٢٨	الأرواح الحائرة
١٤٥	الدرة الشوقية
١٥٥	القرويات
١٦١	الريحاني في عالم الشعر
١٦٨	السابق
١٧٦	ابتسامات ودموع
١٨٣	غاية الحياة
١٨٧	اغاني الصبا
١٩١	النبوغ
١٩٥	شكسبير خليل مطران
٢٠٦	الديوان
٢١٧	عواصف « العواصف»
٢٤٢	الفصول

وأجرة البريد أربعة قروش لمصر وثمانية للخارج

عنوان المراسلة — صندوق البريد رقم ٩٥٤ بمصر

معجم لم ينسج
على منواله
حتى الآن
ولا يستغنى
عنه اى مشتغل
باللغة الانجليزية

معجم جديد

القاموس العصري

عربي انكليزي

يحتوي
٤٥٠٠٠ كلمة
عربية حية
مرتبة على
طريقة المعاجم
الافرنكيه

يباع فى كل
المكاتب بمصر
وغيرها او يطلب
من مؤلفه بمصر
صندوق البريد
رقم ٩٥٤

مصوّر

لمؤلفه
الياس انطون الياس

ثمنه
مائة قرش
مصرى واجرة
البريد اربعة
قروش لمصر
وثمانية للخارج

20 MAY 2010